المؤرخ العربي

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

العدد الثاني

مجلة المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

العدد الثاني

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

المحتويـــات

أهداف تربيتنا الوطنية

الدكتور حسين أمين
الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب

نحن نستهدف إعداد جيل صالح من المواطنين ، لذا فان هذا الاعداد يتوقف اولا واخيرا على ما نضع من اسس واهداف تربوية لتحقيق ذلك .

وقبل ان نضع الاهداف من الاجدر أن نعرف المواطن الصالح ، إنه ذلك المواطن الذي أعد اعدادا تربويا صحيحا ، واصبح بمقدوره أن يعيش ويسلك في هذه الحياة بنجاح ، ومتفهما مقومات تلك الحياة ومشكلاتها ، ومسهما بصورة فعالة في تنظيم علاقاته مع بقية افراد المجتمع مساهمة فعالة تقوم على الرغبة في التعاون وخدمة المجموع العام ، ومؤمنا ايمانا صادقا بعقيدته وقوميته ووطنيته ، ومتحسسا بكل ما يدور حوله ، متحليا بالاداب الحسنة والاخلاق الطيبة ، ومدركا على ماله من حقوق وما عليه من واجبات ، محترما قوانين الدولة وخاضعا لانظمتها .

ومدارسنا التي نستهدف منها اعداد مواطنين صالحين مهيئين لخوض معترك الحياة ، حيث نلقنهم مختلف المواضيع العلمية والأدبية لا بد من أن نؤكد في توجيهنا لهذا الجيل ، العمل على توجيهه الوجهة الصالحة التي تخدم مصلحته ومصلحة المجموع العام ، وتعود على الوطن بالخير والنجاح ، هذا التوجيه الذي نريده لا بد من وضع اسس واهداف له كي يتم تحقيقه بشكل مرضي .

ان الحاضر الذي نعيشه والذي تعقدت مشاكله وتعددت اسبابه نتيجة التطور والتقدم الفكري والعلمي والصناعي والاجتماعي واختلاف النظم القائمة في العالم ، واتجاهات الفكر المختلفة ، وتأثيرها على السياسة والاقتصاد وآثارها البليغة في حياة الفرد الاجتماعية والحياتية وتعدد المصالح والمؤسسات في الدولة ؛ اننا حين نعرض هذه المشاكل ، انما نحن مؤمنين من ان هذه وغيرها لها الآثار البعيدة في حياة الفرد والمجتمع ، وبما اننا نستهدف اعداد الجيل إعدادا كاملا لخدمة المجموع العام لا بد لنا من أن نضع امام طلابنا حقيقة الحاضر وكيف وصل المجتمع الى هذه المرحلة خلال التطور الحضاري التاريخي وآثار التعقيد نتيجة التقدم العلمي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، وان نبني له بصورة حقيقية ناصعة، النظم المتبعة في العالم مع بيان مميزات وخصائص كل نظام مع الشرح الوافي والتوضيح الكافي لما عليه نظام الدولة التي يعيش فيها المواطن وما هي مؤسساتها وتشكيلاتها السياسية والادارية كي يتعرف على نظام دولته السياسي وجهاز حكومته الاداري ، بحيث نجعله قادرا على ان يسلك في المجتمع سلوكا طبيعيا وناجحا وهو متعرف على إدارات الدولة ومؤسساتها وبهذا نكون قد حققنا هدفا من اهداف البناء الاجتماعي ، ذلك هو كشف الطريق المعقد وتعريف المواطن على كل ما يدور حوله من نظم وتشكيلات إدارية وسياسية واجتماعية •

ونستهدف في مدارسنا غرس الوطنية في نفوس الشيء • اننا نعرض عليه فرديته في المجتمع وأثره فيه ، وتكوينه له ، وعلاقته ببقية الافراد وكيف يجب ان تكون تلك العلاقة من حيث تنظيم المشاعر والاحاسيس والعواطف ، وغرس روح التعاون ، وتفهمه بوطنه، التربة التي يعيش عليها والتي ورثها عن الآباء والأجداد ، ومن يسكن عليها وما علاقته بهم ، وكيف يعيشون ؛ ونبعث في نفسه حب التعاون والمساعدة للمواطنين ، وتوضح له دولته ، مم تتكون ، وما شكل الحكومة ؟؟ قوانينها

ونظمها ، فالوطنية هنا ايجابية لا سلبية . الطاعة لقوانين الدولة والخضوع الطوعي لانظمتها ،ما دامت تلك القوانين قد وضعت واوجدت لتنظيم العلاقات بين افراد المجتمع وحماية المواطنين وامنهم وسلامتهم ولتحقيق حقوقهم التي رسمها الدستور .

هذا ما يتعلق بالوطن الاصغر ، ولكن هناك هدف آخر مهم يجب ان نلتفت إليه بعناية ونؤكد عليه في تربيتنا ، ذلك اننا نعتقد ان العرب لا بد وان توحد كلمتهم ويجمع شملهم وان هدف كل عربي استكمال وحدة الامة العربية وانها والحق لغاية الغايات وحلم كل ذي شرف ووطنية ، فلا بد من ان نربي جيلنا تربية وطنية صحيحة قائمة على تهيئة الجيل لتقبل فكرة توحيد الكلمة وجمع الشمل . ولا يعني هذا ان اذكر بالخير نظام دولة عربية واهاجم بالسوء نظام دولة عربية اخرى ، فان رجل التربية يعلم ان التطور التاريخي مستمر وان الفرصة التي سنحت للشعب العراقي بالانعتاق مثلا ، لم تحن بعد للشعب العربي الآخر لظروف كثيرة، فالواجب يقضي علينا ان نستهدف توثيق العلاقات الطيبة وبث روح التعاون والحب والاحترام بين شعوب وحكام البلاد العربية وهذا هدف سام متى ما تمكنا من تحقيقه نكون قد خدمنا القضية العربية خدمة صادقة لوجه الله والوطن.

ولما كنا طلاب وحدة لابد لنا من ان نستهدف هدفا مهما ذلك هو تكوين رأي عام عربي ، ان نفهم طلابنا بحقيقة الواقع العربي ومتطلبات الشعب العربي وان يكون هذا الرأي العام العربي موحد الشعور والغايات، موجها توجيها صحيحا وبوحدة الشعور وحسن توجيهه نكون قد هيأنا المشاعر والاحاسيس ووجهنا الجيل الوجهة التي نريدها نحو عالم عربي متحرر ، تتفاعل في الجماهير الاحاسيس الوطنية الطيبة المنبثقة من واقع تأريخهم ، وظروفهم وحياتهم الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية، واننا متى ما خلقنا رأيا عاما عربيا مستنيرا واقفا على واقعه ، سوف تتمكن من حل كثير من القضايا والمشاكل التي تواجه وطننا الصغير والكبير ،

وبالرأي العام المستنير سوف تتمتع بحقوقنا والحفاظ على استقلالنا وحرياتنا وسيادتنا ووحدتنا ، وبالرأي العام المستنير نحبط جميع المؤامرات الاستعمارية ، وبالرأي العام المستنير نخلق جيلا عربيا متفهما لاصوله واهدافه ومتطلباته في المعترك الدولي .

مر الشعب العربي في تاريخه الطويل بمراحل تاريخية متعددة ، وقد رزح ذلك الشعب تحت حكم نظام جائر لا يقوم الا على الاستبدادية والحكم الفردي ، ولما كانت الديمقراطية هي النظام الذي تتوخاه الشعوب وتتمنى أن تعيشه ، فلا بد لنا من ان بنين لطلابنا في دراستهم نظم الحكم المختلفة ، ومميزات كل منها ثم الوقوف اخيرا على النظام الديمقراطي ذلك النظام الذي يقوم على ان يحكم الشعب نفسه بنفسه ، وتجبر الحكم القائم على ان يخضع الحاكم لحكم الشعب ، ولا يتم ذلك إلا بعد ان نخلق رأيا عاما مستنيرا متفهما لمعاني الديمقراطية ومقدرا قيمها .

والديمقراطية التي كنا نستهدفها وثيقة الصلة بالحرية ، لان الحرية هي من اهم مظاهر الديمقراطية ، ولا بد لنا من أن نعرف الحرية التي يجب أن يفهمها الجيل ، انها التمتع بالحقوق التي كفلها الدستور ، انها الاخلاص بالعمل والنزاهة في اداء الواجب ، انها الشعور بالمسؤولية ، إنها العدالة والحرص على المصلحة العامة ، انها احترام حقوق الآخرين وعدم الاعتداء على تلك الحقوق .

اننا نستهدف بناء جيل ، مواطنين صالحين ، فلا بد في حياتنا الحاضرة في وضعنا الديمقراطي من أن نغرس تلك المبادىء السامية والاخلاق الفاضلة التي تحقق نجاحهم في الحياة العملية .

علينا أن نتدرج في توضيح وتفهم معاني الحرية ومفاهيمها ، وكيف تمكنت الانسانية من الحصول على ثمرات الحرية بعد جهاد طويل ونضال مرير ودائما ابدا تؤكد على وجوب المحافظة لمكاسبنا في الحرية بشكل يتفق

والقوانين السائدة ونغرس في نفوس طلابنا حب تلك الحرية وعدم الأساءة الى مفاهيمها او الاعتداء على حريات الاخرين ، لاننا نستهدف إعداد جيل ، مواطنين صالحين ، يحيون الخير لانفسهم ولمواطنيهم وللبشرية جمعاء .

ومن الحرية ومفاهيمها نعرج على مساوىء الاستعمار واهوال الحروب ، فبامكاننا ما دمنا نريد تربية وطنية قائمة على اسس انسانية لا بد لنا من ان نشجب كل محاولة للاستعمار ، وابقاء الشعوب الضعيفة تحت سطوة المستعمرين أيا كان لونهم ، لان الاستعمار معناه فقدان حرية الشعب ، والحرب هي اصل الاستعمار ، والاستعمار والحرب صنوان لا يختلفان تربط بينهما روابط قوية ذات صلات وثيقة ، فبالاضافة الى التخريب والدمار وقتل الاطفال والنساء وضياع ما اتجه الانسان من مدنية وحضارية ، انها ضياع لكرامة الشعب وسيادته ، انها تؤدي الى قتله واستعباده ، من هذا نخرج بالمعاني العظيمة لاخطار الحرب والاستعمار والى اهمية الحرية والحياة فيها ، وكيف ان الآباء والاجداد دافعوا عن لحرية بدمائهم واموالهم لان الانسان بلا حرية هو انسان بلا حياة .

إذن فلنغرس في نفوس طلابنا حب الخير والحرية والسلام وبهذا نكون قد حققنا هدفا ساميا من دروسنا في التربية الوطنية يحقق لنا خلق جيل يشعر باهمية الحرية ويحيط بمفاهيمها السامية .

والقومية شعور متجانس عند جماعة ما تربط بينهم روابط عديدة منها التاريخ القديم واللغة والعادات وغيرها من المشاعر والاحاسيس ، والقومية العربية بمفهومها الحالي هي تلك الاحاسيس والمشاعر والروابط الاخرى التي تربط بين ابناء الأمة العربية والتي تحفزهم الى مقارعة الاجنبي وتخليص الشعوب العربية من الاستعمار ، وتدفعهم الى تقديم العون الى اخوانهم المناضلين في كل مكان .

والقومية المثلى هي تلك التي تحترم القوميات المختلفة ولا تزدريها ولا تعتقد ان عناصرها ازكى من عناصر القوميات الاخرى ، وتعترف بوجود القوميات الاخرى ولا تعتدى عليها ، إذن لا بد لنا من هدف سام عند تدريسنا للتربية الوطنية بعث الشعور القومي الوطني ، موضحين لطلابنا حياة العرب وعناصرهم وتاريخهم وعلاقاتهم وروابط بعضهم بالبعض الآخر ، ونؤكد أنه ليست هناك قومية افضل من الأخرى وان شعوب العالم كلها يسودها الاخاء والسلام واننا حين نستهدف بعث الوطنية والروح القومية في نفوس النشء أنما نهذب ذلك بشكل يصبح متجانسا مع التطور العالمي ومبدأ التعايش السلمي والابتعاد عن العدوان ، كما اننا في بعثنا لتراثنا القومي انما نعني بذلك تقوية الشعور الوطني وتوحيد الصفوف والتأكيد على وجوب التعاون بين الاقطار العربية وتخليصها من الاستعمار والرجعية وتهيئة حياة افضل لشعبها ثم السير بها نحو طريقها التاريخي الاصيل ذلك هو وحدة الوطن العربي الأكبر .

والوطن ، تلك التربة التي ورثناها عن الآباء والاجداد ، والتي ضحى من اجلها الاحرار من آبائنا للحفاظ عليها طاهرة ندية ، صالحة للبناء ، وهي وديعة للاجيال يحافظون عليها ويعملون على ازدهارها وتقدمها ، يذودون عنها باموالهم وانفسهم ، والدفاع عن الوطن واجب مقدس ، فمن اهم اهدافنا في التربية الوطنية ان نبذل العناية البالغة في غرس هذا الهدف في نفوس طلابنا وتحبيب الوطن إليهم وتمجيده واعلاء شأنه والعمل على رفع مستواه متعاوناً مع ابناء الوطن الآخرين يدا بيد وكتفا الى كتف ، حتى يصبح الوطن قوياً متماسكا تسود ابناءه المحبة والاخاء وروح التفاني في سبيل كرامة الوطن والمحافظة على سلامته من كل اعتداء .

اننا نستهدف من تدريسنا للتربية الوطنية خلق مواطن عامل ، نشيط ، دؤوب ، يسعى نحو عمله ورزقه وعلينا ان ننمي فيه هذه الرغبة ونشجعه على ذلك كي نخلق منه مواطنا عاملا يكون قادرا على ان يسلك في العمل وسط هذه الحياة العملية .

ونحن نسعى جاهدين الى خلق مواطنين صالحين يعملون لخير الوطن ولخير المجموع العام وهـذا يتم متى ما تمكنا من ان نبرز لطلابنا اهميـة الشعور بالمسؤولية ، عند سلوك الفرد في هذه الحياة ، وواجب الفرد في مجتمعنا هذا يجب ان يتم عن طريق حرصه على المصلحة العامة ، وهو واجب حتمي يتجلى ذلك في المجتمعات التي سارت في طريق الرقي والتقدم وبلغ ابناء تلك المجتمعات شوطا كبـيرا في الثقافة والمدنيـة وانهم ادركوا ان استمرارهم في ذلك الرقي وتلك المدنية انما يتوقف على مقـدار تمسكهم باداء هذا الواجب ، وعندي ان المجتمع يقاس بمقدار ما يشعر به افراده من المسؤولية ومقدار تقبلهم لتنفيذ تلك الواجبات الملقاة على عاتقهم لخدمة المجتمع ، وبذلك فان الاستخفاف بالمسؤولية والاستهتار بالمصلحة العامة من دلائل الانحطاط والتخلف اللذين لابد وأن يؤديا بالمجتمع الى عواقب سيئة ، والعكس ففي تقدير المسؤوليـة والحرص على تنفيذ الواجبـات لخدمة المجموع وتطبيقا للنظام من دلائل التقدم والرقي ويؤدي حتما الى نتائج طيبة ، الى تعاون الافراد في تماسكهم وتفاهمهم وبالنتيجة الى وحدة المجتمع ورصانته وتقدمه كتلة واحدة نحو الاهداف السامية التي نريـد تحقيقهـا .

من اهدافنا في التربية الوطنية ، غرس العـادات الصالحة والسجايا الحميدة في نفوس الطلاب واعدادهم للدخول في معترك الحياة وارشادهم الى السبل القويمة التي ينبغي أن ينبض فيها نشاطهم ، وان تكون تربيتنا توجيه وتثقيف ، وان نهتم بتربيته الجسمانية فلا بد من اشرافنا وتوجيهنا له في مراحل تكوينه الجسمي لنعد جيلا قويا في جسمه ، قويا في اخلاقه، قويا في تفكيره ، وبذلك تكون قد اعددنا اللبنة الصحيحة الصلدة الصالحة لبناء المجتمع، وباشرافنا على حالته الصحية والعقليـة وتوجيهه الوجهـة الصالحة نكون بذلك قد اعددنا الفتى لخوض الحيـاة في مستقبله وانارة ذلك الطريق له بتزويده معلومات ثقافية متعددة الجوانب ، نعرفه نظام دولته ومم يتكون ذلك النظام وما هي المؤسسات الحكومية ، وما سياسة دولته

واتجاهها ، والمجتمع الذي يعيش فيه ، ما هي مميزاته ؟ ما هي اللغات السائدة في وطنه ؟ وما هي العادات المتوارثة وما هو الصالح منها والطالح؟ وتوقفه على واقع حالة امته ، وكيف نرقى بتلك الامة ، وما هي الاهداف التي تستهدفها تلك الامة ؟ ونوقفه على حالتها الاقتصادية ، وما منتجاتها ؟ صادراتها ووارداتها ، وما هي اهم الصناعات فيها ؟

وعلى العموم نعطي للطالب بيانا صادقا لما عليه أمته وحياتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية ، ونضع امامه الحلول الناجعة لتقدم امته، حتى يكون على علم بما عليه وطنه كما يكون على ثقافة تمكنه من التتبع والمشاركة في ابداء الرأي في وضع الحلول لازدهار الوطن ذلك لأن كل فرد مطلوب منه ان يشارك في رفع مستوى مجتمعه الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، ويعمل على تقدم وازدهار وطنه .

إذن نحن نستهدف اعداد جيل من النشء يعتز بشخصيته ، له أخلاقه الفاضلة وآدابه الاجتماعية الطيبة ، ومتفهما وطنه وحاجياته مشاركا بروح وطنية صادقة في اعلاء شأن وطنه وامته .

وخلاصة ما تقدم اننا نريد اعداد جيل يؤمن بالوطن ويسعى جاهدا لاعلاء شأنه والدفاع عنه بماله ونفسه ، مزودا بثقافات مفيدة ذات صلة ببيئة وحياته ، وتوجيهه الوجهة الصالحة في الحياة ونعرفه على حقوقه وواجباته مع الاهتمام بمعاني الحرية وكيف يجب ان يمارسها ، ونبين لطلابنا مساوىء الاستعمار واهوال الحروب كما نؤكد في دراستنا على وجوب احترام حقوق الغير ، والتمسك بالنظام الديمقراطي الذي هو اسمى ما وصلت اليه المجتمعات من نظم الحكم الخيرة ، ونسعى الى تكوين رأي عام عربي ، متفق في المشاعر والاحاسيس . وبذلك نكون قد قدمنا خدمة جليلة لابنائنا ووجهناهم الوجهة التي نريدها ، وأدينا واجبنا الوطني .

والله ولي التوفيق ؟

المولى اسماعيل
وتحرير ثغور المغرب

للدكتور جلال يحيى
أستاذ ورئيس قسم التاريخ
جامعة أسيوط

تألق نجم سلطان من اكبر سلاطين المغرب منذ عام ١٦٧٢ ، وهي السنة التي ارتقى فيها المولى اسماعيل عرش بلاده . وكان اسماعيل قد ولد في عام ١٦٤٦ ، وارتقى العرش بعد أخيه المولى الرشيد .

وكان تاريخ المغرب قد تميز ، بعد قرون، باستمرار الجهاد ضد القوى المسيحية ، سواء في شبه جزيرة ايبريا ، او في ثغور المغرب الاقصى نفسه حين جاءت القوات الاسبانية والبرتغالية لاحتلال هذه الثغور ، ومحاصرة العرب في القارة الافريقية ذاتها .

وكان المولى الرشيد ابنا لسلطان تافيلالت ، في جنوب المغرب ، وامتاز بشجاعته وقوة عزيمته ، الامر الذي ساعده ، في وقت ضعف سلاطين الدولة السعدية ، على ان يحتل عواصم المغرب الاربعة ، ويسيطر على فاس وتافيلالت وتارودانت ومراكش . واذا كان المولى الرشيد قد تمكن من تجميل عاصمته فاس ، الا ان حياته لم تمتد بشكل يسمح له بتثبيت دعائم وحدة الحكم على كل اقاليم المغرب الاقصى ، الامر الذي وفر من بعد لاخيه المولى اسماعيل .

وكانت هناك اختلافات واضحة بين سكان الاقاليم المختلفة من المغرب ، ورجع ذلك لاسباب جغرافية أو اقتصادية . فكان سكان جبال الاطلس يتميزون باستقلالهم وبدائيتهم ، ويصعب مقارنتهم بتجار مدينة

فاس ، الذين كانوا يعيشون عيشة ناعمة ، كما كان من الصعب مقارنتهم برجال البحر في سلا ، والذين تميزوا بطموحهم وشهوانيتهم • وكان هناك رجال الحرب الذين كانوا يتمنون وقوعها في كل لحظة ، في الوقت الذي كان فيه تجار فاس يأملون في سيادة السلم ، وبشكل يسمح لتجارتهم بالنمو ، وفي ظل الامن اللازم لذلك • وكان هناك الفلاحون في منطقة الدكالة والشاوية ، والذين كانوا يزرعون القمح والشعير ، ويربون البهائم والجمال ، وتنتشر في اقليمهم الخيام المصنوعة من الصوف الاسود ، وينتجون الزبد والشمع والصوف والحمص ، والعدس والفول ، وكان هناك فلاحون آخرون ، أكثر توطنا واستقرارا منهم ، في منطقة فاس ، وفلاحون آخرون في جبال الريف ، يمتازون بقسوتهم وخشونتهم وبفقر اقليمهم • اما في سهول المغرب فقد كان هناك نوع ثالث من المزارعين ، تمتد اراضيهم الى ساحل المحيط الأطلسي ، والى سلا ، وكان في وسعهم ان يصلوا الى البحر المتوسط عن طريق تطوان ، وبقرب القواعد العسكرية الاسبانية • اما منطقة مراكش ، عاصمة الجنوب ، ومنافسة فاس ، فانها كانت مركزا للعلم والدراسات الاسلامية، في نفس الوقت الذي كانت فيه مركزا تجاريا وحضاريا • وكان اقليمها مملؤا بالنخيل ، الذي يشارك في صنع لوحة رائعة مع اشعة الشمس المتلألئة على قمم الاطلس المغطاة بالثلوج • وازدهرت في هذا الاقليم زراعة اشجار الزيتون • اما منطقة تافيلالت ، فانها كانت واحة في وسط الصحراء ، واحاطت الرمال فيها من كل جانب باشجار النخيل ، وامتاز اهلها بتصميمهم على العمل ، وبثقتهم بانفسهم • وكان في وسع من يسيطر على مراكش ان يفرض نفوذه عبر ممرات الاطلس الاعلى في الجنوب على وادي السوس ، وهو ذلك الاقليم الخصب ، والذي زاد من ثروته دخوله في معاملات تجارية مع الدول الاجنبية ، عن طريق ميناء اغادير ، الذي شهد استيراد الاسلحة والذخائر ، وتصدير خام النحاس وتبر الذهب • وفي اقصى الجنوب ، كان هناك وادي درعا ، الذي امتاز

اهله بالقسوة والخشونة • ويمكننا ان نضيف الى ذلك اقاليم الطوارق، التي كانت تثور احيانا ، وتخضع احيانا أخرى ، والاقاليم السودانيـة ، التي كان يتم غزوها من وقت لآخر ، والتي امتازت بكونها مصدرا للجنود السود ، الذين كان يسهل صيدهـم ، ويسهل تمرينهم وتدريبهـم على الحرب ، والذين كانوا يشتهرون بالولاء ، وحتى الموت •

وكانت القوافل هي وسيلة المواصلات الوحيدة بين هذه الاقاليـم المتجاورة والمتميزة عن بعضها • ولا شك في ان الفوضى والاضطرابات كانت تؤثر اسوأ الاثر على سير هذه القوافل ، ولكنهـا كانت تسير ، بشكل أو بآخر ، رغم العقبات والعوائق ، اذ انهـا كانت تستند الـى ضرورات اقتصادية وضرورات معنوية ، للاتصال بين الاهالي المتجاورين في اقاليمهم ، حتى وان ضعفت السلطة المسيطرة عليهم جميعـا في بعض الاوقـات •

وكان هذا التباين الموجود بين اقاليم المغرب الاقصى المختلفة ، مع سيادة نظام الحكم الاسروي ، الاقطـاعي ، سببا في ثـورات وحـروب داخلية بصفة شبه مستمرة ، وتشتد بشكل خطير ومهدد عند وفاة احـد السلاطين • وكان للمولى اسماعيل اثنين وثمانين أخا ، من والـده المولى علي الشريف ، أعطتهم له ما يقرب من خمسين زوجـة وجارية • ونشـأ هؤلاء الاخوة دون رعاية ابوية كافية ، وفي جو من التشاجـر والتخاصم والتنافس ، وفي جو من المؤامرات وعمليات الاغتيـال ، وفي مناخ من العقوبات البدنية القاسية التي كان الامير يوقعها بزوجاته وابنائه ، وأثـر كل ذلك في تربية « الامراء » وفي روح القسوة وحتى الوحشـية التي تميزوا بها • وظهر ذلك بوضوح بينهم حين تولوا حكم عواصم المغرب ، ومحاولة بعضهم الانفراد بحكم اقليمهم ، ومحاولة البعض الاخر السيطرة على الاقليم المجاور • وكان السلاح هو وسيلتهم لذلك ، وفي شكل حرب اهلية ، ان جاز هذا التعبير ، أو حرب اسروية ، وخاصة اذا ما خلى مركز

السلطنة • وكان اشدهم قسوة وقوة وغلظة ووحشية هو الذي يتمكن من الانتظار ، وكان على كل سلطان جديد للمغرب ان يبدأ حكمه عملية غزو لاقاليمه المختلفة ، وبحد السيف •

ومنذ عهد المولى الرشيد ، تميز أخاه المولى اسماعيل ، بالشدة والقوة والغلظة والوحشية • وعرف المولى الرشيد كيف يفيد من مزايا اخيه الاصغر ، خاصة وان فترة حكمه كانت مليئة بالثورات والحملات العسكرية ، وبالوحشية في تنفيذ الحكم على المتمردين • وكان المولى اسماعيل هو الذي تمكن من اخماد الثورة التي كانت قد نشبت في تازا ، وبشكل جعله يحظى برضاء المولى الرشيد ، ويحصل على منصب امير مكناس ، مكافأة له على تدعيم سلطته ، حتى وان كان ذلك نتيجة للقتل وللوحشية ، بين افراد نفس الاسرة • ومنذ ذلك الوقت اصبحت مكناس هي مدينة المولى اسماعيل المفضلة ، وسيقوم فيها بتشييد القصور والاسوار واصطبلات الخيل ، ويحاول تجميلها ، ويتخذها عاصمة له عند وصوله للسلطنة •

★ ★ ★

وكان المولى الرشيد يقيم في مراكش ، عاصمة الجنوب ، حين وقعت له حادثة في ثاني ايام عيد الاضحى لسنة ١٠٨٢ هـ (٢٤ مارس ١٦٧٢ م)• ودخل المولى الرشيد بستان المسرة وهو على ظهر فرسه ، ليتجول فيه ، ولكن الفرس جمحت به دون أن يأخذ حذره ، فصدمت رأسه باحد الفروع ، وقيل ان فرعا دخل في اذنه ، وسقط على الارض مضرجا بدمائه• وكان في ذلك منيته •

وسرى خبر الحادث بسرعة الى عدد من الامراء • وكانت فرصة فريدة امام المولى اسماعيل ، ولكن بعض اخوته ، الذين كان عددهم يزيد على الثمانين ، كانوا يمنون انفسهم كذلك بالتربع على عرش السلطنة •

وحاول المولى الحران ، وهو الاخ الاكبر للمولى الرشيد ، أن يسبق المولى اسماعيل في الاستيلاء على فاس ، وخاصة وانها كانت العاصمةالتي كان المولى الرشيد قد خبأ فيها كنوزه وثرواته .

ولكن انباء الحادث كانت قد وصلت الى المولى اسماعيل في وقت مبكر ، فتمكن من الاستيلاء على فاس ، وعلى مابها من كنوز السلطان السابق . واعترف علماء فاس وطلبة القرويين بالمولى اسماعيل ، ودعوا له في خطبة صلاة الجمعة . وسرعان ما وصلت الانباء بأن المولى احمد ابن محرز قد اعلن نفسه سلطانا في مراكش وانه قد اخذ فيالاستعداد للزحف بقواته الى الشمال ، لمحاربة المولى اسماعيل . واصبح على هذا المولى أن يبدأ عملية اعادة غزو اقاليم السلطنة ، الاقليم تلو الاخر ، حتى يتمكن من الاحتفاظ بالسلطنة .

ولقد زحف المولى اسماعيل بسرعةصوب الجنوب ،والتقى الجيشان، في موقعة بين ما يزيد على خمسين ألف رجل ، في احد السهول القاحلة ، وفي ميدان امتلأ بسحابة كثيفة من الغبار . وامتاز جيش المولى اسماعيل بأنه قد اشتمل على اربع قطع للمدفعية يعمل عليها عدد من الاسرى المسيحيين . وظهر خوف رجال مراكش من البارود ، وأسرع عدد كبير من جنودهم بالهرب وبالعودة للتحصن وراء اسوار عاصمتهم الحمراء ، وفر اميرهم من ميدان المعركة . ويروي الناصري ان المولى اسماعيل انتصر على اهل مراكش « وهزمهم ، ودخل مراكش عنوة يوم الجمعة سابع صفر سنة ثلاث وثمانين وألف ، فعفا عن اهلها ، واجفل ابن محرز وشيعته الى حيث نجوا »[1] .

وتمكن المولى اسماعيل ،بالشدة والقسوة من اخضاع اقليممراكش،

---

(١) الناصري : الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى . دار الكتاب ، ١٩٥٦ . جـ ٧ ص ٤٦ .

ورغم ذلك فان سلطنة المغرب لم تكن قد خلصت له بعد • ووصلت الى المولى اسماعيل في ذلك الوقت انباء تعلن نشوب الثورة ضده في مدينة فاس ، وانباء اخرى تعلن أن المولى احمد بن محرز ، الذي فر بعد الهزيمة قرب مراكش ، قد عاد واستولى على تازا ، واخذ يستعد للزحف على فاس • ووصلت انباء اخرى عن نشوب الثورة في الريف كذلك ضد المولى اسماعيل •

ولا يمكننا أن تتناسى أهمية ثورة الريف ، خاصة وان الخضر غيلان كان قد عاد من الجزائر الى وطنه الاصلي تطوان • وكان الخضر غيلان من كبار امراء البحر المجاهدين ضد السفن المسيحية ، وكان على صلات ود وصداقة وتحالف مع حكام الجزائر ، وله كثير من المؤيدين في شمال المغرب • وعاد الخضر غيلان الى المغرب ومعه اثنى عشر سفينة حربية ، بقيادة مصطفى باشا ريس ، امير البحر الجزائري • ولا شك في أن اتجاه رجال البحر في شمال المغرب وفي الجزائر كان يتعارض مع نمو القوة البرية لسلاطين المغرب في داخل البلاد ، ويهدد بخروج من اقاليم المغرب عن سلطة السلطان المغربي ، وفي صالح القوة البحرية التي كانت متحدة مع الدولة العثمانية •

وكان على المولى اسماعيل ان يواجه هذا الموقف بكل حزم ، رغم تعدد الاعداء في كل اتجاه • وعرف المولى اسماعيل كيف يفيد من الفرقة الموجودة بين اعدائه ، حتى يتمكن من ضربهم الواحد بعد الآخر •

وكانت مفاجأة أن يسير المولى اسماعيل من مراكش صوب الشمال مباشرة ، ويترك جناحه الايمن معرضا لثورة فاس ، وللتمرد الموجود في تازا • وكانت جرأة منه ولا شك انه حاول ابعاد هذا الخطر في الشمال ، واستغلال اقليم الريف لتجنيد الرجال اللازمين له في حربه في منطقة فاس وتازا ، وفي الثغور • ولقد استخدم المولى اسماعيل السياسة بين سكان فاس وبعضهم حتى يحصل على الوقت اللازم له لتوجيه ضرباته الى جهات

اخرى • ونلاحظ أن معظم العمليات كانت تحدث في ذلك الوقت في ظل نظام أقطاعي واضح ، يشتمل على قيادات تتحالف أو تتحارب مع بعضها ، وتغير من مواجهاتها طبقا للدسائس أو للمصالح التي يمكنها ان تحصل عليها من هذا الجانب أو ذلك •

واسرع المولى اسماعيل بمهاجمة قوات الخضر غيلان وسط سهول المغرب ، دون أن يترك له حرية اختيار الزمان والمكان اللذين قد يحققان له النصر • وتمكن جيش المولى اسماعيل من هزيمة قوات الخضر غيلان وتشتيتها ، وقتل الخضر غيلان في المعركة ، ولم يتمكن المولى اسماعيل بذلك من استجوابه ومعرفة المكان الذي كان قد خبأ فيه كنوزه ، ونتيجة لسنوات طويلة من صيده البحري •

ولقد سمح هذا النصر للمولى اسماعيل بالسيطرةعلى الجزءالشمالي من المغرب ، وسهلت بذلك مواصلاته مع الدول الاوربيــة ، واصبح في وسعه ان يهدد المراكز والقواعد العسكرية الاوربية في شمال بلاده ،وعلى سواحلها الغربية •

أما في وسط المغرب ، فان المولى اسماعيل قد استخدم السياســة ونجح بها في فاس كذلك ، خاصة وانها اشتملت على المكر والدهــاء • واستجاب العلماء في فاس لهذا السلطان المنتصر ،والذياعلن ودهواحترامه للعلماء ، رغم قسوته وجبروته على اعدائه في الحرب ، ووجد من العلماء من مدح المولى اسماعيل ومرؤته ، اذ انه اكتفى بأخذ رأس الخضر غيلان بدلا من أن يطلب رؤوس كل امراء تطوان • فخرج علماء فاس وطلبتهــا مهللين للمولى اسماعيل « المظفر بالله » داعين لــه بالنصر ، ومعلنين لــه الولاء ، وطالبين منه العفو • وكان المولى اسماعيل قــد احضر معه من سهول الغرب رأس الخضرغيلان لكي يطاف بها في فاس، ارهابا للاهالي، ولكنه عاد وقبل توسط العلماء في أن يعاد الرأس الــى القصر الصغير ، ويدفن بكل اجلال واحترام ، بعد حياة مليئة بالجهاد من اجل الاســلام

والمسلمين . ولا شك في ان معاملة المولى اسماعيل للعلماء واستماعه واستجابته لمطالبهم كانت تدعم من حكمه وتثبت من اركان سلطته في البلاد ، وتظهره بمظهر القوي الذي يمنح . ولا شك كذلك في ان اعتماد المولى اسماعيل على العلماء في عملية ضرب القيادات الاقطاعية الموجودة في ذلك الوقت كانت تشبه ما حدث في اوربا في عصر لوي الحادي عشر، وفي عصر نمو الملكيات الحديثة ، اذ ان الطبقة الوسطى الرأسمالية لم يكن لها وجود بالمعنى المفهوم في المغرب في ذلك الوقت . وتمكن المولى اسماعيل عن طريق العلماء والطلبة من القضاء على معارضة كبار الجالية الاندلسية في فاس ، والحصول على ولاء مدينتهم ، وأردف ذلك بنزع الاسلحة والذخائر من سكان فاس .

واذا كان المولى اسماعيل قد تمكن بهذه العمليات من السيطرة على الجزء الاوسط من سلطنته ، فقد كان عليه ان يسرع باخضاع بقيةالاقاليم المغربية ، كما كان عليه أن يعمل على تحرير ثغور المغرب من الحكم الاجنبي ، خاصة وان القوات البريطانية كانت تحتل طنجة ، كما انالقوات الاسبانية كانت تحتل كل من سبتة ومليلة ، والمهدية والعرائش وأصيلة . وسيكتب للمولى اسماعيل النجاح في تحرير الجزء الاكبر من هذه الثغور المغربية من ايدي قوات الاحتلال الاجنبي ، وبشكل يقرن هذه العملية باسمه في التاريخ .

★ ★ ★

كان وجود الجنود المسيحيين في ارض الاسلام وصمةعار للمغاربة ، وكذلك للمولى اسماعيل . وكانت طنجة من أعز مدن ثغور الاسلام على قلوب المغاربة ، ولكنهم رأوا احتلال البرتغاليين لها منذ سنة ١٤٣٧ حتى سنة ١٦٦١ ، ثم مجيء الانجليز لها بعد ذلك . وكان وجودهم فيها يعتبر طعنة خنجر في هذه المدينة المغربية ، والثغر الاسلامي .

حقيقة ان وجود الانجليز في طنجة لم يكن يعني استمرار الحرب

بينهم وبين المغاربة طول الوقت ، ذلك ان تبادل السلع والتجارة كان يتم بين الطرفين في الفترات الواقعة فيما بين المعارك والعمليات الحربية ، وكانت الاسلحة والبارود تصل الى ايدي المغاربة ومن التجار الانجليز أنفسهم . ولكن هذا الوضع كان لا ينفي وجود حالة الحرب بين الطرفين، او الدولتين ، بشكل مستمر ، حتى وان كانت بعض الهدنات قد تخللت فترة الحروب الطويلة .

وحاول الانجليز ، منذ سنة ١٦٧٤ ، ان يصلوا الى اتفاق مع المغاربة، فوصل وايت حاكم طنجة الى فاس ، ومعه بعض اعيان سلا ، الذين كانت السفن البريطانية قد اسرتهم في عرض البحر ، واصطحبه امير البحر عبد القادر مارينو حاكم سلا ، والذي كان قد ذهب اليه في القصر الكبير ، لكي يصطحبه الى السلطان في فاس . وقابل المولى اسماعيل الحاكم الانجليزي مقابلة طيبة ، ولكن السلطان رفض عقد الصلح . وقبل المولى اسماعيل الاسرى المغاربة الثلاثين ، وزود حاكم طنجة بهدية اشتملت على ثلاثمائة رأس من البقر ، ومثلها من الغنم . ولاشك ان المولى اسماعيل قد اظهر كرما كبيرا في عملية دفع فدية عينية للاسرى ، اذ انه لم يكن من طباعه دفع أية فدية عن اي مغربي يقع في ايدي الاعداء ، ويعتبر انه قد فشل في الدفاع عن نفسه وعن بلاده ، ولا يستحق اي ثمن .

وبعد عامين من ذلك ،بدأت المباحثات من جديد بين انجلترا والمغرب، بشأن اعمال القرصنة والاعتداء على السفن في اعالي البحار . وكان هذا الوقت صعبا بالنسبة للمولى اسماعيل ، وكان مشغولا حينئذ في حملاته العسكرية التي كان يقوم بها ضد ابن اخيه ، المولى احمد بن محرز ، وما ان انتهت هذه العمليات حتى بدأت العمليات الحربية من جديد بين المغاربة والانجليز في طنجة ، منذ يناير سنة ١٦٧٨ . وقاد القوات المغربية المحيطة بطنجة القائد عمر حدو ، الذي يمكن اعتباره على أنه خليفة للخضر غيلان ، بعد ان انتشر صيته وتدعم نفوذه في كل منطقة المغرب .

وأخذت القوات المغربية في مهاجمة الحصون المحيطة بمدينة طنجة ، وتمكنت من تخريب بعضها . واستخدم المغاربة في هذه العمليات الالغام وبعض الغازات الخانقة ، وبعض النيران والقذائف المحرقة . وربما كانت هذه الاسلحة ، والتمرن عليها ، قد وصل اليهم عن طريق الجزائر ، اذ انها المنطقة الوحيدة من المغرب التي ظهر استخدامها فيها ، وكانت شائعة الاستخدام عند العثمانيين ، وحتى في الجزائر. وربما اشتمل جيش المغرب المحاصر لطنجة في ذلك الوقت على بعض المتطوعين من الجزائر ، خاصة وان عمليات الجهاد في ذلك الجزء الشمالي من المغرب كانت دائما مرتبطة ببعضها ، وفي كل شمال افريقية ، رغم خضوع بعضها لحكم العلويين ، والتفاف الاخر حول العثمانيين . ونجحت قوات القائد عمر حدو في شهر ابريل سنة ١٦٧٩ في الاستيلاء على قلعتين أخرتين قريبتين من طنجة ، وبشكل زاد من تهديد المغاربة للقاعدة الحربية البريطانية في شمال البلاد . وقام القائد عمر حدو ، في شهر مارس سنة ١٦٨٠ بهجمة كبيرة على طنجة ، وأردفها بهجمة ثانية في شهر ابريل ، ثم جاءته الاوامر من السلطان بضرورة زيادة الضغط على اسوار طنجة ، وأعلمه المولى اسماعيل بقرب وصول بعض وحدات من الجنود السود ، العبيد البخارى، وحرسه الشخصي ، لكي يعاونوه في عملية الهجوم على طنجة .

وتمكن القائد عمر حدو من محاصرة احدى القلاع الجديدة ، ومن تحطيم اسوار قلعة اخرى بالالغام . واضطر الانجليز الى سحب قواتهم من المواقع الامامية ، بدلا من تزويدهم هذه المواقع بقوات جديدة ،فأدى الامر الى تمكين المغاربة من الزحف وزيادة الضغط على القوات الانجليزية المحاصرة في طنجة . وكان الانجليز قد اضطروا عند انسحابهم من بعض هذه القلاع الى اتلاف المدافع الموجودة فيها ، ووضع الالغام في داخلها حتى لا تقع سليمة في ايدي المغاربة . وعمل تقهقر الانجليز على رفع الروح المعنوية عند المغاربة ، خاصة وان المولى اسماعيل نشر في طول

البلاد وعرضها أخبار انتصار قائده عمر حدو على الانجليــز في طنجة .
وأمر باقامة الصلوات في المساجد شكرا لله على ذلك .

واذا كان نصر المغاربة حتى ذلك الوقت غير كامل ، فقد كان ممـا يزيد من قوته أن المغاربة قد قاموا بهذه العمليات ضد القوات البريطانية، دون أية معاونة من الدول الاجنبية ، الامـر الذي زاد من هيبـة المولى اسماعيل داخل البلاد ، وفي نظر الملوك الغربيين كذلـك . وظهر تمـرن المغاربة على استخدام الخنادق ، وتمرنهم على استخدام الالغام ، وبشكل لم يكن في حسبان الانجليز . وظهر فشل التحصينات التي كانت القوات البريطانية قد اقامتها حول طنجة بجذوع الاشجار بمجرد استخدام المغاربة للقذائف الحارقة ، بنفس طريقة استخدام العثمانيين لها في كل مكان .

ولا شك في ان انتصار المغاربة على الانجليز في هذه المرحلة الاولى من الحرب كان صدمة قوية للانجليز ، وعمل على خفض روحهم المعنوية ، وبشكل واضح ، حتى انه اصبح يهدد فاعلية الحامية البريطانية،وامكانيات احتفاظها بهذه القاعدة في شمال البلاد . ويمكننا ان نضيف الى ذلك ان تقدم المغاربة في محاصرتهم لطنجة بهذا الشكل قد حرم الانجليز من كل امكانية للخروج من المدينة ، سواء أكان ذلك لمقابلة القوات المغربية ، او للحصول على المواشي ومواد التموين . وكان من الصعب على انجلترا ان ترسل قوات جديدة ، وتنزلها الى ما وراء خطوط المغاربة المحاصرين لطنجة ، حتى تساعد على فك حصار هذه المدينة ، امـا امكانيـة قيام الاسطول البريطاني بالضغط على المواني المغربية الاخـرى ، وضربهـا بالمدفعية ، فلم يكن من المتوقع لها أن تؤثر على المغاربة أي تأثير . وظل الانجليز داخل اسوار طنجة ، عاجزين عن الخروج منها ، وعجزوا حتى عن ترميم الاسوار التي قام المغاربة بتحطيمها . وكانوا يشاهدون استيلاء المغاربة في كل يوم على قطعان البهائم ، وبشكل يوحي لهم بنقص مواد التموين اللازمة لهم . وكان نقص الخضر والفواكه والنبيذ في طنجـة

أمر يؤثر على معنوية الجنود الانجليز ، الذين اصبحوا يشعرون بانهم حامية محاصرة ، أو موجودة في المنفى وتعمل من اجل دولة ترفض أو تعجز عن امدادهم وفك حصارهم •

وحاولت انجلترا انترسل عددا من الضباط الممتازين الى طنجةلمعمل على رفع الروح المعنوية بين الجنود ، ولكن دون جدوى ، ثم قامت انجلترا بعد ذلك بارسال احدى الكتائب الى طنجة ، وسارت سفن الاسطول البريطاني لحراسة السفن التي تقلها وظهر خوف انجلترا من مهاجمة الاسطول المغربي أو الاسطول الجزائري لهذه القوة قبل وصولها الى طنجة ، هذه علاوة على خوف انجلترا من امكانية مهاجمة الاسطول الفرنسي لها ، وكانت حرب معلنة ضد لوي الرابع عشر • ولا شك في ان ارسال انجلترا لهذا المدد قد ارتبط بعملية نجاح المغاربة في غزو قصبة المهدية في المعمورة ، وانتزاعها من ايدي الاسبانيين • وقبلت سبانيا ان تقف الى جانب انجلترا لمحاربة المغاربة ، ومهاجمة قوات المولى اسماعيل وبصفته عدوا مشتركا لهم • وعقدت معاهدة وندسور التي تعهدت فيها اسبانيا لانجلترا بتزويدها بعدد من الفرسان ، وعدد من الخيول اللازمة لطنجة ، ولكن اسبانيا كانت مشتبكة في حرب مع المغرب ، وكان عليها ان تنجد قواتها المحاصرة هنا وهناك ،قبل قيامها بنجدة الانجليزالمحاصرين في طنجة •

وفي شهر سبتمبر سنة ١٦٨٠ انتهت الهدنة المعقودة بين المغاربة والانجليز واعتمد الانجليز على الادوات الجديدة التي وصلتهم ، وخاصة من الفرسان ، وقاموا بهجوم على خطوط المغاربة ، واستخدموا القنابل ، ولكن المغاربة اوقعوا بمعظم رجال القوة المهاجمة ، عن طريق الكمائن ، التي اقاموها لهم في كل مكان ، وقتل القائد الانجليزي في هذه العملية• وحاول الانجليز القيام بهجوم جديد في شهر اكتوبر ، وان كان ذلك لم يثبط من عزيمة المغاربة ، الذين زاد تمرنهم على استخدام المدفعية ، والتي

كانوا قد ثبتوا قطعها داخل كهوف حفروها لها في الجبال • وهكذا عجز الفريقان ، الانجليز والمغاربة ، عن تحقيق اي نجاح واضح في هذه العمليات •

وكتب حاكم طنجة الى كل من المولى اسماعيل والى القائد عمر حدو. ينبئهم أن ملك انجلترا يرغب في عقد الصلح معهم • ووصل القائد عمر حدو ، على رأس كتيبة من الجنود السود ، لاصطحاب « السفير » الانجليزي الى السلطان ، وقام الكولونيل كيرك بهذه المهمة • ومنحه المولى اسماعيل سلاما لمدة اربع سنوات ، ووقف كل عمليات حربية بين الجانبين • ثم وصل مندوب من انجلترا وعقد الصلح النهائي • وكانت شروط هذا الصلح في جانب المغاربة ، اذ أن المغرب رفض اطلاق سراح الاسرى الانجليز الموجودين لديه ، ورفض تطبيق هذا الصلح على عمليات الجهاد البحري بين سفن الدولتين ، وبهذه الطريقة كان هذا الصلح مجرد هدنة مؤقتة محددة بزمن معين ، وفي نطاق معين حول مدينة طنجة وحدها •

وحتى في مدينة طنجة لم يكن السلم سائدا بين الطرفين طوال الوقت ، رغم رفع الحصار عن المدينة • وعجزت سفارة احمد حدو الى انجلترا ، ومقابلته للملك والملكة ، عن وضع حد للصعوبات الموجودة بين البلدين • وكانت معاهدة هوايت هول في ٢٣ مارس سنة ١٦٨٢ هي عبارة عن تأكيد اتفاقية مكناس ، دون ان تصل الى تسوية نهائية لموضوع طنجة • ومع استمرار الوقت شعر الانجليز بان المعاهدة شيء والتعامل بين القوات الانجليزية في طنجة ، والقوات المغربية حولها شيء آخر •واستمر ذلك لمدة سنتين اخرتين •

وكانت الاوضاع الدينية والسياسية والمالية التي سادت انجلترا في ذلك الوقت ، وفي السنوات الاخيرة من حكم شارل الثاني تمثل ظهور الصراع بين انجلترا وبين انصار البابا في البرلمان البريطاني • وكان

البرلمان يخشى من تحول الاسرة المالكة في بلاده من المذهب البروتستانتي الى المذهب الكاثوليكي ، فرفض الموافقة على الاعتمادات المالية التي طلبها الملك من اجل طنجة ، وعلى اساس انها قلعة كاثوليكية ، يسيطر فيها رجال الدين الكاثوليك من الاسبان والبرتغال ، وتعتبر بالتالي مركزا من مراكز تدعيم النفوذ الكاثوليكي ، الذي كانوا يحاربونه • فقرر شارل الثاني ، في نهاية سنة ١٦٨٣ ، هدم تحصينات طنجه ، وهدم السقالات البحرية الموجودة في الميناء ، وهدم الميناء نفسه ، وسحب الحامية والرعايا الانجليز الموجودين فيها واعادتهم لانجلترا • وقام شارل الثاني بتعيين دارتموث للاشراف على هذه العملية ، ومنحه رتبة امير البحر ، رغم انه اعلن في انجلترا انه ذاهب « للتحقيق » في احوال طنجه • وفي ٤ من اكتوبر سنة ١٦٨٣ اعلن الانجليز لسكان طنجه قرار الحكومة الانجليزية ، ثم بدأت الاعمال ، واستمرت عملية هدم السقالة البحرية لمدة ثلاثة اشهر ، كما ان هدم الاسوار والتحصينات استمر طوال فصل الشتاء ، رغم قيام اكثر من الفي جندي بريطاني بهذه العملية •

وفي اثناء ذلك الوقت ، كان المغاربة الذين يحاصرون طنجة يقومون بمحاولات متتالية للهجوم عليها بقيادة القائد علي بن عبدالله ، واظهار العملية على انها عملية استيلاء على مدينة في اثناء الحرب • ويذكر لنا الناصري ان المولى اسماعيل قد « عقد للقائد أبي الحسن علي بن عبدالله الريفي على جيش المجاهدين ، ووجهه لحصار طنجه فضيقوا على من بها من النصارى وطاولوهم الى أن ركبوا سفنهم وهربوا في البحر وتركوها خاوية على عروشها ••• قاله في « النزهة » وقال في « البستان » لما ضاق الامر على النصارى الذين بطنجه ، وطال عليهم الحصار خربوها وهدموا اسوارها وأبراجها وركبوا سفنهم وتركوها فدخلها المسلمون من غير طعن ولا ضرب وشرع قائد المجاهدين علي بن عبدالله الريفي في بناء ما تهدم من اسوارها

ومساجدها » .[1]

وكان استيلاء قوات المولى اسماعيل على طنجه خطوة هامة في سبيل تحرير بلاده وثغوره من الاحتلال الاجنبي . وجاءت هذه العملية بعد عملية تحرير المغاربة لثغر المعمورة أو المهدية .

★ ★ ★

وكان نجاح المولى اسماعيل في اخراج الاسبانيين من عدد من القواعد العسكرية التي كانوا يحتلونها في المغرب من بين أهم الاعمال التي قام بها هذا السلطان والتي ميزت حكمه بالنصر وبتحرير الثغور .

وكان استيلاء الاسبانيين على هذه القواعد في المغرب سببا رئيسيا من اسباب انتشار الفوضى والقلق في المنطقة ، وفي الفترة السابقة لحكم المولى اسماعيل . وكانت العلاقات بين المغاربة والاسبانيين هي علاقات عداء تقليدي ، وظهر ذلك بوضوح في عملية طرد المغاربة من الاندلس ، وفي عملية الاستيلاء على ثغور المغرب نفسه ، مع اعطاء ذلك شكل الحروب الصليبية . واذا كانت جهود العرب والمغاربة قد نجحت في ابعاد الاسبانيين عن ثغور الجزائر ومراسيها ، كما نجحت في ابعادهم عن تونس وطرابلس، بمساعدة الدولة العثمانية ، فان اقدام الاسبانيين قد ظلت ثابتة ومدعمة في عدد من ثغور المغرب الاقصى ، وخاصة نتيجة للضعف الداخلي ، وللانقسام في هذا الاقليم العربي من ناحية ، ونتيجة لقرب هذه الثغور المغربية من اسبانيا نفسها ، من ناحية اخرى . وكانت اسبانيا تحاول التوسع في عملية الاستيلاء على الثغور المغربية حتى بلغ بها الامر ، في سنة ١٦١٤ الى الاستيلاء على قصبة المهدية ، التي تشرف على منطقة المعمورة، وتعتبر من اهم القصبات في سهول المغرب .

وكانت المهدية تبعد بمسافة خمس واربعين كيلو مترا الى الشمال من

---

(١) انظر : الاستقصاء جـ ٧ ص ٦٧ .

سلا ، وكانت تمتاز عنها في صلاحية مينائها واتساعه ، وسهولة تحصينها بالمدفعية التي يمكنها ان ترد عنها غارات الاساطيل الاجنبية . هذا علاوة على وقوع المهدية على مرتفع يشبع برج المراقبة ويكشف ساحل المحيط ، والسفن القادمة فيه ، ولمسافة بعيدة . واذا كان نهر ابو رقراق يزود سلا بالمياه ، فان نهر سبو كان يزود المهدية بما يلزمها من المياه . وكان وقوع غابة المعمورة على مشارف قلعة المهدية يسمح لهذه القاعدة العسكرية بالحصول على كميات كبيرة من الاخشاب اللازمة للوقود ، واللازمة حتى لصناعة السفن ، ويسمح لحماية هذه القلعة باتخاذ الغابة منطقة دفاع طبيعية من الطراز الاول بالنسبة للقاعدة .

واتخذ المولى اسماعيل لنفسه سياسة تحرير ثغور المغرب من الاعداء، ولا شك ان مجهودات المولى اسماعيل في هذا الميدان كانت كبيرة ، وانها اخذت جزءا كبيرا من وقته . ومن مجهوده ومجهود قواته المسلحة . ورغم قلة ما اوردته لنا الوثائق ، وضعف ما زودنا به المؤرخون العرب عن تفاصيل هذه العمليات ، وامكانياتها والطرق التي سارت بها ، وعدم اتفاق هؤلاء المؤرخين وبعضهم ، فيمكننا ان نرسم الخطوط العامة المبسطة لها ، مبتدئين بثغر المهدية .

ويذكر لنا « نشر المثاني » ان الاستيلاء على المهدية قد تم بالقوة المسلحة وقت صلاة الجمعة في يوم ١٥ من ربيع الثاني من عام١٠٩٢هجرية، ولكنه يذكر في نفس الوقت وجود رواية ثانية تذكر ان هذه العملية الخاصة بدخول جنود المولى اسماعيل الى هذه القصبة قد تمت بدون حرب أو التحام ، ذلك ان المغاربة قد منعوا وصول المياه الى الحامية المسيحية الموجودة هناك ، مما اضطر رجالها الى التسليم ، واستولى المسلمون على القصبة دون أن يضحوا بمسلم واحد . ويدعم هذا الرأي الثاني خطابات بعض الاسرى المسيحيين في المغرب الى الماركيز دي فيلار ، والتي اشتملت على ذكر قوة قصبة المهدية وقلعتها ، وتوفر التموين والذخائر فيها بكميات

كبيرة . ويعادل تاريخ استيلاء المغاربة على المهدية نهاية شهر ابريل سنة ١٦٨١ . وما ان دخل المسلمون ثانية الى قصبتهم حتى قاموا بتحسين الميناء ، واعادة ترميم الاسوار والحصون ، وساعدت اشجار غابة المعمورة على زيادة عدد سفن اسطول المولى اسماعيل . واصبحت المهدية في عصر المولى اسماعيل من بين أقوى وأهم القواعد العسكرية البحرية للسلطنة المغربية .

وكتب احد الفرنسيين الى كولبير ، الوزير الفرنسي ، في منتصف شهر مايو سنة ١٦٨١ ، عن استيلاء المغاربة على المعمورة والمهدية منذ خمسة عشر يوما ، وذكر أن قوة المغاربة المهاجمة بلغت عشرة الاف رجل بقيادة القائد عمر بن حدو ، وان المغاربة قد نصبوا بعض المدافع عند مصب نهر سبو من ناحية البحر لكي يمنعوا وصول اي امداد للاسبانيين ، ثم ابلغوا ذلك للمولى اسماعيل الذي حضر بنفسه على رأس جيش آخر بلغ ١٤٫٠٠٠، ١٥٫٠٠٠ رجل . ووجد قائد الاسبانيين الا امل له في المقاومة ، فاضطر الى التسليم ، وحصل على الامان لنفسه ولاسرته . وكان في المهدية ما يزيد على مائة مدفع وكميات كبيرة من الذخائر والبارود .

ولكن هذه الروايات لاتشف الغليل في معرفة تفاصيل هذه العملية، خاصة وانها قد تمت بسرعة . ولا شك أن المولى اسماعيل قد عرف بطريقة أو باخرى ، وربما عن طريق احد الفارين الاسبانيين من هذه القاعدة ، بنقص مواد التموين فيها ، وربما انتشار بعض الامراض بين رجال الحامية . وكان المولى اسماعيل في ذلك الوقت يستعد للزحف صوب نهرام الربيع ، وعلى رأس قواته المحاربة ابن اخيه المولى احمد بن محرز ، فكلف القائد عمر بن حدو بمحاصرة المهدية ، والاستعانة في ذلك ببعض رجال الحاميات الموجودة في مكناس وفاس وتطوان والقصر الكبير وسلا . وكان المولى اسماعيل بكل تأكيد يحاول بهذه الطريقة اعطاء لون « التطوع الوطني» لهذه القوة التي ستهاجم الاسبانيين في المهدية . ولكن المولى اسماعيل احتفظ

لنفسه بشرف الاستيلاء على هذه القصبة بنفسه • وقام المغاربة بقطع كل الطرق التي يمكن عن طريقها لرجال الحامية المحاصرة أن يتصلوا بأوربا • ووصل القائد عمر بن حدو امام المهدية في ٢٦ ابريل • ولم تكن الاراضي الواقعة بين اسوار المدينة وشاطيء وادي سبو محصنة الا ببعض الحواجز من جذوع الاشجار ، وبشكل سمح للمغاربة بالتغلب عليها دون كبير صعوبة • ثم بدأ المغاربة في مهاجمة البرجين اللذين كانا يدافعان عن الميناء، أو المرسي • واضطرت الحامية الاسبانية فيهما ، وكانت قليلة في عددها بالنسبة للقوات الوطنية المهاجمة الى التسليم • وبدلا من ان يقوم المغاربة بقتل الاسرى ، او ارسالهم الى معسكرات الاعتقال أو للعمل في منشآت السلطان ، تركوهم يذهبون مع بقية الحامية داخل اسوار المدينة • وكان عليهم أن يذكروا لزملائهم ولقائدهم أن المولى اسماعيل سيحضر بنفسه ، على رأس جيوشه ، لمساعدة القائد عمر ، واذا ما قامت الحامية باطلاق مدفع واحد ، فان جميع رجال الحامية سيذبحون •

ومنح المغاربة للاسبانيين هدنة طويلة ، وحتى السليم ، وتعهدوا بالمحافظة على حياة الاسبانيين في حالة تسليمهم ، ولكن على اساس تجريدهم من اسلحتهم ومن كل ما يملكون ، والاحتفاظ بهم حتى تقوم دولتهم بدفع فدية ، ودفع جميع التكاليف العسكرية التي انفقت في هذه العملية •

ولقد نجحت هذه السياسة كل النجاح ، وظهر تأثير الاسبانيين على بعضهم ، كما ظهر خوفهم وهم محاصرون ، وصلتهم مقطوعة ببلادهم ، وبجحافل مغربية منحتهم الحياة ، رغم عدم ترددها في قتل اي عدو • وشعر الاسبانيون انهم امام خصوم شرفاء ، وجنود اقوياء وان فكرتهم عن المغاربة كشعوب همجية ، تعيش على القتل والنهب والسبي ، هي فكرة خاطئة من اساسها ، وان في وسع المغاربة أن يكونوا فرسانا ، ولهم من اخلاق الفرسان وتقاليدهم ما يميزهم عن غيرهم • واصبح الاسبانيون موزعين بين رغبتهم في الحرب ، والدفاع عن انفسهم ، والرغبة في التسليم خوفا من

انتقام المغاربة منهم كما وعدوهم • ولا شك ان قائد الحامية ، قد حاول استثارة همة رجاله وولائهم لملكهم ووطنهم • ولكن هذه المحاولة قد فشلت • وسلم معظم الرجال اسلحتهم لقائدهم معلنين عدم رغبتهم في الحرب ، والدفاع عن انفسهم ، والرغبة في التسليم خوفا من انتقام المغاربة منهم كما وعدوهم • ولا شك أن قائد الحامية ، قد حاول استثارة همة رجاله وولائهم لملكهم ووطنهم • ولكن هذه المحاولة قد فشلت • وسلم معظم الرجال اسلحتهم لقائدهم معلنين عدم رغبتهم في حرب المغاربة • ولا شك كذلك في ان رجال الدين الموجودين في المعمورة قد حاولوا استثارة النخوة في قلب الجنود المحاصرين ، وانهم قد تحدثوا عن الكنيسة وعن النساء والاطفال ، وعن وحشية المغاربة • ولكن هذه المجهودات ذهبت كلها هباءا اذ ان قائد الحامية قد طلب من المغاربة التسليم •

وارتفعت راية بيضاء في اعلى القصبة ، وشعر المغاربة بان القائد الاسباني يرغب في التفاوض ، واستقبل القائد عمر بن حدو قائدين اسبانيين يحملان الهدايا ويعرضان التفاوض • وانتهى الامر باتفاقية اشتملت على احتفاظ قائد الحامية وستة من ضباطه وأسرهم بحريتهم وبممتلكاتهم ، وبحقهم في اخذ احد القسس الموجودين معهم لكي يحمل مالا في الكنيسة الاسبانية التي انشأوها هناك الى اسبانيا ، اما رجل الدين الثاني فكان عليه أن يبقى مع الحامية الاسيرة حتى يقيم لها شعائر الصلاة • وكان على من يذهب الى اسبانيا ان يهتم بعملية دفع فدية الاسرى الذين تركوا بغير قادة • وتصبح هذه الشروط نافذة بمجرد موافقة المولى اسماعيل عليها •

وطار المولى اسماعيل من الفرح لمعرفته بهذه الانباء ، ويقال أنه اعطى مائة من الذهب الى الجندي الذي ابلغه هذه الاخبار • وفي صبيحة اليوم الثاني ، ومع شروق الشمس ، كان المولى اسماعيل على رأس حرسه الشخصي امام اسوار المهدية • وكان قد سار بسرعة ، وأصدر الاوامر لقادة الجيش بالاسراع واللحاق به هناك • وصدق المولى اسماعيل بسرعة على

الاتفاقية وارسلها للقائد الاسباني حتى يسلم مفاتيح المدينة للملك الغازي. وقدم القائد الاسباني لسلطان المغرب التحية العسكرية اللائقة به ، وجعل قواده يقبلون حذاءه . وخرجت الحامية لاسبانية من القصبة واصطفت في الخلاء بدون اي سلاح ، وكانت لحظة تشتمل على الصمت والسكون الذي يمثل صلاة للشكر على هذا النصر الذي كتبه الله للمغاربة .

وبدلا من ان يرسل المولى اسماعيل القائد لاسباني الى طنجة ، ارسله الى ميناء العرائش ، وكانت قصبة ثانية في ايدي الاسبانيين كذلك ، وحين تعلم حاميتاه بتسليم الحامية الاسبانية الرئيسية في لمهدية لسيد البلاد ،وتعلم كذلك بالمعاملة التي عاملها لها . ولكن بدلا من أن ينجح المولى اسماعيل في هذا الجزء الجديد من خطته تدخلت عوامل اخرى في الموضوع . وكان لوجود حاكم عام اسباني في العرائش ، يمتاز بغطرسته وقسوته ، تأثيرا في سير الاحداث ، ذلك انه امر بالقاء القبض على قائد حامية المهدية ،وارساله مكبلا بالسلاسل الى قادس ، وادى ذلك الى وقوف هذا الرجل للمحاكمة امام مجلس التاج الاسباني .

ولا شك ان اسبانيا قد رفضت دفع الفدية عن رجالها الباقين في المعمورة ، ويذكر احد المسافرين في هذه المنطقة بعد ستة عشر عاما من التسليم كيف ان المهدية قد اصبحت قلعة اسلامية لها قوتها ، وان اسبانيا قد دفعت فدية مائة ضابط من ضباط الحامية ، ولكن المهدية كانت لا تزال تشتمل على ما يقرب من الفي اسير اسباني رفضت اسبانيا افتدائهم ،وبقوا في الاسر ، ولكي يعملوا في المغرب ، دون ان تهتم بلادهم بهم .

وكان هذا النصر سببا في ان يذكر صاحب « النزهة » : « ومن محاسن الدولة الاسماعيلية تنقية المغرب من نجاسة الكفر ، ورد كيد العدو عنه ، قال وقد فتح السلطان المولى اسماعيل عدة مدن من يدي النصارى كانت من مفاسد المغرب ، ولم يهنأ للمسلمين معهم قرار » . ويذكر صاحب « البستان » أن الغنيمة كانت من حظ المجاهدين من أهل الفحص والريف

اللذين كانوا مرابطين عليها ، وان السلطان قد رجع الى مكناس بعد ان أنزل بالمهدية طائفة من عبيد السوس لعمارتها وسد فرجتها ، وحضر هذا الفتح جماعة من متطوعة اهل سلا • وبعد ان فرغ المجاهدون من امر المهدية ارتحلوا مع اميرهم عمر بن حدو الذي اصابه الوباء ومات في الطريق ، فتولى رئاسة المجاهدين من بعده أخوه القائد احمد بن حدو ، واقتسمها مع القائد ابو الحسن علي بن عبدالله الريفي •

اما القصبة الثانية التي نجحت قوات المولى اسماعيل في الاستيلاء عليها من اعدائها الاسبانيين فكانت هي العرائش ، وتم هذا الفتح في سنة مائة وألف هجرية ، وفي آخر شهر شوال ، اي في عام ١٦٨٩م •

وكانت العرائش ثغرا يزيد في اهميته كثيرا عن المهدية ، فكانت قلعتها قوية ، ويسهل الدفاع عنها ، كما ان وقوعها عند مصب نهر اللوكوس كان يعطيها منعة وقوة • وكانت تحيط بها الاسوار والحصون القوية والمعدة احسن استعداد ، وكانت تشتمل على الثكنات الجديدة ، ومخازن القمح ، ومصانع للبارود ، وكان يظهر أن في وسعها ان تقاوم مدة طويلة ، خاصة وانها كانت مفتوحة من ناحية البحر ، وكان نهر اللوكوس يزودها بما يلزمها من مياه من داخل الاقليم • والظاهر أن شعور رجال الحامية الاسبانية فيها بقوة موقعهم ، وقلة تقديرهم للمجاهدين المغاربة ، واعتماد الحامية على مدفعية قوية ، جعلهم يغترون بانفسهم ، ولا يلتفتون كثيرا لخطورة زحف المجاهدين المسلمين على هذه القاعدة القوية •

واقد سار القائد ابو العباس احمد بن حدو في جماعة من المجاهدين لحصار العرائش التي كان الاسبانيون متمركزين فيها منذ عهد الشيخ ابن المنصور السعدي • وينقسم المؤرخون في تقدير فترة حصار المجاهدين المغاربة للعرائش ، وذكر البعض انها ثلاثة أشهر ، وذكر البعض الآخر انها بلغت خمسة اشهر • وزاد على ذلك الناصري لانه اعتمد على المؤرخين الاسبانيين ، وذكر ان لوى الرابع عشر ، طاغية الفرنسيين ، أو عاهل فرنسا

قد ساعد المغاربة ، واعان المولى اسماعيل ، وحاصرها بحرا بخمس فراقط وقطع عنها المادة مدة .

ولا شك ان المغاربة قد استخدموا الالغام في عملياتهم ضد العرائش، ويذكر صاحب « النزهة » ان فتح المسلمين لها كان بعد معاناة ، وان المجاهدين قد « حفروا المينات تحت خندق سورها الموالى للمرسي ،وملؤها بارودا ، ثم اوقدوها بالنار فنفطت وسقط جانب من السور ، فاقتحم المسلمون منه وتسلقوا الى ما كان من النصارى على الاسوار فوقعت ملحمة عظيمة ، وفر باقيهم الى حصن القبيبات .... واعتصموا به يوما وليلة ، فخامر قلوبهم الجزع وطلبوا الامان ، فأمنهم القائد ابو العباس فنزلوا عليه، فاخذوا اسارى باجمعهم ولم يعتق الا أميرهم وحده » .

وكان عدد النصارى في العرائش قبل الاستيلاء عليها ثلاثة آلاف ومائتين ، ولما ظفر بهم المسلمون أسروا منهم نحو الفين، وقتلوا منهم اثنتي عشرة مائة . ووجد المسلمون بها من العدة والبارود الشيء الكثير، فوجدوا بها نحو ١٨٠ مدفع بعضها من النحاس والباقي من الحديد ، ومنها مدفع يسمى « الغصاب » « طوله خمسة وثلاثون قدما بالحساب ، ووزن كرته خمسة وثلاثون رطلا بحيث حاق عليه بقرب خزانته اربعة رجال » .

وكان المسلمون قد تمرنوا على اعمال الالغام من قبل مع اسوار مدينة طنجة التي تحصن وراءها الانجليز لعدة سنوات . ولكن اذا كان المغاربة قد افادوا من وجود بعض عناصر الريف ، وبعض ابناء الجزائر في عملياتهم ضد طنجة ، فمما لا شك فيه ان استخدامهم للالغام ضد العرائش قد جاء نتيجة لخبرتهم ضد طنجة ، ونتيجة لمعاونة فرنسا لهم بالبارود والالغام . وكان وجود بعض المجاري الرومانية القديمة تحت مدينة العرائش تسمح للمغاربة بالدخول فيها ، وبعمل الحفر لوضع الالغام تحت المدينة ، دون ان يشعر الاسبانيون بذلك .

وأمر المولى اسماعيل بنقل الاسرى الاسبانيين من العرائش الى

مكناسة ، وكان عـددهم يقرب من الالفين ، واستخدمهم مع غـيرهم من المساجين والاسرى في بناء قصوره بالنهار ، اما بالليل فكانوا يبيتون في الدهليز ؛ وهو في عرف المغاربة هرى تحت الارض • واسكن السلطان اهل الريف في العـرائش حتى يعمل على توطين جزء منهم ، ويحد من نزعتهـم الاستقلالية التي اشتهروا بها في جبالهم ، وأمر قائدهم بان يبنى بهامسجدين وحماما ، ويبني داره بقلعتها •

ولا شك ان فتح قوات المولى اسماعيل للعرائش كانت نصرا جديـدا له دعمت من حكمه ، واظهرته في شكل محرر البلاد ، ومجاهد في سبيل الاسلام والمسلمين • وقال الشاعر عبد الواحد بن محمد الشريف البوعناني في هذا الفتح :

الا ابشر فهـذا الفتح نصور — قد انتظمت بعزكـم الامور
وضوء النصر ساعـده التهاني — ونـور الفخـر نحوكم يدور
حميتـم بيضـة الاسـلام لما — بعين الحـق قد حرس الثغور
وجاهـدتم وقاتلتـم فانتـم — لديـن الله اقمـار تنير
وأطلعتـم صوارمكم نجوما — لدى هيجـاء صاحبها كفور
فأنت البدر يوم السلم حسنا — وفي يوم الوغا الاسد الهصور
وفي ثغـر العرائش قد تبدى — لقدركم على الشعري الظهور
لقـد كان الملوك فساوموها — وراموهـا وبان لهـا نفـور
فلمـا جئتهـا انقادت وقالت — اليـك بحـق مولانا المصير
ملكت قيـاد عزتهـا بـذل — فمـا اغنى الحصار ولا العبور
قهرتـم بابطـال ضخام — على الهيجـاء كلهـم جسور
فكم رأس من الكفـار امسى — قطيـع الرأس مجرورا يخور
وكـم نحـر قـلادته رماح — وسن الرمح مركزه النحـور
وكم اسـرى وكم قتلى بارض — وكم جرحـى دماؤهم تفور
تمر بهـا الطيـور فتنتقيهـا — وبات الذئب وهو لها شكور

واضحى الناس كلهم نشاوى ... على طرب وما شربت خمور
فبشراكم بهذا الفتح نور ... وبشراكم بما من الغفور
به زادت مآثركم علوا ... وقد عظمت به لكم الامور
الا يا معشر الكفار هذا ... يبددكم وليس له فتور

ولا شك ان هذا النصر قد اظهر المولى اسماعيل بانه محرر المغرب، وفتح الآفاق امامه لمواصلة عملية الجهاد وعملية التحرير ، ودعم ملكه.

ان الناس قد نظروا اليه على انه سيقوم كذلك بتحرير بقية الثغور في المغرب الاقصى ، وسيخرج الاسبانيين منها ، كما سيخرجهم من سبته ، وحتى من وهران الجزائر ، وحتى اعادة حكم المسلمين الى الاندلس :

الا يا اهل سبته قد أتاكم ... بسيف الله سلطان وقور
اذا ما جاء سبتة في عشي ... تناديه اذا كان البكور
ووهران تنادي كل يوم ... متى يأتي الامام متى يزور
فيهزمهم ويقتلهم ويسبي ... وسيف الحق في يده ينور
أيا مولاي قم وانهض وشمر ... لاندلس فأنت لها الامير
وجاهدهم وحاربهم وفرق ... جموعهم فربكم النصير
ولا يمنع بفضل الله منها ... كما قد قيل برا أو بحور
لسان الحال ينشد كل يوم ... ومعنى الحال تفهمه الصدور
بقرطبة تنال المجد طرا ... ويأتي العز والملك الكبير
وذلكم بعون الله سهل ... ومن بركاتكم أمر يسير
أيا مولاي اسماعيل هذا ... عبيدكم الضعيف المستنير
يناديكم يناديكم ويدعو ... دعاء لا تعييه الدهور
فيارب البرية يا الهي ... ويا رحمن يا نعم المجير
أثب هذا الامير بكل خير ... ولا تجعل تجارته تبور
وأبق الملك فيه وفي بنيه ... ولو كرهت زيود أو عمور

وكان على المولى اسماعيل قبل أن يبدأ في مهاجمة سبته ، أو القيام بعمليات ضد وهران الجزائر ، ومحاولة اعادة الاندلس الى المسلمين أن يواصل تحرير بلاده نفسها قصبة بعد قصبة ، وكانت اصيلا هي اقرب الثغور اليه بعد العرائش ، وكان من اللازم أن يخلصها من حكم الاسبانيين كذلك بعد آن نجح المغاربة في تحرير طنجة والمهدية والعرائش .

وكانت اصيلا تقع على المحيط الاطلسي بين العرائش وطنجة ، وكان وقوع هذين الثغريين الذين يحاصرانها من الشمال ومن الجنوب في ايدي المغاربة يوجه الانظار الى أن المولى اسماعيل سيقوم بتحريرها كذلك ، ما دامت قد اصبحت محاصرة بممتلكاته من كل جانب . ويذكر المؤرخون المسلمون انه لما فرغ المجاهدون من امر العرائش عمدوا الى مدينة اصيلا، ونزلوا عليها وحاصروا النصارى الذين بها سنة كاملة ، الى أن بلغ بهم الحصار كل مبلغ ، فطلبوا الامان ، وامنهم المغاربة . ولكن الاسبانيين لم يطمئنوا للعهد ، فركبوا سفنهم ليلا ، ونجو الى بلادهم ، ودخل المسلمون الى المدينة وملكوها . وعمرها اهل الريف كذلك ، وبنوا فيها مسجدين ومدرسة ، وبنى قائد المجاهدين منزله بالقلعة كذلك .

وكان من حسن حظ المولى اسماعيل انه اعتمد في هذه العمليات على رجال من المجاهدين ، صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وكان الجهاد يجري مع الدماء في عروقهم ، واعتمد على قياد ورجال من ابناء الريف ، الذين كانوا يولدن مجاهدين ، وكانوا ينظرون الى الجهاد على انه الطريقة الوحيدة لترجمة رغبتهم في الكفاح من اجل الحياة نفسها ، وعلى انه اهنة الوحيدة التي يحق للرجل أن يفخر بقيامه بها . وكان هؤلاء الرجال يتدربون على الاسلحة منذ صغرهم حتى اليوم الذي يتمكنون فيه من استخدامها ضد اعداء البلاد . وكانت الطبيعة مع البيئة هي التي تؤهل ابناء الريف المتحول الى مجاهدين من الطراز لاول ،خاصة وان اخلاقهم وظروف منطقتهم كانت تدربهم على الصبر والعيش بالقليل ، مع قوة التحمل ، وارتفاع الروح

المعنوية والحماس ، وبشكل ملحوظ . وكانت سرعة ابناء الريف وخفتهم ، مع قوة مقاومتهم تفوق ما يمكن تصوره في المحارب الهاوي ، وكان تحركهم في الاراضي الوعرة يثير الدهشة ، هذا علاوة على حدة بصرهم ،وانتباههم ويقظتهم حتى يعجز اعداءهم عن الوقيعة بهم في الكمائن . وكان في وسع ابناء الريف أن يفيدوا من طبيعة الارض في مهاجمتهم الاعداء بعد أن يصلوا اليهم ودون ان يشعروا بهم . وكانوا يشبهون ابناء السودان في كفاءتهم الحربية ، وان كانوا قد امتازوا عليهم لعملهم في الجبال وفي المناطق المغطاة بالثلوج وبكل قوة وانتباه ورشاقة في نفس الوقت . وكان من طباع ابناء الريف ، وهو ما يميزهم على غيرهم ، انهم كانوا لا يأبهون بالحياة ، ولا يلتفتون الى الاغنام والاسلاب . وكانت هذه الصفات المادية والمعنوية تعطي لبعض فرق قوات المولى اسماعيل قيمة كبيرة ، يسهل معها تفسير انتصار المغاربة على الاوربيين ، رغم تفاوت الاسلحة بين الجانبين في ذلك الوقت . ورغم تحصن الاوربيين في الثغور والمدن الحصينة التي تحيط بها الاسوار والابراج وتشتمل على الفلاح . وكان هؤلاء الرجال هم الذين حاصروا مدينة سبته لمدة ستة وعشرين عاما ، وان كانوا لم ينجحوا في الاستيلاء عليها ، ولكنهم عادوا من جديد لمحاربة الاسبانيين فيها ، وللهجوم عليها ، ولمدة اثنى عشر عاما جديدا من حكم المولى اسمايل .

وكانت الروح العامة في المغرب تنادي المولى اسماعيل بتحرير سبته ان لم تكن تناديه بطرد الاسبانيين من كل ارض انتزعوها من بلاد الاسلام. والواقع ان المولى اسماعيل قد قام من اجل سبته بما يشبه التعبئة العامة في كل الجزء الشمالي من سلطنته ، وكون لذلك جيشا فريدا من نوعه، قويا في عزيمته على الكفاح والجهاد . ولكن تراجع ملك اسبانيا بشأن المهدية والعرائش ، ثم انسحاب الحامية الاسبانية من اصيلا جعلت الاسبانيين في بلادهم يخشون من فقد قواعدهم في شمال افريقية . ولا شك ان هذا التنافس الموجود بين الملك ورجال الدين الكاثوليك في اسبانيا جعلهم

ينظرون الى فشل القوات الملكية في الاحتفاظ بقواعدها في شمال افريقية على انه ضعف مادي ومعنوي من جانب الملك وحكومته ، ومن جانب الشعب نفسه ، فانتشرت في اسبانيا حركة دعائية كبيرة برئاسة رجال الدين الذين خطبوا ووعظوا واهابوا بالاسبانيين ان يحافظوا على المراكز والقواعد التي رفع جنود الملكة المسيحية ايزابيللا الصليب عليها حتى ليمنعوا المسلمين « الكفار » من العودة لاحتلال اسبانيا بعد ذلك ، واشتملت هذه الحملة الدعائية على كثير من الصلوات والادعية والخطب كما ظهر فيها الشعر الذي يبكي المسيحية ويولول لها امام سيوف وحراب المسلمين المتوحشين . ولا شك ان هذه الحملة الدعائية قد أثرت في الروح المعنوية للحامية الاسبانية الموجودة في سبتة كما اثرت في الحكومة الاسبانية نفسها ، فقررت ارسال الامدادات ، وضرورة الاحتفاظ بسبته باي ثمن . وكان قرب سبتـه من قادس ومن بقية الموانيء الاسبانية ، يسمح لاسبانيا بالاسامرار في تزويدها وامدادها ، ولا طول فترة ممكنة .

وعلينا ان نذكر من ناحية اخرى ان طول مدة الحرب قد اثرت في رجال الجهاد المسلمين ، وفي قوادهم ، خاصة وانهم كانوا قد تركوا اسرهم واراضيهم ومزروعاتهم وبهائمهم منـذ سنوات طويلة ، وكان طول مـدة الحصار حول سبته ، وبدون الوصول الى نتائج واضحة . اكثر من تهديم جزء من الاسوار ، او وصول بعض قذائف المدفعية الى احد ابواب المدينة، كان يساعد على وصول الملل الى أبناء الريف . هذا بالاضافة الى ان المولى اسماعيل كان قد قام بسحب فرق من أبناء الريف من حول سبته لارسالهم الى البريجة ، مما اضعف قوة الجيش المحاصر لسبته . وكان تجميع جـزء كبير من القوات المحاربة المغربية حول مدينـة سبته ، ولمـدة طويلة يخلي مناطق أخرى من الادارة الاولى لحكم المولى اسماعيل للبلاد ، ويساعـد بالتالي على قيـام بعض القيادات الاقطاعية بالامتناع عن دفع الضرائب أو اعلان الثورة ضد سيد البلاد .

وليس معنى ذلك انه لم تقع معارك حربية ذات قيمة حول سبتة • ذلك أنه في السنوات الاولى من الحصار حاولت القوات الاسبانية الخروج من سبته لمواجهة قوات المغرب ، وانهزمت هزيمة ساحقة امام فرسان المسلمين ، ثم قام المشاة من المغاربة بقتل كل من وجدوها حيا على ارض المعركة ، وبعد انسحاب بقية الاسبانيين ورجوعهم الى سبته صمموا على عدم الخروج منها ، وامتنعوا عن الاشتباك من جديد مع المغاربة • وأمد المولى اسماعيل قائده أمام سبته بعسكر من عبيده ، وامر قبائل الجبل بان تعين كل منها حصتها للمرابطة على سبته وكذلك امر اهل فاس • وبلغت قوات المسلمين امام سبته خمسة وعشرين الفا • ويتهم الناصري المولى اسماعيل بانه قد عزا الى قواده المحاصرين لسبته بعدم النصح في افتتاحها لئلا يبعث بهم بعدها الى حصار البريجة فيعدوا بلادهم مع انهم قد سئموا كثرة الاسفار ، ومشقات الحروب • وكان طول فترة الحرب قد صرف انظار المولى اسماعيل عن سبته ، وجعله يشتغل بتمهيد المغرب واخضاعه ، ومقاتلة برابرة جبل فازاز وغيرهم • ويذكر الناصري ان الله لم يهييء امر فتح سبته على ايدي المولى اسماعيل • واذا كانت هذه الجملة تدل على اعطاء المولى اسماعيل مجرد حقه لا اكثر في تحرير المغرب ، فان الرغبة في استخلاص سبته من ايدي الاسبانيين ظلت موجودة في قلوب المغاربة الذين كانوا يشيرون الى آثار ضرب القوات المغربية لابواب سبته على انها مادة يعتبر بها من يأتي بعدهم ، وحتى يزداد احتياطا وحزما ، وعزما وقوة على الاعداء •

ولكن المولى اسماعيل بلغ بهذه العمليات الحربية ضد قوات الاحتلال الاجنبية الموجودة في بلاده الى نتائج واضحة وثابتة وبدأت باستيلائه على طنجة من ايدي الانجليز ثم استيلائه على المهدية والعرائش واصيلا ، وبشكل يجعل من المولى اسماعيل محررا لثغور المغرب من سيطرة الدول الاستعمارية •

الجامع عنصر وظيفي ، عماري ومورفولوجي في المدينة العربية

الدكتور خالص الأشعب
جامعة بغداد

يظهر تأثير الاسلام على طابع المدينة العربية وفي اغلب اجزائها ،سواء كان ذلك قديما أم حديثا ، وان كان ذلك اكثر وضوحا في الاول منها • يمثل انتشار الجوامع في المدينة العربية واينما وجدت اثر الاسلام الكبير على الحياة الاجتماعية ــ الحضارية فيها •

لقد تأثرت مورفولوجية المدينة العربية ، والى حد بعيد ، بعدة انواع من المنشآت التي تطلبها وجود الدين الاسلامي وظيفيا ، والتي كان لا بد من ان تظهر بانواع متباينة ومميزة من الابنية • لقد استطاعت هذه الابنية بما فيها من اقواس ، منارات ، قباب ، وساحات واسعة ان تعبر وبشكل رمزي عن الحياة الروحية لسكان المدينة العربية •

جاء الاسلام صنواً للحياة الحضرية ، حيث لا يمكن بناء الجامع المعد لاقامة صلاة الجمعة الا في مركز حدبي دائمي • وهنا تجدر الاشارة الى ان بناء الجوامع لاقامة صلوات الجمع يتطلب وجود مجتمع لا يقل عدده عن اربعين شخص بالغ ، لكي تصبح طقوس اقامة الصلاة نافذة (١) هذا بالرغم من ان الاسلام يعتبر صلاة الفرد نافذة على اية بقعة طاهرة من الارض •

لقد اتفقت اراء رجال الدين زمن الخلفاء الراشدين على وجوب اقامة صلاة الظهيرة لنهار الجمعة داخل بناء ثابت ذا سقف وجدران • وهكذا

فقد استمر الدين الجديد ذا علاقة متينة مع المستوطنات المدنية التي ولد باحداها رسول هذا الدين نفسه .

تقع الابنية الدينية في المدينة العربية عموما تحت عدة انواع ، منها الجوامع (لصلاة الظهيرة في الجمع) ، المساجد (لاقامة الصلوات الاخرى) ، المدارس (الدينية) ، المقامات والاضرحة ، وحديثا الابنية التي بدأت تنشؤها دوائر الاوقاف . يحتل الجامع بين هذه الانواع من الابنية اهمها اثرا واكثرها عددا مما جعل له اثره الكبير على مورفولوجية المدينة العربية .

تميز دوائر الاوقاف في بعض البلدان العربية درجات ثلاث للجوامع هي : جوامع الدرجة الاولى ، الثانية والثالثة ، مستندة في ذلك على اعتبارات ادارية واقتصادية . تقام صلاة الجمعة في النوع الاول من الجوامع ، وهو لذلك ربما يخدم المدينة كلها وبالتالي فانه يحتل ، وباستمرار ، موقفا مركزيا ، ممثلا اهم مظهر عماري في المدينة العربية (٢) . يكون لمثل هذا النوع من الجوامع عادة امام ، مؤذن ، ممجد ، قارىء قرآن وخادم ، او ربما اكثر من هذا العدد . إن هذا يعني ان معدل عدد مستخدمي الجامع الكبير ، في المدينة العربية ، لا يقل عن خمسة اشخاص . وبالاضافة الى وظيفة تأدية صلاة الظهيرة ايام الجمع فيمكن اقامة الصلوات الاعتيادية الاخرى فيها ، كما وتقام في مثل هذه الجوامع صلوات العيد والعديد من المناسبات الدينية الاخرى .

يتلو جوامع الدرجة الاولى في الاهمية جوامع الدرجة الثانية والتي قد تخدم منطقة ما من المدينة العربية اوسع من حدود المحلة التي توجد فيها مثل هذه الجوامع . لكل من هذه الجوامع امام ، مؤذن وخادم ، اي يستخدم فيه على الاقل ثلاث اشخاص .

أما جوامع الدرجة الثالثة (المساجد) فتمثل في الواقع مراكز صغيرة للعبادة او مراكز ذات اهمية دينية خاصة ، تخدم السكان المجاورين فقط .

يستخدم في مثل هذه المساجد عادة الامام فقط ، حيث يتعاون ابناء المحلة المجاورة على القيام بشؤون النظافة واحيانا حتى على تأثيثها • ان تواجد الامام عند صلاة أية مجموعة تتعدى اثنين أمر اساسي مما دعا الى وجوده في مثل هذه الجوامع •

إن اهم عوامل تحديد عدد الجوامع في المدينة العربية هي حجمها السكاني ، عدد الاثرياء المؤمنين ، وسياسة الاجهزة البلدية فيها ، ولو انه في حالات عديدة لا يدل تواجد الجوامع في منطقة ما من المدينة سوى على وجود الاثرياء المتبرعين وليس على الكثافة السكانية [٣] • إن ذلك يفسر وجود الجوامع في مناطق غير سكنية من المدن العربية ، مما يدل على توفر عناصر معينة مثل الشخص المتبرع الذي قد حدد بنفسه توقيع الجامع في مثل هذه المناطق •

يبدو انه كان من المفضل زمن الرسول محمد (ص) ان يقتصر على وجود جامع واحد لكل مستوطنة مدنية ، وذلك ميتيسر للخطيب انيوضح مرة واحدة ولاكبر عدد ممكن من المصلين ، الواجبات الدينية ، السياسية والادارية المراد بثها • ربما كان ذلك احد الاسباب الرئيسية التي جعلت المدينة العربية التقليدية تمتاز باكتظاظ ابنيتها وبالتالي طبع مورفولوجيتها بطابعها المميز •

ولكن وكنتيجة مباشرة للتوسع في الرقع المبنية للمدن العربية ، بفعل نمو عدد المسلمين ، فقد اصبح في غير الممكن الاقتصار على جامع واحد وبالتالي اصبح لا بد من ظهور الجوامع الاخرى •

يمثل الجامع المحور المركزي للحياة المدنية ، الاجتماعية ــ الدينية ، والتخطيط العماري في المدينة العربية • لقد لعب الجامع الكبير ، وغالبا ما يكون مركزيا في موقعه ، الدور الرئيسي في توجيه بوابات أو مداخل المدينة والطرق الرئيسية الداخلة منها • على ضوء ذلك فيمكن ان تؤخذ

الجوامع في المدينة العربية كمعيار لاستقرار اتجاهات توسع الرقع المبنية فيها ، نمو سكانها وتوزيعهم المكاني •

لقد اكد كل من القرآن الكريم والحديث الشريف على مركزية الجوامع وذلك لعدم ورود ما يشجع بناء الجوامع داخل المقابر التي غالبا ما تقع عند اطراف المدينة العربية • ربما كان ذلك لكي يزاد من الروابط بين العابد وربه ، حيث قد تنقطع افكار واحاسيس المصلي اثناء صلاته عند القبور •

هذا وكثيرا ما تمتاز بعض المدن العربية باهميتها الدينية اكثر من غيرها بسبب تواجد اضرحة ائمة أو رجال دين معينين ، ولمختلف الطوائف الاسلامية • إن ذلك يدفع انصار كل مذهب لان يترددوا على زيارة ضريح امامهم او رجلهم الديني ، وبالتالي يعطي تلك المدن اهمية وظيفية تتجاوز حدودها • إن ذلك يحول مثل هذه المدن الى مراكز حج للمسلمين ومن مختلف اصقاع العالم الاسلامي • إن احسن مثل على ذلك هو اهمية بعض المدن العراقية لمسلمي اجزاء كثيرة من العالم حيث توجد مراقد الامام علي ، الحسن ، الحسين ، ابو حنيفة ، الشيخ عبد القادر الكيلاني الخ•• تنعكس مثل هذه الاهمية على كثافة المرور على الطرق المؤدية الى مثل هذه المدن ، فلقد وصلت كثافة المرور على طريق طهران — بغداد ، مثلا ، في مواسم الزيارة الى ٧٠٠٠ زائر باليوم (٤) • هذا بالرغم من ان زخم الزيارة يتأثر بعوامل عدة منها طبيعة العلاقة السياسية بين الدول ، ومواعيد اوقات الزيارات الدينية ، وتوفر طرق المواصلات وتطورها • لقد ارتفعت الاهمية الدينية لعدد من المدن العربية بفعل وقوعها على طريق مكة حيث تؤدي فريضة الحج سنويا •

ان اهم الوظائف التقليدية للجوامع هي الوظائف الدينية ، الثقافية ، السياسية ، الادارية والاجتماعية • لقد استمرت الجوامع تمثل اهم المراكز التي تمارس منها الوظائف الادارية ، وفي العديد من العواصم الاقليمية

للوطن العربي ، وحتى بداية القرن العشرين • هذا اضافة الى وظائف اخرى كان تكون مراكز للقضاء او أماكن لتأبين المتوفين • لقد قلت اهمية الوظيفة التعليمية للجوامع في اغلب المدن العربية بحكم عـدم استمرارية ارتباط نفس العدد من المدارس بالجوامع ، وكذلك نتيجة لتطور التعليم بمفهومه الحديث والذي قد فصل ـ بالقانون ـ عن الجوامع • واكثر من ذلك فلقد طورت الدراسة في بعض المدارس الدينية وفي العديد من المدن العربيـة لتصبح منسجمة ومناهج التعليم الرسمية • وان ذلك يدل على ان الجامع بدأ يفقد اهميته الاكاديمية ليقتصر فقط على الوظيفة الدينية •

لقد استمرت الجوامع وحتى بداية الحكم الملكي في العراق تمثـل المراكز التي تنقل منها التعليمات الادارية والتوجيهات السياسية للولاة • وقبل ذلك فقد كان بالامكان قياس شعبية الحاكم من ملاحظة عدد الحاضرين، بالرغم من ان المسلمين لا يصوتون ولا يتناقشون في الجامع حول ما يدور في الخطبة ، حيث بامكانهم ان يعبـروا عن مشاعرهم تجـاه الحاكـم إما بحضورهم الجماعي ، الجزئي ، أو أحيانا حتى بغيابهم الكلي •

من وظائف الجامع الاخرى هي وجود « السقاية » فيه ، حيث يوفر الماء لابناء السبيل من المشاة ، إلا ان اهمية ذلك قد قلت كثيرا نتيجة لتطور المدن العربية وانتشار المطاعم ، المقاهي ، الفنادق الخ •• فيها •

الى جانب كل ذلك فكثيرا ما كان الجامع ، وخاصـة الجامع الذي يوجد فيه ضريح رجل دين ما ، المأوى للشحاذين ، المـرضى واليتامى • وقبل الانتهاء من استعراض وظائف الجامع فلا بد من الاشارة الى ظاهـرة معينة تنتشر بين سكان المدن العربية ، وخاصة بين الطبقات الفقيرة منها ، وهي اعتبار الاضرحة والمزارات احدى مجالات التسلية وقضاء الوقت •

بالرغم من اعتبار الجوامع منشآت عمارية عامة ، فانها غالبا ما تبنى من قبل القطاع الخاص ، سواء كان ذلك بقيام الافراد ببنائها او عن طريق جمع

التبرعات من المواطنين وبغض النظر عن مناطق اسكناهم • وهنا تجدر الاثارة الى امر هام جدا وهو وجوب ايجاد وتعاون متبادل بين بلديات المدن العربية والجهات المتبرعة التي تقوم ببناء الجوامع وذلك لتحقيق افضل ما يمكن من توقيع لها واتباع طرز عمارية يفضل ان تكون اصيلة ومنسجمة مع التراث العماري والبيئة العربية المحلية •

إن اهم العوامل التي تدفع الافراد لبناء الجوامع هي تشجيع القرآن الكريم والسنة النبوية على ذلك (٥) حيث ان ذلك سيجلب لهم رضاء الله• للاسف الشديد لاتتوفر حاليا الاحصاءات الكافية عن عدد الجوامع في المدن العربية والتي بدون شك قد جاءت لتمثل مراحل مميزة من تطور فنون العمارة فيها • مثال ذلك ما نراه في بغداد حيث ان اغلب ما يتوفر من ارقام هو ليس تلك التي قامت بها دائرة الاوقاف ، انما ما جاء بكتب المؤرخين او غيرهم من الكتاب • إن ذلك ينعكس في التناقض الكبير في الارقام الواردة عن عدد الجوامع في غالبية المدن العربية •

من استعراض التوزيع المكاني للجوامع في عدة مدن عربية يمكن القول بان الاجزاء القديمة منها تحتكر النصيب الاكبر والذي قد يتجاوز نسبة الـ ٥٠٪ كما هي الحال في حلب ، دمشق او بغداد • ونتيجة لذلك فلا تزيد معدل مسافة التباعد بين الجوامع في هذه الاجزاء من المدينة العربية وفي اية حال عن كيلو متر واحد ، مقارنة مع معدل تباعدها في الاجزاء الحديثة منها والتي غالبا ما تزيد على ٥ كم • اضافة الى ذلك فتمتاز الاجزاء القديمة من المدن العربية في احتوائها على أقدم الجوامع والتي قد ترجع الى القرون الاسلامية الاولى ، مما يوفر وثيقة هامة وصادقة لدراسة فن العمارة العربية • وهنا لا بد من استثناء المحلات التي يسكنها غير المسلمين والتي غالبا ما تخلو من الجوامع •

تمثل الوظيفة الدينية اكثر انواع الوظائف استقرارا في المدينة العربية• مثال ذلك استمرارية وجود الجوامع في مراكز المدن العربية (الاجزاء

القديمة منها) بالرغم من ان اغلبية اهذه لمراكز قد بدلت من وظيفتها السكنية • إن هذا يعني انه بالرغم من ان الجامع قد لعب دور النقطة المركزية او المحور المركزي لسكان المحلة او لمحلات التقليدية فانه استطاع ولاعتبارات روحية ـ دينية ان يقاوم عوامل الضغط والتنافس الاقتصادي بين استعمالات الارض المختلفة في هذه المناطق • إن الزخم الوظيفي المتمثل بالمنافسة بين مختلف انواعها ـ في مراكز المدن العربية ـ قد دفع الغالبية من العوائل الساكنة فيها لان تهجر مساكنها التقليدية لتسكن في الضواحي ـ ظاهرة السكن الجديدة والمتطورة باستمرار ، خاصة في المدن الكبيرة منها • تنيجة لذلك فقد تركت الجوامع في مناطق تستغل بالدرجة الرئيسية من قبل النشاطات التجارية ـ الصناعية وتقديم الخدمات • إلا ان تطور وسائل النقل ، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ـ قو حول هذه الجوامع الى جوامع متروبوليتانية ، حيث قد بدأت تجذب العابدين ليس من المناطق المجاورة فحسب بل من مناطق سكنية بعيدة ، قد تزيد احيانا على ٢٥ كم كما نراه في القاهرة وبغداد ، وخاصة ايام الجمع • إن شيوع استعمال السيارة قد اضعف والى حد كبير الرغبة التقليدية لدى العربي في ان يسكن بيتا ذا موقع مجاور او قريب الى الجامع • لذلك فيمكن القول بأن عملية التحضر المرافقة للتطور التكنولوجي الحديث قد ادخلت عنصر المسافة الى حياة العربي مما اثر بالتالي على انماط العلاقات المكانية بينه وبين منشآته الوظيفية المختلفة ومنها الدينية • لقد أصبح لعاملي نوع الخطيب ومستواه، سهولة المواصلات والمستوى الاقتصادي للعابد الاثر الكبير في اختياره للجامع الذي يرتاده ، مما يدل وبشكل بارز أنماط شعبية الجوامع في المدينة العربية •

أما اذا انتقلنا الى ضواحي المدن العربية ، فانه بالرغم من رخص الارض هنا مقارنة مع ما هي عليه في المركز ، تجد ان عدد الجوامع يهبط فيها والى حد كبير • وهنا يجب ان ننبه الى ضعف معامل ارتباط الكثافة الكافية وعدد الجوامع في المناطق الحديثة من المدن العربية •

لقد مرت اغلبية المدن العربية بمراحل مورفولوجية ثلاث ★ • تمثل الاجزاء القديمة (المركزية) المرحلة المورفولوجية الاولى والتي غالبا ما تنتهي مع نهاية الحرب العالمية الاولى والتي اوجزنا عن توزيع المواقع فيها • أما اذا انتقلنا الى لمرحلة المورفولوجية الثانية والتي انتهت – عموما – في منتصف الخمسينات ، فسنرى ان عدد الجوامع فيها يقل عن الاجزاء القديمة بالرغم من زيادة عدد السكان هنا على عددهم في الجزء الاول • قد يزيد سكان المدينة العربية في هذه المناطق المتطورة بين نهاية الحرب العالمية الاولى ومنتصف الخمسينات على نسبة الـ٥٠٪ من مجموع السكان ، إلا انه يندر ان تزيد نسبة عدد الجوامع فيها على ٢٥ ٪ من مجموع الجوامع في المدينة إن ذلك يعني ان معامل الارتباط في التوقيع المكاني بين عدد السكان والجوامع قدا قل هنا ولكن ليس الى الدرجة التي سنراها في مناطق المرحلة المورفولوجية الثالثة •

لقد بني اغلب جوامع هذه الاجزاء من قبل الافراد (القطاع الخاص) مع مساعدات حكومية تأخذ اشكالا مختلفة ، كان توزع قطع ارض مجانا او تمنح مساعدات مالية الخ •••

تمثل الجوامع في هذه الضواحي ضواهر بارزة لاستهالات ارض ثابتة، جاذبة استعمالات ارض اخرى لخدمة مجتمع هذه المناطق المتزايدة عدديا • اضافة الى ذلك فتمثل هذه الجوامع موشرا لتلاقي الطرق لرئيسية مما يمكن تسميته بفقدية الطرق •

على ضوء ذلك فيمكن القول بهبوط نسبة السكان للجامع الواحد في مراكز المدن العربية وخاصة الكبيرة منها ، وذلك لكثرة عدد الجوامع

(★) يختلف عدد المراحل المورفولوجية التي تجتازها المدن العربية وذلك حسب طبيعة الظروف الاجتماعية – الاقتصادية والتنولوجية وضمن الاطار التاريخي لكل مدينة .

هنا من ناحية ، ولنزوح نسبة عالية من السكان الى الضواحي وكما اشرنا قبل قليل من ناحية ثانية •

أما اذا انتقلنا الى مناطق المرحلة المورفولوجية الثالثةمن المدينةالعربية، وهي التي تطورت بعد منتصف الخمسينات ، فسنجدان عدد الجوامعهابطا درجة اكثر مما رأيناه في المرحلة المورفولوجية الثابتة • وهنا يمكن القول بان الجوامع قد جاءت لاحقة (متأخرة) للمساكن حيث لم يلعب الجامع دورا مركزيا في عملية التجاذب السكاني والتي تتصف بها المدينة العربية التقليدية في مراحل تطورها التي سبقت الحرب العالمية الاولى •

ترتفع نسبة عدد السكان للجامع الواحد في ضواحي المرحلة المورفولوجية الثالثة ، أولا لتزايد عدد السكان هنا ، وثانيا لقلة عدد الجوامع • كما وترتفع هذه النسبة ايضا في المناطق التي يذكر فيها المسيحيين او طوائف اسلامية معينة لا ينتظم ارتيادها للجوامع •

لقد لعبت الوظائف التي اريد لكل جزء من الجامع ان يقوم بها دورا اساسيا في تحديد نوعية تصميمه وطراز عمارته •

تمارس عملية الاذان من على المنارة ، التي ادخلت على تصميم الجامع لهذا الغرض ، او من على سطح الجامع الذي يخلو منها • للاسف الشديد بدأت تمارس عملية الدعاء الى الصلاة (الاذان) باستعمال مكبرات الصوت الكهربائية • إن ذلك شائع الآن في الغالب من المدن العربية بالرغم من كل ما أضافته من تشويه الى رونق الجامع الجمالي وهيبته •

في الواقع إنه لمن الصعوبة البالغة ان يتمكن الانسان من الوصول الى المميزات العمارية للجامع من خلال التصاوير المجردة والرسوم ذات الابعاد المقاسة • لقد جاء الجامع النموذجي في المدينة العربية حصيلة للمناخ السائد في المنطقة العربية ، المتطلبات الوظيفية والدراسات الاكاديمية • لقد اعتبرت الجوامع والاضرحة الفخمة لرجال الدين ، من انبل بيوت العبادة من ناحية

طرز عمارتها في العالم • وغالبا ما لا يمكن التفوق عليها أو مجاراتها في غنائها التلويني والزخرفي(٦) •

بالرغم من التشابه الذي يتراءى لسكان المدن العربية بين جوامعهم، فان لكل من هذه الجوامع خصائصه العمارية الفريدة والتي يمكن تمييزها بسهولة • في الواقع تتباين اشكال وانماط الجوامع العمارية جدا ، حيث تتراوح بين خفيف البناء الى ثقيله ، من البسيط جدا الى ذلك الذي يمتاز بزخرفته العالية وبتنميطه العماري الكبير ، واكثر من ذلك فحتى المنارات نفسها تتراوح بين الانيقة الى تلك الفقيرة بمعالم لاناقة والحذق العماريين• كذلك فتتباني الجوامع في المدينة العربية في حجومها ، فمنها المحلي والذي يمتاز بصغره الى ذلك المتروبوليتاتي الواسع جدا •

لقد جاء عنصرا القبة والسطح المستوي في الجامع ليكونا صفة مميزة لتاونسكيب المدينة العربية اينما كانت وبشكل تفتقده مدن العالم الاخرى، مكونين تركيبا عماريا موحدا •

تمتاز المدينة العربية بانها لم تفضل الساحات العامة الواسعة ، مقارنة مع ما يوجد في المدينة الاوربية • ومن هنا فقد اصبح الجامع ، شأنه في ذلك شأن البيت العربي التقليدي (ذا الساحة او الحوش) ، عبارة عن فضاء ضمن جدران معينة ، اكثر منه بين مجموعة من الابنية كما يظهر في قطاعات المدن الاوربية الكلاسيكية والمتأخرة • لم يصبح انشاء الساحات العامة في المدن العربية تقليدا تخطيطا لها سوى في الفترة التي اعقبت الحرب العالمية الاولى •

لقد استمرت تلعب الجوامع ، بساحاتها ومناراتها ، في المدن الروسية وحتى الحرب العالمية الثانية ، دور اكثر المنشآت مركزية ، مما جعلها مراكز جذب لانظار وعواطف ليس سكان تلك المدن فحسب انما انظار المسافرين ومن مسافات بعيدة في البيئات العربية السهلية • لقد لعبت الجوامع

الدور الذي كانت تلعبه الساحات العامة في المدن الاوربية • إن ذلك ــ ولكبير الأسف ــ لم يستمر حيث قد قزمت اكثر الجوامع المركزيةالتذكارية من قبل الابنيةالمتعددةالطوابق والتي قد زرعت في المدينة العربيةالتقليدية، وفي حالات عديدة تقليدا اعمى لنماذج عمارية غربية دخيلة •

تكسى مداخل الجوامع عادة بانواع من الكاشي أو الموازائيك الملون خاصة الاخضر ، الازرق والابيض والذي قد تتخلله حزم من اللون الاحمر• لقد انجز ذلك بطريقة حققت تصحيحا معقــدا ودقيقا يصعب تحليله او ادراكـــه •

يقود مدخل او مداخل الجامع (ان كان هناك اكثر من واحد) الى الرحبة ذات الشكل الرباعي ، والتي تشكل عنصـــرا اساسيا في تصميم الجامع • ان لهذا الفضاء الجامعي المكشوف علاقة عضوية مع المناخ،حيث يمكن ممارسة العبادة فيها • كما وباستطاعـة الناس ان يدخلوا الرحبـــة لقضاء ما يرغبون من وقت مناقشين امور دينهم ، الى جانب وظيفة اخـــرى تودي هنا وهي وظيفة توزيع الطعام (في حالات عديدة) لمن هم في حاجة اليه • تصميم الشرفات لتوفير الظلال في العديـــد من رحبات الجوامع ، والتي تقام فيها العديد من انواع التجمعات • كما وكثيرا ما توجد سلسلة من الكوات والاواوين محيطة بالرحبة ، مودية وظيفة الغرف والتي تستعمل اوقات المطر وكذلك ايام مواسم الحر ، كمناطق لتجمع العابدين ولسكنى الزوار الغرباء وللدراسة أو قراءة القرآن •

توفر اورقة الجوامع وظيفة حماية العابد من الظروف الجوية غـــير الملائمة قبل وصولهم الى قلب الحرم • بالرغم من امكانية اقابة العـــابد لصلاته في الرحبة ، الرواق أو داخل الجزء المقبب ، فيفضل اقامتها في الاخـــير •

يمثل الوضوء احد المستلزمات الرئة لاقامةالصلاة • إن ذلك قد ترجم

عماريا بادخال عنصر حوض الماء الذي اصبح ظاهرة تنسيطية لرحية الجامع رامزة لاهمية الماء والنظافة ، ومضيفة عنصرا جماليا لتصميم الجامع •

يمثل الفضاء المسقوف داخلية الجامع واهم جزء من جسمه ، والذي يقع عادة عند احد جوانب الرحبة ، وهو ما يعرف غالبا بالمغطى • كثيرا ما يوجد في الجوامع الكبيرة سلاسل من الاعمدة والاقواس على جدران تسند السقف ، مكونة سلسلة من الاجنحة أو الممرات • إن أهم وظيفة يقدمها الحرم هو حماية فضاء كاف لاقامة الصلوات والتي يفضل ان تودي عند مستوى لا يرتفع عن مستوى الارض •

يوجد المحراب داخل المغطى والا على الاتجاه نحو مكة وغالبا ما يكون ذلك بتثبيت صخرة على جداره • لقد تطور شكل المحراب الرباعي الى شبه دائري وعلى ارتفاع مساو لاحد اضلاع المربع • من هنا باتت القبلة (الاتجاه نحو مكة حيث تقع الكعبة الشريفة) رمزا للشعور بالوحدة الوحدة بالمشاعر الروحية والتوجيه الفيزياوي للمدن العربية • لقد طور اول محراب زمن الامويين حين ادخله الخليفة عمر بن عبالعزيز الى قبر النبي (ص) •

يقع المنبر على الجانب الايمن من المحراب • لقد جاء عنصر المنبر الى الجامع من اجل أن تؤدي منه مواعظ وخطب الخطيب • لقد ظهر اول وابسط منبر في جامع الرسول بالمدينة المنورة وفي زمانه • اضافة الى ذلك فسيتعمل لترويد بعض ما يقوله الامام عند اقامة الصلاة •

يحمي فضاء الصلاة الرئيس ، ويضمنه المحراب والمنبر ، بقبة • تبنى القبة عادة امام المحراب ،وقد جاءت عنصرا عربيا اصيلا خاليا من التأثيرات العمارية البيزنطية • تستند اقواس القبة ، الكروية عادة ، على جدار دائري ، والذي يسمى بالطبل في حالة اقامته على تركيب آخر •تغطي القبة وطبلها فضاء رباعي أو ثماني ، وهنا تتصل قاعة الطبل مع خطوط الجدار الرئيسة باطفاف أو متدليات جميلة الطراز •

بالرغم من ان غالبية القباب في الجوامع العربية هي احادية السقف ، فقد تظهر ثنائيته ، وذلك لمقاومة ظروف المناخ الحارة . لقد ظهرت اول قبة ثنائية (اومركية) السقف فيجامع الغوري بالموصل .وهنا يمكن الافتراض بتطور هذا النوع من القباب حتى قبل بناء قبة Sta. Mavia Floire في فلورنسا (٧) .

تتباين القباب الخارجية بين شبه الدائرية (كما هي الحال في اغلب قباب جوامع بغداد) الى تلك الطولية المسببة عند نهايتها . تسند هذه القباب عادة بجدران مبنية على القبة الداخلية المزخرفة . تخط القباب الخارجية بطرق متباينة غنية بعناصر جمالها العمارية . تكسي القباب بالكاشي أو الموزائيك الملون ويجري ذلك باستعمال اقواس خشبية . يستعمل المعمار مادة الجص ومسامير صغيرة تثبت على سطح القبةالخارجية لكي تمسك بالكاشي الذي يمكن استعماله لتكسية السطح السفلي من القبة الداخلية ايضا ، خالقة جوا جماليا جليلا . لم تقتصر الامور الجمالية على ذلك فقد اضاف المعمار العربي الكاشي الملون الى قاعدة القبةمع كتابات عربية ــ كوفية نحتت بطريقة تعكس الاصالة العربية في فن العمارة .

يوفر الضياء في الغالب عن طريق شبابيك صغيرة صممت خصيصا لذلك ، وعادة توقع عند قاعدة القبة . إن جفاف المناخ في اغلبيةاجزاءالوطن العربي قد اتاح للمعمار العربي ان يوجد مثل هذه الفتحات في القباب والتي بدورها قد خلقت جوا داخليا رائعا لا يشعر به الا من دخل مثلهذه المنشآت العمارية .

لقد بدأ يستعمل الكونكريت فيبناء الجوامع العديد منالمدنالعربية. إن من جملة المساوىء العديدة لهذا العنصر الغريب على بيئتنا هو صعوبة تثبيت الكاشي الذي كان يستعمل لأكساء القباب . يعود ذلك الى قابلية الكونكريت الكبيرة على امتصاص الرطوبة مما يجفف مادة الملاط وبالتالي

يسبب تساقط الكاشي وكما حدث في العديد من الجوامع الحديثة في المدن العربية •

إن تطور عنصر المنارة ★ قد ادخل تركيبا جديدا ورشيقا الى تاونسكيب المدينة العربية • تمثل المنارة البرج الذي يدعى منه الى الصلاة ، وجاءت لتصبح هدفا مفيدا للتركيب العماري عند بناء الجامع • توقع المنارة دوما عند احدى زوايا الجامع ، وذلك لكي تبرز الناحية العمودية (الارتفاعية) لهذا العنصر العماري ، وبنفس الوقت لتكون تركيبا انتقاليا من مستوى معين في الجامع الى آخر وبطريقة مريحة للعين • لم تكن المنارة معروفة زمن الرسول محمد (ص) وان اغلب الظن هو ان ابراج الجامع الاموي تمثل اول المنارات في الاسلام •

تتباين عدد شرفات المنارات بين واحدة الى عدة شرفات • تمثل الشرفة اعلى مكان يمكن الوصول اليه في المنارة لاعلان الاذان • لقد كان يرتقى الى المنارة بواسطة سلم خارجي ، إلا ان ذلك تحول الى بناء درج داخل المنارة موديا الى اعلاها • تكتسي المنارة عادة بكاش محجل أو موزائيك احادي او متعدد الالوان ، وبطريقة تنتج انماطا زخرفية جميلة •

لقد كان لفن الخط قيمة كبيرة عند المسلمين ، كما وقد احتل الخطاط مكانة مرموقة ضمن المجتمع العربي الاسلامي وذلك لاستطاعته ممارسة نقل القرآن وما لذلك من فخر كبير • لقد استخدم فن الخط العربي كفاية دينية وتجميلية • تكون معالجات فن صنع المجسمات عند المسلمين بواسطة عملية النحت، مقارنة على ما نراه من فن القولبة الاغريقية والرومانية •

(★) هناك ثلاث كلمات مستعملة للدلالة على المنارة : مئذنة ، صومعة ومنارة . لقد جاءت الاول من آذان ، الدعاء للصلاة ، فهي تفني ببساطة المرتفي الذي يعلن منه الآذان . كذلك فتعني الهادي نحو الفضيلة . اما الثانية فتعني البرج . اما في حالة الثالثة وهي المنارة فتعني اصلا المعارض الذي يرفع (٨) .

ان ذلك ينجز عن طريق تهيأة الواح طينية تجري عليها عمليات نحت تجميلية خاصـــة •

تكاد تكون كل الجوامع في المدن العربية مجملة باقوال قرآنية، نحتت بطريقة عربية رشيقة على مسطحات ذات تربيعات جميلة • لقد جاءت عملية نحت الكتابة القرآنية في الجوامع كوسيلة وانجاز فلسفي لتحرير مشاعر المسلم الروحية من تقييداتها بعد تحويل ذلك الى اشكال معينة • إن كلمة ارابسك Arabesque (وهي فن الزخرفة العربي) الاصيلة وانتشارها الى اغلبية اللغات الاوربية لدليل واضح على اصالة وجلال هذا العنصر العماري الجمـــالي •

لا يفضل الاسلام كما ولا يهتم بالفخفخة العمارية التي تهدف الـــى التعاظم والتعالي ، مقارنة مع ما نراه في حالة الكنائس الفوطية ، وكذلـــك فلا يفضل وجود ما يمثل الكائنات الحية خاصة في المنشآت الدينية • إن ذلك يلقي الضوء على بساطة اغلب الجوامع في المدن العربية والتي تعتبر احدى اهم مميزاتها •

الهــوامش

1 — **R. Hassan,** Islam and Urdanization in the Medieval Middle East, Ekistics, 33, 95 (1972) 108; **G.E. von Grunebaum,** Islam, Essays in the Nature and Growth of Cultural Tradition, London (1961) 142.

2 — **Xavier de Planhol,** The World of Islam, Le Monde Islamique de Géographie Religieuse, New York, (1959)

3 — **S. A. el-Ali,** The Foundation of Baghdad, reprinted in: A. H. Hourani and S. Stern, The Islamic City, oxford, (1970), 81-103.

4 — **A. H. Al-Samarrail,** Transportation in Iraq, P.H.D. Thesis submitted to Reading University, (1968) 145-146.

6 — **Sir Thomas W. Arnold,** ꞉ainting in Islam, A Study of the Place of Pictorial Art in Muslim Culture, Oxford (1928).

7 — **G. Rivoira,** Roman Architecture, London (1925) 280.

8 — **Arnold,** op. cit. 4, 91.

مُعتقدات العراقيين القدماء
في السحر والعرافة والأحلام والشرور

للدكتور سامي سعيد الأحمد
قسم التاريخ - جامعة بغداد

وصلتنا الكثير من النصوص الآشورية ــ البابلية في السحر والعرافة، وغالبيتها مكتوبة باللغة الأكدية حيث اعيدت كتابتها زمن سلالة بابل الاولى. ونجد ذكر لهؤلاء السحرة في الكثير من الأدعية والتعاويذ أمثال المجموعتين المعروفتين بالمقلو **Maqln** والشوربو **Shurpu** . فمنذ زمن جودية نجد هناك أوامر ضد السحرة . وفي القوانين الاشورية الوسيطة اتتنا موادا ضد ممارسة السحر (اذا أعد رجل او امرأة معدات سحرية ووجدت في حوزته فانه عند توجيه الاتهام له واثباته يقتل صانع هذه المعدات وكل من شهد صنعها أو سمع بها من فم شاهد عيان قال (أنا رأيتها بنفسي) يتقدم كشاهد سماع ويعلن للملك فاذا انكر شاهد العيان امام الملك ما قاله يعلن ذلك في حضرة الاله الثور ابن الشمس (انه حقا قالها) وعندئذ يصبح حرا . اما شاهد العيان الذي قرر الشيء ثم انكره فان الملك يسأله ويتحرى ماضيه وحين يؤتى بمستحضر الارواح الشريرة يجعل الرجل يتكلم ويقول بنفسه (انه ــ اي الملك ــ سوف لا يبرئك من قسمك الذي أمرت ان تقسم به امام الملك وابنه . انه طبعا لنص اللوحة ، انك دفعت للقسم فاقسمت للملك وابنه) . [1] ففي بلاد آشور كانت عقوبه ممارسة السحر (كيشيو) الموت. وفي قانون حمورابي فالمتهم بالسحر يعرض الى امتحان الماء حيث ورد بالنص (اذا اتهم رجل آخر بالسحر ولم يستطع اقامة الدليل اختبر بامتحان

النهر فيرمي نفسه فيه فان غلبه النهر على أمـره استولى خصمه على مملكاته وان أظهر النهر انه بريء وخرج سالما فان المدعي يقتل ويأخذالمدعي عليه املاكه) .[٢]

وفي مجموعة المقلو يعرف الشخص الذي يقرأ التعويذة الساحرة بانها (تلك التي يسكن في قلبها شقائي ويولد من لسانها خرابي ويتأصل على شفافها سمي ويقف على آثار قدميها الموت) . وبذلك فقد عزيت الى الساحر والساحرة جلب الكثير من الشرور والامراض والارواح الشريرة . وكان العراقيون القدماء يعتمدون على الآيشيو لتخليصهم وانقاذ مرتكبي الذنوب وشفاء المرضى . علما بانهم عـزوا اوجاع الرأس والعمى والكابوس الى مهاجمة العفاريت أو الى ارواح الموتى [٣] . فلكل مناسبة رقية خاصة . وكان السحرة يلتمسون في تعاويذهم الاله أيا ثم مردوخ . ومن المهم ان نقول بان السحرة الذين يضعون عليهم اللوم عن امراضهم ومآسيهم كانوا بصورة عامة أجانب . فالسحر العراقي الرسمي تشرف عليـه الدولة وهو ديني في الهامة وغاياته للخير . فهنالك التعاويذ والطقوس السحرية الكثيرة لأغلب المناسبات والتي تستند على عناصر عامة لغالبيـة اشغال السحر . فاللون والعقد وقواها ، والدائرة واهميتها والتطهير بالماء ثم النار .[٤] ويمكن اعتبار الطقوس التي نجدها في المقلو من نوع السحر وتكون نوع من ممارسة السحر . ومن الامثال التي لدينا عن السحر الاسود هي رسالة الى اله من قبل بابو ـ أخ ـ إدينا يطلب فيها من الاله انزال انتقاما على هذا الشخص لأخذه أرصدة شماش بلاطو . [٥] وهناك مثل في ايلي إدينوم الذي اعد كمية من الشعير الى ولده لأجل ان يزرع حقلا . ولكن الابـن صرف الشعير واجر الحقل الى فلاح . واخيرا رفض الفلاح ان يعطي ايلي ادينوم حصة من المحصول بصفته صاحب الارض ورفع ايلي ادينوم الدعوى عليه في المحاكم . ووقف ايلي ادينوم امام المحاكم ضد ابنه . وأصر الاب بان زوجة ابنه وأمها هن ساحرتين (كشاتيوم) وطلب وضع حد لفعاليتهن .

ودفع الابن اتهاما مشابها ولكن الشهود أيدوا الابن مما جعل الحاكم نركال خازر يحكم له بالقضية . فاستأنف الاب الدعوى في محكمة أعلى وترافع امام هيئة من القضاة . فامرت الهيئة الحاكم لان يأمر الابن وزوجته وامها للمثول امامهم . (٦)

فاعتقد السومريون بان كهنتهم والذين حمتهم الارباب يمكن ان يخترقوا الحجب السرية الغيبية وحتى الشرور التي تهدد الكون . وتتلخص مهمتهم في التنبوء بوجود هذه القوى من عناصر وعلامات الفأل المختلفة واخضاعهم في وقت ملائم واستخدامهم لمصلحتهم . وبملاحظة العلامات التأليفية انار كهنة بابل دونما ادراك الطريق المعلم حيث ان السحر دون شك لعب دورا في تقدم الفكر العلمي (٧) . فالسحر العراقي القديم تدريب علمي مستقل ذا حدود ومبادىء متقنة بتطبيقاته وافكاره وليس نظام كوني يحكم ويسير جميع فروع المعرفة (٨) . فالسحر العراقي غايته دفاعية وخيرة ولم يمنع القانون الا الاسود منه الذي يستعمل للشر والاذى ليس الا . وعلى الساحر معرفة اسم المريض او الشخص الذي يرغب في الخلاص مما يعتقد ان احاطت به قوى الشر فيستلفظ اسمه بالصوت الملائم او كتابته او تمثيله بالشكل . ويتلفظ الساحر (الآشيبو أو الماشماشو) التعويذة (الشيبتو) . ويستمد الآشيبو قوته من تكريس نفسه للارباب والمهنة ومن كونه ممثل الآلهة الخاصة بالسحر . ويقول في بدأ العملية (آشيبو الذي خلق اريدو هو) ويتلفظ كلمات الطقس الخاص للتخلص من العفاريت وهو في ملابسه الحمراء (اللون المعارض للعفاريت) او جلد قد السمكة لتأكيد صلته بالاله أيا ، وهي الكلمات التي يستوحيها من الاله . فيدعو باسم الارباب اعداؤه ويستعين بالارباب الخاصة لاحراج العفريت . ويكون الطقس مصحوب بعدد من الاعمال الرمزية مثل حرق المواد التي تشبه الارواح الشريرة وحل العقد التي يتصور الساحر ان ضحيته قد ورط فيها . وتتألف الرقية من عمل تماثيل صغيرة تعذب وتحطم بتلاوة كلمة عليها . ويعمل

الآشيبو خلال هذه العمليات دوائر بعصابة السحرية يضع فيها نفسه واي شخص يريده ويقول (في يد امسك دائرة سحر أيا ، في يدي أمسك خشب الارز ، سلاح أيا المقـدس ، في يدي امسك غصن النخلـة ذات الطقس العظيم) • والساحر هو المسؤول عن نفح القـدسية في لوازم الارباب وتماثيلها وطقوس غسل وفتح أفواه هذه التماثيل • وتألف هذا الطقس من لمس هذه اللوازم والتماثيل بواسطة الآلة الملائمة مع تلاوة بعض العبارات الطقوسة • فتدب بالتماثيل بواسطة هذه العملية الحياة • (٩)

واحيانا يتلفظ الآشيبو (الرب العظيم ، الاله أيا أرسلني ، ووضع رقبته المقدسة في محل رقبتي ووضع فمه المقدس في مكان فمي ولعابـه المقدس في لعابي ودعائه المقدس محل دعائي) • فالساحر العراقي يمكنه ان يحدث شيئا عن طريق تقليد حدوثه او احداث ضرر او خـير في أشياء فعلي الساحر تقع مسؤولية إنقاذ الشخص المريض الذي اعتقد بان روحـا تعود لزبونه امثال شعر رأسه او اظافره او جزء من ملابسه وما الى ذلـك عفريتية شريرة قد حلت فيه • ففن الشفاء بالعراق القديم قد ارتبط بنظام واسع من عـالم العفاريت من جن وارواح معاديـة تسـير في شوارع المدن داخلة من ابواب البيوت او جدرانها • فالخوف من الشياطين بانواعها (الشياطين الصرفة وتلك المركبة من شياطين وبشر والناتجـة عن تزاوج البشر والشياطين) والارواح الشريرة والارباب المهانـة كانت من العوامل المهمة في الحياة البابلية (١٥)• ونظروا الى ايا ومردوخ كحماة لهم من هجمات هذه العناصر الغثيثة والساحر خلال عملياته السحرية عليه ان يتلفظ اسـم العفريت الذي يريد خروجـه واقلاعـه عن جسم المريض • ومن ثم يرشوا الماء على المريض ويحيطوه بالطين أو باشياء اخرى حامية نباتية تربط على جانبي فراشه بينما يمسك الساحر في يده عودا من الصفصاف المقـدس (سلاح آنو القوي) خلال قرائته للتعويذة • وان لعنة اويدو (او ما تسمى بلعنة الكفارة سيتو وهي المهمة في اخراج العفريت من جسم المريض) قد

حصلت على قوتها من الماء والتي لم تصلنا كلماتها ولكنها لا بد وان تحوي على اسم أيا •

ويتطلب اخراج العفريت احيانا ذبح خروف او خنزير لتحويل العفريت الى جسم الضحية التي يتلقونها بعد ذلك • وفي نص طقوسي يأمر الاله أيا مردو به لان يأخذ ضحية عوضا عن الملك مثل عنزة وحشية ذات قرون وان يوضع رأسها امام رأس الملك مع قراءة العبارة (هلا يكن الملك طاهرا نقيا فالذي لا يعرف اللعنة التي سيشفى بها ، هلا يترك جسمه ويخرج منه)• ويأخذوا ايضا سبع رغفان من العجين النقي الى البرية حتى يرفعوا القدمين بعد أن يوجه الساحر الى الضحية الشر لذي نتج عن الذنب المرتكب•وضع الآشوريون من العجين ما يماثل شكل المريض ورشوه بالماء وعاملوه بعد ذلك كعوض عن المريض وحملوه بعد قراءة عبارات خاصة الذنب الذي جر على مريضهم المرض • ويضعوا على رأس وقدم الرجل المريض خيوطا من الصوف الاسود والابيض يلقوها بعد ذلك في البرية كطقس تكفيري[١١]• ونسمع عن اخراج اشيبو لشبح اطيمو (اذا مسك أطيمو بانسان وصرخ قلبه فيجب ان تهيء نفسك في يوم محظوظ طيب واغتسل جسمك بالماء من الحوض واذهب الى البرية واكنس الأرض بسعفة نخل ثم اعمل شكلا من الطين تمثل الرجل المريض كعوض والبسها الملابس اليومية الخاصة به ، وصنع سبع مرات سبعة رغفان لأكله اليومي ومغزل وستار ومسمار واربطها الى رأسه • وضع مذبح أمام الاله شماش مع وجبة طيبة ثم رشها ومبخرة مع عطر من عشب الارز فيه مع جرة صغيرة من البخور عليه ثم صنع تمثال شماش) وبعدها يتلو التعويذة التالية (اب أيا ، الشرق ، الرب أيا الذي يعطي التأثير والقوة الى تعويذه مردوخ ، اين اريدو • مردوخ قد رآه• المسيطر على السموات والارض الذي اعطى الحياة لكل الأشياء ، رش الرجل المريض) • وتقرأ التعويذة ثلاث مرات • ثم قطع عقدة ثوبه ويعطي المريض رغيفا مطبوخا في رماد وكأسين من رغوة البيرة • ثم يؤخذ الشكل

ويربط مع غصني صفصاف وتقرأ عليه التعويذة ويوضع في محل • وتلحقها تعويذة طويلة يستنجد بها بكل ارباب العالم الأسعد الذي يمثل لقوتها الرجل المريض صاحب الشكل الطيني • ثم ينتهي الرقم بالعبارة (انت مقبور، ربما تبدل هيئتك ، ربما تغير نفسك (اي ارجع الى الحياة ثانية) (١٢) • والفكرة العفريت مستندة على التعويض (يوخو) حيث يكون العرض في العادة حيوان خاصة خروف او شكل طيني أو عصا ، ومهما يكن العوض فانه يعامل كشيء ميت وفي العالم السفلي • وتقرأ دوما كون الطقوس السحرية تأخذ عملها خارج المدينة او في المقابر والبرية واللواتي ترمز الى العالم السفلي • ونسمع ايضا عن شد العقد من قبل الآشيبو الى المرأة الحامل والتي تعمل بالطبع لاعطاء قوة الى الشخص ضد عدوه • وتقرأ في نهاية احدى نصوص المقلو الموجهة ضد السحر القول (قد حلت عقدتها وابطل سحرها الذي مليء البرية) • (١٣)

وكانت الرقي شائعة الاستعمال يحملها الناس لوقايتهم من اخطار العفاريت المتنوعة وحتى الأرباب كانت تحملها طلبا للسلامة والقوة • وكان مردوخ ، كما ذكرت اسطورة الخلية البابلية مزودا بالسحر مسلحا به لدى حربة تيامات • وقد امدتنا رقية بصورة مخلوق ربما يمثل الشيطان كما تصوره العراقي القديم حيث ترينا مخلوق مجنح بعضلات قوية وسواعد مفتولة وذيل ملتو وهو يحمل في يده سلاح الصاعقة واسمه يازوزو ابن الاله هابني ملك عفاريت الريح الشريرة كما تنص الكتابة التي في ظهر الرقيم وكانت مثل هذه الرقية تستعمل من قبل النساء عنه الولادة لتسهيلها عليهن ، مثلهن في ذلك مثل رقي اللاماشتي طاردة الشياطين التي تهدد النساء الحبالى منهن والمرضعات • واللاماشتي هذه تحمل بالعادة صورة وحش غريب الشكل ذي رأس أسد وجسم امرأة • (١٤) ويلبس الناس وحتى الارباب التمائم ، وكان مردوخ عند حربه لينامات لابسا تميمة من الطين الاحمر وممسكا في يده نبتا يبطل السم ويوقفه • وعلى أحد التمائم

التي وصلتنا تقرأ (ذاك الذي وصل البيت قد أرعبني من فراشي ومزقني وحملني أرى الكابوس ، فالى الاله بابن ، حارس باب العالم الاسفل ، هلا يقدرون له ، بأمر الاله ننورتا ، امير العالم السفلى ، بأمر مردوخ الساكن في ايساكيلا ببابل • ليعلم القفل والباب باني تحت حماية الربين)(١٥) وشكل التميمة ، والتي كانت بالأصل الحماية من الرياح الغربية صيفا والقاق عامة ، تكون عادة على شكل راس عفريت من الصخر او البرونز بصدر طير واذرع أدنان ماسكا بيده سلاح الصاعقة • وعلى احد التمائم تقرأ (انا الاله يازوزو ابن الاله هابني ملك عفاريت الريح الاشرار • الذي يغضب بقوة في الجبل (جبل العالم السفلى) حتى يأتون • اما تلك الرياح التي ترافقهم ، فالرياح الغربية في مقدمتهم واجنحتهم مكسورة) • والنار والارباب الأخرى تأثيرات هذا السحر الاسود ، وهذه الارباب هي تلك الخاصة بالنار امثال كيرا وكيبيل ونوسكو اللذين تقرأ اسماءهم في تعاويذ الآشيبو ضد العفاريت والسحر • (كيرا الغضب ، ابن آنو ، انت اكثر اخوانك عنفا ، انت الذي تحكم بالقضايا مثل لارباب سن وشماش ، احكم بقضيتي ، توصل الى حكم يتعلق بي • احرق ساحرتي وساحري • يا كيرا استهلك (جسم) ساحرتي وساحري ، ياكيرا احرقهم ، ياكيرا استهلك أجسامهم ، ياكيرا قيدهم ، ياكيرا اهلكهم ياكيرا أطردهم) •

ونقرأ في نص عن العلاقات التي تلاحظ على المريض ثم يسرد كيف ان مردوخ رآه وهرع الى أبيه أيا واخبره الذي نصحه بان يأخذ ماء نقيا وان يحل رقيته ، سواء اكانت تلك لعنة احد افراد اسرة المريض او غيرهم وان يستنجد به (بأيا) ثم يأمر ببطلان مفعول اللعنة وتأثيرها كما يقشر الآشيبو البصلة التي معه ويفتح التمرة التي في يده ويلف الفتيلة التي يحملها • ويطلب الآشيبو عادة هذه المواد (البصل والتمر والفتيلة والصوف وشعر الماعز) التي يرميها احيانا في النار • ووصلتنا تعاويذ لا ماشتو كثيرة تقرأ في واحدة ان يأخذ الشخص طينا من الارض ويضع عنها شكلا

اللاماشتو يضعه عند رأس الرجل المريض بعدها يملأ موقدا بالرماد ويضع خنجرا فيه • ثم يضع الموقد هذا لمدة ثلاثة ايام على راس المريض • وفي نهاية اليوم الثالث على الشخص ان يضرب شكل اللاماشتو بالخنجر ثم يحرقه في زاوية من زوايا البيت • وفي رقية اخرى الى اللاماشتو يوكر الآشيبو فيها ان يضع شكلا الى اللاماشتو (اتيةآنو) من طين حفرةوكذلك شكل حمار من نفس الطين • ويقدم سكيبة طعاما من الخبز والبيرة ويذبح خنزيرا صغيرا واضعا منه على فم اتية آنو • ويكرر الوضع لمدة ثلاثةايام قارئا خلالها التعويذات وفي نهاية اليوم الثالث يأخذها الى البرية •(١٦)

ولدينا صنفين من الارواح الاولى الشريرة المعروفة بالاوتوككي ليمنوتي والثانية بالطيبة من نفس (الاوتوككلي) والمعروفة بالشيدو ، واللماسو • وتقرأ في تعويذة ضد الاوتوككو الشريرة (نامارتو والتي هي خراب وتدمير قد امسكت به •••• اوتوككو شرير يركض في الحديقة مثل ريح الهايته • آلو الشرير الذي يسير في الشوارع مثل الريح ، الاطيمو الشرير المعلق على الانسان كالحبل ، العاللو الشرير المنتشر مثل الشبكة والذي لا يتمكن احد ان يمحوه • لقد تحلكت على راسه النامارتو الشريرة ، لقد تملكت على بلعومه الاوتوككو الشريرة ، لقد تملكت على صدره الآلو الشريرة ، لقد تملكت على يده العاللو الشريرة• لقد تملكت على قدميه الرابيصو الشريرة فلميتمكن من الاكل او الشرب• لقد رآه مردوخ •••• اذهب ولدي ، خذ طحين ذرة مر المقدس عند العفاريت وطحين حنطة المقدس عند الارباب ثم خذ طحين الانفيننو واخلطهما •••) (١٧)

واعتقد العراقي القديم بقدرة الشيدو واللاماسو اللامتناهية على طرد الشرور مهما كانت مصدرها • وقد صوروها على شكل اسود مجنحة برؤوس بشرية ووضعا عند مداخل القصور الملكية • وعملت لهم اشكال من الطين والخشب وضعت على البيوت وحتى الغرف للحماية والامان من

عناصر الشر وارواحه • وقد عثر في موقع اور على اشكال معمولة من الطين في صناديق من الطابوق باغطية فتت تحت الجدران وبعض هذه الاشكال مصبوغة بالاسود والاحمر وهي على انواع مختلفة غالبا رجال بشكل اسماك في بدلة طويلة مع منعة مدببة وبعض منهم رجال يشبهون الطيور • وبصورة عامة فان امثال هذه الاشعال التي وضعت لحماية المنزل تحوي عددا من المآسي التي قد يتعرض لها البيت ومن فيه وبذلك تعتبر حامية للبيت منها (سواء اكانت شبحا شريرا او روحا شريرة او غول شرير او اله شرير ••• اولاماشتو او لاباسو أو الماسك او الميلو او ليليت او •• يد اله او يد الهة أو وباء •• أو عفريت طاعون أو عفريت سوء حظ أو الموت أو اكر أو الحمى او القاتل وما الى ذلك والتي تؤذي الانسان في بيت انسان) • وهناك ايضا طقوس خاصة تعمل للشكل الطيني أو الخشبي هذا قبل وضعه في الارض كأن يرشه (طبعا الساحر) بالماء المقدس ويضعه على مرفعة الطقس ويضحي له الخرفان ويضع اللحم والعسل والزبد ويهيء المبخرة مع العشب الطيب الرائحة كيما يحرقه فيها وبعد سكبية الخمر ووعاء الماء المقدس ويتلو بعدها التعويذة الخاصة • وقد عثر على تماثيل طينية عليها كآلات سحرية • وفي كتابة من هذه وجدت على اشكال لكلاب تقرأ لـ •••• اسم كلب اسود ، استهلك حياته ؛ اسم كلب آخر العالي العواء اسم الكلب الاحمر ، طارد عفريت الاساككو • اسم الآخر ماسك العفريت العدو ••• اسم الكلب الأخضر طارد العدو • اسم الآخر الذي يعض العدو ، اسم الكلب المرقط ، مقدم الطيبون ، اسم الاخر طارد النحسين المؤذين) (١٨) •

وهناك طقس عرفوه بتطهير الدار ، تؤخذ به كافة التماثيل سواء كانت طينية او خشبية الى النهر ويضعها باتجاه الشرق ، وعند شروق الشمس يعمل على التماثيل مرسوم يشتمل على أضاح وسكيبة الى الاله شماش ترجع بعدها الاشعال الى الدار حيث تقدم لها اضاحي وسكائب اخرى هذه المرة

الى مردوخ ورب وربة الدار والثلاث ارباب العظمى والى الروح الحامية للبيت ثم الى ملكة العالم الأسفل . ثم يلمسو المناطق المهمة من الدار كالزوايا وأعقاب الجدران والسقوف ومجاري الدار الهوائية بمواد كثيرة لتطهيرها بدمونها بعد ذلك في خارج الدار . وهكذا طردت الشرور عن الدار وتقدم الاضاحي ونقرأ التعويذة التالية (ومن اجل الامور الشريرة الموجودة والتي تجلب المآسي لدار فلان بن فلان ... لقد جعلتكم تقضون خارج الدار يدا وعينا ، لطردهم خارج بيت فلان بن فلان . هلا يطرد اي شيء مؤني وغير طيب لمسافة ٣٦٠٠ ساعة مضاعفة) (١٩) .

هذا وقد تكون المآسي التي تنزل بالانسان من جراء سحر عمله ضده ساحر بتأثير شخص معاد او لتسلط عفاريت شر عليه وربما نتيجة عدم التزام الشخص بالتزام وتقيده بتحريم اي خرقه الممنوعات حيث نعرف ان هناك بعض الاطعمة والفعاليات التي حرمت على العراقي القديم حيث تقرأ في نص (في اشهر تشرين ، اليوم الاول ان لا نأكل الثوم والا فان العقرب سوف تلدغه ، أن لا يأكل بصل والا فسيصاب بالدزاتري . في اليوم التالي يجب ان لا يأكل الثوم والا فسيموت شخص مهم في عائلته ...ان لا يصعد الى سقف والا فان رفيقة الليلو سوف تمسك به .. في اليوم الثالث ان لا يتصل جنسيا مع امرأة والا فان تلك المرأة تأخذ قوته الجنسية . في اليوم الرابع ان لا يعبر نهر والا فسوف يذهب نشاطه ورجوليته . في اليوم الخامس ان لا يأكل لحم خنزير والا فان دعوى سوف تقام ضده . ان لا يأكل لحما مطبوخا او أن العفريت المتجول سوف يضربه، ان لا يأكل لحم بقر والا فان عفريت الاوتوككو سوف يمسك به ... الخ) . او قد يكون السبب اهماله واجباته نحو رب او ربة او قد تكون نتيجة ذنب ارتكبه هو او ابيه أو اخيه الاكبر أو جده أو اخته الكبرى أو أحد أفراد عائلية وحتى قبيلته . أو قد يكون السبب ايضا بانه خرق تحريما لمدينته او تلفظ فألا سيئا ضد مدينته أو انه قد نام في فراش شخص

ملعون او جلس بكرسي شخص ملعون أو على مائدة شخص ملعون او شرب من كوب شخص ملعون . [٢٠] وحتى بناء البيوت يجب ان تتم حسب طقوس سحرية لاكماله . وجميع المباني العامة والمقدسة وضعت في اسسها اشياء ، وفي العصور اللاحقة صار وضع مثل هذه يصحبه تقديم أضاحي. قد فتت تحت ابواب البيوت الحروز وتماثيل الارباب وحيوانات وعفاريت لحماية اصحابها من ارواح الشر ، وضعت كلها بحضور الآشيبو الذي يقرأ عادة عليها التعويذة الصحيحة . فعندما تكمل البناية يأتي الآشيبو ويضع شكلا من الطين يمثل رب الطابوق مع اشياء على قارب صغير يحمله ويقرأ التعويذة (رب الطابوق انشدك ، بالسماء والارض انشدك ، انشدك بحق ألالا وبيليلي ، انشدك بلخمو ولا خامو ، انشدك بأرباب السماء ، انشدك بأرباب الارض ، انشدك بأيسو ، انشدك بالارباب التي تسكن دوكو (الجبل المشرق) هلا تمزق ، تخرج وتذهب وتضعف وترحل من هنا ، انشدك ان لا ترجع) [٢١]

فاعتقد العراقي القديم بوجود العفاريت الكثيرة الطيبة منها والخبيثة. والأخيرة هم اولاد ارباب الشر الذين دحرهم مردوخ بينما الطيبون فقد نسلوا من الارباب التي لا تزال تعيده والجن الطيبة معروفة متميزة باجنحتها والثيران المجنحة او انها غير منظورة . وعرفوا أيضا باسم ثلث عشتار او ثلثي عشتار اي برقم ٥ او ١٠ لان رقم الربة عشتار ١٥ . وان الجن الخبيثة اكثر بكثير عددا من تلك الطيبة . واعتبرت الطيبة اولاد آنو أو انيل وامهم ربة العالم السفلي وحتى اولاد أيا من دامكينا . وعرفوا ايضا باسم طحال أيا . وقد صوروا هذه العفاريت كمخيفة وكوحوش ذات اشكال غريبة غير اعتيادية . وهم في جماعات منهم الاوتوككو الاشرار المعروفين أيضا بالسبعة والذين يختلف عددهم احيانا حيث ورد في النص (سبعة انهم سبعة ، في الاعماق انهم سبعة ، في السماء أنهم سبعة ، موضوعين في الاعماق انهم سبعة ، ليسوا بذكور او اناث ، رياح عاتية هم ، ليس لهم

زوجات ولا ينجبون اطفالا ، لا يعرفون الرحمة والشفقة ولا يسمعون التماسا ولا دعاء . انهم خيول ربيت في الجبال ، معادين الى أيا ، انهم حاملي عرش الارباب ولعرقلة الطريق يرمون انفسهم في الطريق انهم اشرارا اشرار انهم سبعة عددهم سبعة مرتين سبعة » وتقرأ أحيانا عن كونهم قبيلة ويضموا حولهم عفاريت كثار منها الاشباح (الاطيمبو) والنامارتو (عفريت لمرض) ، ويكون نباحهم في بعض الأحيان أشد من عضتهم . يتمكنون من دخول البيوت والصفير به والكلام وقلب أثاثه على بعضها وحتى يذهبوا الى الاصطبلات لقتل الحيوانات وأذاها . يدخلون البيوت مهما كانت محكمة القفل ويجعلوا افرادها تتخاصم . وهناك السبعة الآخرون الذين بالاشتراك مع العفريتة انية آنو الذين يمنعون الاطفال من الولادة في الوقت المعين أو يقتلوا الطفل الحديث الولادة . وهناك العين الحاسدة التي لا يصيب الرخاء أحد او أمر تحت تأثيرها . فقد يقف تأثيرها المطر في السماء ولا ينمو الحشيش و لاتتكاثر الحيوانات في الاصطبل . ونوع آخر من العفاريت الخبيثة هم الاشباح (الأطيممو) وهم ارواح اولئك الذين لم يعيشوا بسعادة في هذه الحياة أو ماتوا موتا عنيفا وهم كثيرون تقرأ عنهم في نص (ذاك الذي ترك جسمه في السهل ،وذاك الذي لم يدفن ، وتلك التي ماتت عذراء او في مهدها أو التي مات طفلها او ذاك الذي وقع النخلة او غرق) . او الذين لم يدفنوا دفنا صحيحا حسب الاصول او الذين لم يجلب لهم أهلهم واصدقائهم منذ موتهم العطايا الجنائزية (٢٣) .

والعفاريت اعطيت اسماء كثيرة وهي في احوال متعددة تحمل معاني القوة أو المسك امثال الاوتوككو . آلو ، الشيدو ، العاللو . او انها تحمل اسما وصفيا مثل الأخنحازو (الماسك) والرابيصو (المنتظر) واللاباسو (الداحر) والليلو والانثى اليلتو (الروح الليلية) واعطوا اوصافا مختلفة امثال القساة ، لمتعطشين للريح ، الطائرين في الفضاء . ومنهم الأدمو والتي هي في الواقع ارواح الموتى اللواتي تركت أجسامهم الأصلية حالا بعد

الموت وبدأت في انزال الأذى بالاحياء ولاضرار بهم • ثم النامارتو عفريت الطاعون والامراض الخبيثة ومبعوث الاله من كمال اله الموت والعـالم السفلي • وغيرهم الاوتوكو التي تعيش في المقابر والصحاري والجبال • والعاللو وهي العفاريت غير المتميزة الجنس والتي تقطن الخرائب والمحلات الخالية غير المأهولة ، والرابيصو التي تختفي اثنـاء النهار وتخرج ليـلا لارهاب الناس • والأساكو التي تتغلغل في أجسام النـاس ، والأخازو واللابرتو واللاباسو التي تهاجم الأطفال على الاكثـر • وهناك محلوقات مركبة نضعها بشر والنصف الاخر شيطان مثل الليلو ذكوردوغا زوجات فنراهم على الدوام يطاردون النساء ويلحقون الاذى بهن ويزرعون الفزع في قل بهن • ويقابل هؤلاء الأردات ليلي وهم من النساء دونما ازواج لذا أصبحوا في ملاحقة مستمرة للرجال من اجل الظفر بهم واشباع رغبتهن منهم • ومن العفاريت الطيعو ، الذي يسبب امراض الرأس والحمى • والتعاويذ ضد هذه العفاريت كما صنفت وسميت من قبل الباحثين المحدثين تقع في اصناف اهمها الشوريو والمقلو المستندتان على الحرق والاخـرى الاوتوككي ليمنوتي والأشاككي مارصوتي (مـرض اشاككي) وسلسلة لا بارتو •

وان طقس الاله ايا يدور حول استعمال الماء في شتى الاصناف •ثم حرق شكلا يمثل العفريت مع قراءة تعويذة امثال (انا أحمل الشعلةواحرق اشكالهم ، اشكـال الاوتككو والشيدو والرابيصو والأتيمو واللابارتو واللاباسو والاحنخازو والليلو والليليت ورفيقة ليلو • وجميع الشر الذي يملك الرجال • أو جناذب ودخانكم يرتفع الى السماء واعضاؤكم سيشمها اله الشمس وهلا يحطم قوتكم مردوخ الساحر الكبير ابن أيا) (٢٤) • ثـم يتحولوا الى الساحر والساحرة (في هذا اليوم تقدم لمساعدتي ، اخمـد المضطرب واقهر الشر • وكما ان هذه الاشكال ترفرف وتذوب وتتلاشى• هلا ترفرف وتذوب ويتلاشى الساحر والساحرة) (٢٥) • ولهذا فان المـاء والنار يشكلون العنصرين الرئيسيين لطرد العفاريت • ففي طقس أيا السالف

الذكر يأخذ الساحر ماء من دجلة أو الفرات ويرشه على جسم زبونه مع قراءة (بماء طاهر نظيف ، وبماء صافي لامع سبع مرات وسبع مرات ،رش وطهر ونظف ، هلا ترحل الرابيصو الشريرة ، هلا يتنحى جانبا . هلا تبقى في جسمي الشيدو الطيبة واللاماسو الطيبة . اؤكد بالارض) (٢٦)ويعملوا الاشغال كما اسلفنا القول من القامة أو الطين او العجين . او البرونز .

وتشتمل طقوس الحرق ايضا حرق موادا أمثاله تمر ، بصل ، صوف وبذور أو رميها في النار مع قراءة صيغة سحرية مثل (ومثل البصل المقشروالمرمي في النار ، المستهلك في النار المشتعلة ، لا يزرع في البستان ، في الاخدود والحفرة لا توضع ، وجذرها لا تثبت في الارض وساقها لا ينمو ولا يرى الشمس ولا تأتي الى مائدة رب أو ملك ، هلا تؤلم وتؤدي ونفذت اللعنة، مرض ، اوجاع ، ذنب، اخطاء ، تعدي ، المرض في جسمي وجلدي وعضلاتي يقشر مثل هذه البصلة ويحرق اليوم في النار المستعلة ، هلا كل العقدة وهلا أرى الضوء (٢٧) . هذا وترمي احيانا الاشغال في الماء بعد قراءة صيغ سحرية عليها . واحيانا يقيد الشكل من الايدي والاقدام وتوخز عيونه وتملأ باللعاب ويخرج لسانه او يربط ويغطي فمه او يملىء سما او ترابا او يشفوا جسمه . (٢٨)

واحيانا يدهن الساحر جسم زبونه بالزيت وسلو عليه صيغة سحرية مثل (زيت نقي ، زيت لامع ، زيت مشرق ، زيت يجعل الأرباب مشرقة ، زيت يلطف عضلات الانسان ، زيت تعويذة أيا مع زيت تعويذة مردوخ ، اصب عليك مع الزيت المشافي الممنوح من قبل أيا لتخفيف الآلام ،امسحك اعطيك زيت الحياة ، وبواسطة تعويذة ايا ، رب أربو ، ساطرد منك المرض المصاب انت به (٢٩) . هذا والى جانب التمائم التي ذكرناها والتي هي على شكل احجار وصخور توضع بحلقة وتربط الى الأيدي والاقدام ، هناك خيوط يغزلونها من خرفان صغيرة ويعقدونها ويربطونها بالمراس او الرقبة أو الايدي أو اعضاء جسم المريض وحتى حوالي فراشه . (٣٠)

وربما يكون اساس تفكير العراقي واعتقاده هـذا عدم ثبات بيئتـه وتغيرات محيطه العنيفة المستديمة والفجائية احيانا • فالفيضانات الخطير المدمرة والحرارة الشديدة التي تبدأ منذ وائل ما ليس وتنتهي باواسط تشرين الاول والرياح العاصفة الرملية تشكل بعض ما قدمته بثبته اليـه • الى جانب شكوى الزراع من ضعف قوة الارض الانتاجية وعملهم علـى ترك نصف أراضيهم بوراً على الاقل كل سنـة أو طلبهم مناطق جديـدة تجنبا لاملاح التربة (الشورة) • فالعراقي القديم ليس كاخيه المصري الذي أمده محيطة بشعور قوي بالطمأنينة والرضا وعلمه النظام وأشعره بالسعادة• فقد كان المصري القديم يعرف بالضبط مقدرات طبيعته فيعلم من يفرض النيل ومتى عقب ريح الخماسين القوية فانتظمت لذلك اوقات حصـاده وزرعه • ولكن العراقي القديم لم يجد اي سبب يحمله على الثقة بالطبيعة التي هي بنظره مليئة بقوى مدمرة مهلكة لم تنج منها حتى تربة حقلـه • فليس من المدهش اذن ان نجده خائفا من القوى غير المنظورة التي اهتم كثيرا بارضاءها وعمل على تجنبها بشتى الوسائل خاصة عن طريق السحر والشعوذة وجعلته مولعا أيما ولع بالفأله والعرافة • فلم تترك عناصر الشر حتى القمر الذي ينظره ربا من الارباب حيث تصور العراقي القديم الخسوف نتيجة المقر من قبل بعض العناصر الشـريرة حيث ورد في النص (لقـد اخترقت الارباب السبعة الشريرة طوق السماء وتجمعت بغضب حول هلال الاله سن) •[٣١]

ولكن قوى الشر في العالم باجمعها في نظر العراقي القديم ، تظهر في شخص الشريرة تيامات • ولو ان تيامات نفسها في الأصل ربة أنجبت الكثير من الآلهة العظمى القديمة فقد ارتبطت بالشر واصبحت المخلوق الالهي الذي يتجسم فيها الشر ، شيطانة حقا ارادت الموت والفناء للكل حتى للشبان من الآلهة ، والذين هم أحفادها من أجل راحتها وسلامة الاقربين لها ليس الا ولكن الاله الشاب ، مردوخ جرأ على النزال معها والحرب مع اعوانهـا

وجنودها ولأجل امه تتصدى تيامات للتحدي الجديد هذا وتهديدات مردوخ المستمرة لها يذكر النص (فقد أحضرت الافعى والتنين والأسد ذو الرأس البشري والسبع الضخم والكلب المسعور والانسان العقرب والعفاريت الضخمة يشكل الاسود والذبابة التنين والحصان برأس وصدر انسان وهم حاملين اسلحة لا تترك أحد (دون اذى) ولا تهاب المعامع[٣٢] ورغم كل ذلك فقد استطاع مردوخ ، الذي حصل على منازلته أمر المجلس الالهي (بوخور اياني) وتشجيع والده انيل له ، دحرها وقطع جسمها الى نصفين خالقا من أحدها السماء ومن الاخر الارض وصانعا من دمها البشر . فعلى أساس ما جاء في هذه الاسطورة(الانوما ايليش ــ من هو في العلى أو قصة الخليقة البابلية) فان المادة الأصلية التي خلق منها الانسان هي جزء من شيطان خطر . فلما كان البشر قد خلقوا من دم تيامات والتي وان كانت ام الارباب ولكنها شيطانة نفسها مليئة بالكراهية وحب الانتقام والعطش للقتل وسفك الدماء فانهم بذلك مخلوقات يجري الشر في عروقهم . ويمكن النظر الى يتامات ايضا كاله مغضوب عليه واندحارها امام مردو ربما يفسر في حقيقة كون الشر مقدر من الارباب العظام من ناحية وانه بذات الوقت عنصر زائل في النهاية لا محالة . وان انتصار مردوخ كان ماحققا اكتسب شهرة واسعة جعلته يمجد سنويا في عيد الاكيتو (زاك موك) المشهور الذي يتفق والايام الاولى من شهر نيسانو (آذار ــ نيسان) في تقويمهم .

وان تعاظم اسم مردوخ وقوته ، حسب ما تذكر الاسطورة ، يرجع سببه الى ما حققه من نصر في معركته مع تيامات الذي حفظ بها جميع الارباب الاخرين من الخطر وجعلته بطل الحق والمدافع الحقيقي وخالق البشر . وقد يعمدوا أحيانا خلال هذا العيد لاختيار وتنصيب ملك عوض (شاريوخي) تعطي له جميع سلطات وقوى الملك الحقيقي وصلاحياته من يوم واحد الى مائة يوم ثم يقتل في آخر النهار ويدفن عند غروب الشمس

في احتفالات ضخمة بعد تشييع فخم .[٣٣] وهذه العادة في نظرهم تجبر جميع القوى الشريرة والارواح الشيطانية على عدم الاضرار بالملك الحقيقي طيلة ايام السنة الجديدة ويلجئوا اليها أيضا اذا ما ظهرت هناك علامة فسرها الكهنة بخطر محدق بالملك الحاكم تتطلب تقديم فدية بشرية له بهذه الوسيلة .

فالرؤوس الكبرى للشر في نظر العراقي القديم سواء اكانت تيامات نفسها مبدئيا أو الشياطين السبعة هم أرباب قبل كل شيء . فمصدر الشر آلهة معينة اذن لا يمكن رد اوامرها وهي ذات قوى خارقة والعفاريت والارواح الشريرة تتمكن حسب رأي العراقي القديم في اي وقت من انزال الاذى بالناس والحاق الضرر بهم كاصابتهم بامراض متنوعة واحلال الرزايا فيهم وانبات الخوف في قلوبهم وهد سعادتهم . وتتمكن الارباب التي لا تستقر على رأي واحد ثابت من ان ترسل الكثير من العلامات والامارات والحوادث الطبيعية وحتى البشرية لتنذر الناس عن كوارث وشيكة الوقوع امثال البرق والبرد ولصقيع والمطر وحتى تكسر اثاث البيت ولدغة النحل وسقوط فرد من العائلة من محل مرتفع الخ . واطلقوا على كل هذه الأصوات النبوية (الاشايوت) يمكن تفسيرها بسهولة من قبل الاشايو .[٣٤]

أما العرافة فقد برز العراقيون القدماء بروزا ملحوظا واستنسخت نصوصهم في شوشة ونوزي وحاتتوشا وقطنه وخاصور وما الى ذلك وترجمت الى اللغات المعروفة آنذاك امثال العلامية والحيثية . والعرافة تمثل طريقة فنية للاتصال بالقوى الميتافيزيقية التي لها الاثر الكبير في صنع التاريخ سواء جماعة او الفرد ، وذلك عن طريق وسائط متنوعة ، وهذه العراق كانت تختلف من وقت لاخر وحتى من منطقة لثانية . علما بان هناك ما هو خاص بالملك فقط والفقير وما الى ذلك . وما هذه الانواع كما سنرى ملاحظة الدخان المتصاعد من المبخرة ودوائر الزيت عند صبه في الماء

ورمي القرعة مثلا ان القرعة قد استعملت في العصر البابلي القديم لتقسيم حصص مقاطعة بين الورثة من الاولاد • (٣٥)

فاقدم النصوص العراقية الخاصة بالشجم والعرافة وصلتنا من العصر السومري حاملة عناوين امثال (اذا كانت مدينة على ارتفاع معين) و (عندما الاله آنو وانيل) و (اذا خرب او بنى إيقفور إيبوش) • وقد صور اوتو نايبتوم متبعا العرافة وكيف ان ملك سيار السومري أنمين دورانكي قد اعتقد بانه حصل على فنون الفأل ومعرفة المستقبل من الارباب (٣٦) ، فالعرافة بواسطة صب الزيت بالماء معروف منذ زمن اوروكاجينا ، اما الفأل عن طريق مخص كبير الحيوان المضحي فانه كان معروف على حد رأيهم منذ زمن الملك أنميلو أننا من ملوك ما قبل الطوفان • (٣٧) ولم يكن بجسم الملك انمين دورانكي اي نقص فلهذا من الامور الهامة في العراق القديم ان يكن العراق (البارد) خاليا من كل عيب جسماني حيث ورد في النص (العراق الذي من أب غير نقي ونفسه غير كامل الأعضاء أو الملامح كان تكن عيونه غير سليمة أو أحد اسنانه مكسور او غير كامل الأصابع أو ذا شكل مريض أو بدمله ، لا يمكن ان يكون حافظا لأوامر شماش وأادا (ارباب العرافة) • وعليه أن يمر بمدة طويلة من الدراسة والتحضر وان يكون حالق الراس تماما أو بشعر خفيف جدا حيث ورد في النص (الحلاق قد أكمل عليه عمله) وكانوا مرتبطين بالقصر وفي أية لحظة يستدعون اليه وكان عليهم تقديم القسم حيث نعرف عن وضعه في نوع من الشبكة • (٣٨)

وعرف الباروتي (العرافين) في لكش منذ أزمنة بعيدة وهم منقسمون الى اقسام متعددة حسب الانواع المختلفة للظواهر التي يلاحظونها • ففي زمن اورنانشة نسمع بان رأس البارو (PA. Azo) قد استنجد يأنكي لان يحصل على وحي منه حول بناء معبد كرزو • ونعرف ايضا ان في العهد الذي سبق اوروكاجينا اذا اراد الرجل ان يسقط قطرة من الزيت في ماء

لمعرفة ارادة الأرباب فيجب عليه ان يدفع خمس شقـلات من الفضة الى الاشاكو وشقل واحد الى الحاكم وشقل آخر الى الايكاللو الذي كرس نفسه لهذه المهمة • ونعرف بان الملوك كانوا يشاوروهم حتى فـي الامور التافهة احيانا • فعمو لهتانا مثلا قد اخذ نصحهم مرة في ارسال ارسالية من الحنطة • ومهنة البارو وراثية لانه يجب ان يكون (من نسل كاهـن وخارج من كاهن طاهر) • وعليه ان يلبس الملابس النظيفة في وقت اخذه العرافة ونعرف من الرقم البدائيـة الاولى من تعز ومن صور الاختـام الاسطوانية بانهم كانوا يؤدون واجبهم عراة الجسم •

فمن الطرق التي اتبعوها هي تلك الخاصة يفحص كبـد الحيوان الهضمي • فاعتبروا الكبد مركز الحياة والتي فيها يرى العراف ارادات الارباب كالمرآة • ويجب ان تكون الضحية لهذا الغرض ودنما ثمة عيب• ففي العنجر يقبل الاله نصيحة ويضع الموقد وعلى المنضدة خلف الموقـد اربع اواعي من زيت السمسم و ٣٦ رغيف وخليط من العسل والزبدوالملح• وبعد رش الموقد يمسك الكاهن بالشخص المضحي من يده ويقـرأ الدعاء التالي (فلان هلا يقدم لك الا ضحية في الصباح ، هلا يقدم نفسه امام عظمتك الملكية ، هلا يكن مسرا لعظمتك بفضل النعجة المتألفة من جلد أمل واقسام تامة) • ثم يأخذ الكاهن حصة الاله وهي الساق اليمني والكلي وقطعة من اللحم • وفي المتحف البريطاني كبد من الطين مقسم الى خمسين قسما توازي العلامات المختلفة (٣٩) • فبمطابقة لارباب مع الحيوانات يجعل الحيوان المضحي له قدسية ويكتب الصفات المرتبطة بالرب فتصبح روحي الاثنين متطابقة • فبملاحظة الحيوان من المحتمل ان نلاحظ خطط الارباب المستقبل على الارض • وهنا يمسح البارو جسمه بالدهن ويلبس الاردية الخاصة ويرتل الادعية الى شماش وأداد • فاذا كانت جميع العلامات طيبة ففي هذا الكفاية واذا كانت العلامات مشكوك فيها فيضمن خروف آخر• واذا استمرت العلامات النحسة فيذبح آنذاك خروف ثالث • وان انتفاخ

الجانب الايمن من الكبد علامة طيبة ، واذا كانت المرارة ممسكة بالكبد فمعناه (ن العدو قد امسك به) واذا كان الانبوب الكبدي طويل فمعناه حياة طويلة او عهد طويل • [٤٠] حيث عرف البارو العراقي القديم اقسام الكبد امثال قصبه الاعلى والأسفل و ائدتيه وانبوب المثانة والمرارةوانبوب الكبد وباب الكبد • اجزاء الكبد باسماء مبتدعة لمشابهتها الاشياء التي سميت بها مثل الاصبع والطريق والفم والقصر والباب والعرش الخ • فالعلاقات على الجانب الايمن طيبة وعلى الايسر نحسة ، بينما المثانةالمنتفخة معناه زيادة القوة وانخفاض انبوب الكبد وهبوط في القوة [٤١] •وتنص التعليمات بان (اذا كانت العلاقات الطيبة كثيرة والنحسة قليلة فان النتيجة طيبة) • وقد وصلتنا واحدة لاسر حدوث يسأل فيها عن صلاحية زواج ابنته من بارتاتوا ملك السيثيين وكانت نتيجة الفحص الأولغير طيبة ولكن الثانية كانت طيبة وبذلك زوج ابنته • [٤٢] ووردنا اول نص من نصوص فحص الكبد من العصر الكاشي وتلك لحمورابي دونما شروح وكلها تلك من مكتبة اشور بانبيال والعصر البابلي الجيد جاءت مليئة بالشروح • وان الظواهر الهرمية في الكبد سمية باصابع الكبد كان تقرأ (عندما يكون اصبع الكبد مثل رأس الأسد فان الخدم سوف يطردون الامير) و (واذا كان اصبع الكبد مثل اذن الاسد فان الامير سوف لا يكون له منافسين) و (اذا كان اصبع الكبد مثلراس الخروف فسوف يكونالامير ناجحا[٤٣] وكانوا قبل الدخول في معركة أو وضع اساس لعب او قصر او عقد معاهدة مع دولة اخرى او في حالة أزمة او وباء فآنذاك يؤمر الكهنةبفحص كبد خروف مضحى [٤٤] •

ثم الفأل المستند على تصرفات وطيران الطيور والكواسر الاخرى ، كأن نقرأ (اذا مر النسر من جانب الملك الايمن الى الايسر فان الملكسوف ينتصر اينما ذهب) • وقد وصلتنا الكثير من هذه في نصوص قوينجق، وهناك نص في المتحف البريطاني نرى منه ان هناك ستةانواع منالطيور

تحمل التنبأ وهي طير المالك الحزين IGirn وطير اليسوككو وطير الجبل (إصصور شيدي) والنسر (إيرو) ونسر الصيد (كاسسوسو) وطير مكسور اسمه : (اذابني مالك الحزين عشا .. فان الشخص سوف يكون فقيرا ... اذا رأى الناس طير جبل لم يره أحد من قبل في سوق المدينة فان موجة عالية سوف تقدم ... اذا صارت النسور تحوم باستمرار في المدينة فان المدينة سوف تحاصر ، واذا طارت النسور على طريق الجيش فسوف يحدث اندحار له . اذا امسك نسر بحمامة في شباك بيت رجل فان الشر سوف يدخل ذلك الدار ، اذا امسك نسر بسمكة او بطير ثم طلق بعيدا ثم اكل فريسته امام رجل فان هذا الرجل سوف يتعارض الى خسارة ، واذا أكل نسر حمامة فوق سقف بيت رجل ثم ينذ منها ، فان الرجل سوف يزداد ثرائه .... واذا حلقت نسور كثيرة في المدينة بنفس الوقت فان المدينة سوف تهجر) (٤٥) وان مراقب الطيور (داجيل إصصوري) كان عرافا (٤٦) لآرائه وزنها . وقد وصلتنا نصوص كثيرة مأخوذة من مراقبة الطيور اثناء طيرانها عثر عليها في حران (سليطان تيه) .

وهناك حيوانات اخرى غير الطيق استمد من تصرفاتها مختلف انواع الفأله ، مثل الحية خاصة حركاتها في شهر نيسان (اذا سقطت حية خلف انسان في اليوم الاول ـ ١٣ نيسان فان صديقه سيكون عدوه) (٤٧) و(اذا لمحت امضى رجل في بداية السنة ، في اليـوم الاول من نيسان او اليوم الاول من ايار وخلال النهار أو في الليل فان هذا الرجل سوف يموت في نفس السنة . اذا لمحته الافعى في اليوم الاول حتى اليوم الخامس عشر من شهر ايار فان ايامه تصبح قصيرة وسوف يلاقي اذى . اذا سقطت افعى خلف أو أمام رجل في شهر حزيران فستحدث له خسارة . اذا صادف رجل امضى في شهر شباط خـلال فصل البرد ، فان الناس سيبيعون اطفالهـم واملاكهم من أجل الفضة . اذا صادف رجل افعى في شهر آذار فان الظلمات سيغمرها الضوء) .(٤٨) و (اذا هاجمت حية انسان وامسكت به وعضتـه

فان عدو هذا الشخص سيصبه الاذى • اذا مرت حية من جانب الانسان الايمن الى الايسر فسوف يكون له اسم طيب • واذا مرت حية من جانب الانسان الايسر الى الايمن فسوف يكون له اسم سيء • اذا ظهرت حيـــة في مكان يقف به امرآة وزوجهـــا يتكلمان فانهما سوف يتطلقـــان ، اذا استمرت حية تحفر في بيت انسان ، فان ذلك البيت سوف يتهدم او يخرب) ويستمر نفس النص بذكر علامات فأل اسردت من حركات حيوانات اخرى غيرها امثال الكلب والنحل والحصان والثور والعقرب والثعلب وابوعرس (اذا قتلت عقرب حية في بيت انسان ، فان اولاد صاحب البيت سوف يقتلوه وسوف يموت • اذا قتل ابو عرس حية في بيت انسان فان هـــذا معناه وصول شعير وفضه • اذا سارت عقرب في فراش رجل فانه سوف يثرى • اذا وقفت عقربة على راس فراش رجل مريض فان مرضه ســـوف يتركه • اذا وطأ انسان دونما شعور على ام بريص وقتلها فانه سوف ينتصر على اعداؤه • اذا كانت النمل كثيرة عند مدخل البوابة الكبيرة فان هـــذه معناه سقوط المدينة • اذا كان النمل يقتل بعضه البعض ، عاملا معركـــة تعدم للعدو وسيكون فشل لجيش عظيم • اذا كانت هناك كثرة في النمـــل الاسود المحتج بمعناه كثرة مطر وفيضانات • اذا كان القرن الايسر الجاموس يبرز باستقامة اكثر من الايمن فان الا مطبل سوف يصبح واسعا • اذا كانت هناك دموع تخرج من عيني الجاموس فان الشر سوف يصل صاحب الجاموس • اذا ركب حمارا انسان فمعناه ان ذلك الرجل سوف يباع او ستصيبه ايام صعبة ••• اذا دخل حصان بيت رجل وعض حماره او رجلا فان صاحب الدار سوف يموت واثاث بيوته يتناثر ••• اذا ركض ثعلب في الساحة العامة ، فان تلك المدينة سوف تتخـــرب ، اذا صار الخنزير يصـــر باسنانه فان تلك المدينة سوف تتبعثر ، اذا حملت انثى الخزير وولدت ثلاث برؤوس بيضاء وذيول سوداء فان اثاث منزل ذلك الرجل سوف يرهن على فضة • اذا ••• رفع كلب ابيض ترد على رجل فان ذلك الرجل ســـوف يصادف اوقات صعبة ، واذا بول كلب أحمر على رجل فان ذلك الرجـــل

سوف يسعد . واذا اعتلى كلب على كلب آخر فان النساء سوف يكـن سماقيات ... اذا كان السمك كثير في الماء فان البـلاد سوف تحيـا بسلام ....) (٤٩)

وفي نص آخر تقرأ عن اشارات سحريـة اخرى تحملهـا الحيوانات والحشرات الخ ، (اذا دخل كلب أحمر الى المعبد فان الآلهة ستهجره،اذا وجد كلب مصطجع على عرش الملك فالقصر سوف يحترق ، اذا دخل كلب ابيض المعبد فان المعبد سوف يبقى عامرا لمدة طويلة ، اذا دخل كلب أصفر قصر الملك فالقصر سوف يهدم). (٥٠)

والطريقة الاخرى التي يلجيء لها البارو هي للزيت في وعاء للماء يحمله في حضنه كيما يعرف منها ارادة الارباب سواء بالنسبة للبلاد او الفرد وذلك بمراقبته لحركات الزيت بالماء سواء في علاقته مع السطح او مع حافة الوعاء . وقد وصلتنا ثلاث رقم من العصر البابلي القديم يظهـر انها لم تستنسخ ثانية بل اقتطف منها في نص آشوري (٥١) . فاذا كونت دائرة كاملة مثـلا وتحركت نحو الشرق فهـو فأل حسن واذا انكسـرت فسيء .(٥٢) وفي احد النصوص من سلالة بابل الاولى نقرأ (اذا كون الزيت حلقه واتجهت نحو الشرق وبقت غير مكسورة ـ فاذا كانت المسألة متعلقة بسفر فاني سوف اذهب بها وآكل جزء (آخذ حصة من الربح) وبالنسبة لمريض فسوف يشفى) و (عندما تتكون حلقتين ، واخرى صغيـرة فان الزوجة ستلد ولدا وسوف يشفى المريض ، وعندما ينتشر الزيت ويملىء الكوب فان المريض سيموت وسينتهي السفر بموت) (٥٣)

وان معلوماتنا مع الاسف عن فن العرافة المستندة على حركات الدخان المتصاعد من مبخرة يضعها البارو في حضنه قليلة جدا لا تلقى ضوء كافيا على اصوله وتعاليمه . فقد وردتنا عنه نص قديم من نعـز وآخر يعود سلالة بابل الاولى . (٥٤)

ثم طريقة الفأل بفحص أعضاء البــدن الداخلية الاخرى مثل الرئتين والقصبات الهوائية والامعاء والمثانة والمرارة والكلى • وتسمى طريقة اخراج والأحشاء للفحص باسم الأحشاء المطوية (إيرري ساخيروتي) • فمن شكل ولون وعدد الاحشاء وحالة القلب يستنتج العراف نتائجه واحيانا تظهــر الأحشاء وكأنها وجه مكفهر ويطلق عليها آنذاك اسم وجه خومبابا • ونقرأ مثلا (عندما تضم الأحشاء المرارة فانها علامة فأل ظهرت اسرجون الذي على قوة هذا الوحي أخضع عيلام وأحاطهم وقطع تجهيزاتهم [٥٥] • وفي نص حول الكلية تقرأ (عندما تكون الكلية اليمنى مخربة فان الامير سيموت) و (عندما تكون الكلية اليسرى مخربة فان اميرة العدو ستموت) [٥٦]

والى جانب هذه العلامات التي تظهر عند الولادة ، فان كان هناك شكل غريب في الرأس فيقولون ان المرأة ولدت أسدا • وهذا يقترح فكرة فكرة القوة وهي علامة طيبة للبيت والارض • واذا كان رأس مولود يشبه ذاك لحمار أو خروف فهو علامة طيبة ، اما اذا كان يشبه ذاك لكلب اوجه فعلامة غير طيبة • [٥٧] واذا كان للمولود اقدام بطة فسوف يصبح قويا اي ان قدميه عريضة ومليئة طينا تحمله من الارض • [٥٨] وقد اطلق على هــذه النصوص الفأليه اسم شومما إزبو على اسم اول عبارة فيها • وان الاربع رقم الاولى من هــذه السلسلة تسطر الى جانب المستمدة من الاطفــال المشوهين اخرا من ولادة اكثر مولود واحد او حوادث عند الولادة وبعض اشغال الافراد المجزة امثال العميان والطرش والمقعدين ، او كثرة التجــار او الطباخين أو العرافين بالمدينة وفي واحدة يذكر وجود نساء في المدينــة بلحى مثل الرجال • [٥٩]

ووردتنا مجموعة من نصوص الفأل المستمدة من البيوت حيث نقرأ (اذا كان تأسيس البيت في شهر نيسان فان هذا البيت لن يجلب الفــرح لصاحبه • اذا كان تأسيس البيت في النصف الثاني من شهر نيسان كــان حوادث الموت تكون متتالية فيه • اذا كــان تأسيس البيت في شهر أيار

فسوف تحدث كوارث فيه . اذا كان تأسيس البيت في شهر حزيران فسوف يعظم صاحبه . اذا كان تأسيس البيت في شهر تموز فسيكون نصيبه الكمال . اذا كان تأسيس البيت في شهر آب فسيكون لصاحب البيت أطفال . اذا كان تأسيس البيت في شهر ايلول فان الربة عشتار سوف تمهله في سلب ثروته . اذا كان تأسيس البيت في النصف الثاني من شهر ايلول فانه سوف يتهدم . اذا كان البيت في شهر تشرين الاول فان اله صاحب البيت لن يكلف عن حراسته . اذا كان تأسيس البيت في شهر تشرين الثاني فان استثار امواله سوف ينجح . اذا كان تأسيس البيت في شهر كانون الثاني فان صاحب البيت سوف يرض ويكون عليل الصحة . اذا كان تأسيس البيت في شهر شباط فان البيت سيظل بلا سقف . اذا كان تأسيس البيت في شهر آذار فسوف يحرز صاحبه انتصارا . اذا كان تأسيس البيت في نهاية شهر آذار فسوف يكون صاحب البيت سعيدا جدا) (٦٠) علما بان شهر نيسان خاص بالاله آنو وانيل ، أيار خاص بالاله أيا وشهر حزيران خاص بسن وشهر تموز خاص بنيتورتا ، وشهر آب خاص ننكيشزيدا وشهر ايلول خاص بالربة عشتار ، وشهر تشرين الاول خاص بشماش وتشرين الثاني خاص للاله مردوخ ، وشهر كانون اول خاص بزكال وشهر كانون ثاني شهر الاله بايسوكال وزير الاله آنو وشهر آذار شهر الآلهة السبعة العظام اما شهر آذار شهر الآلهة السبعة العظام اما شهر آذار الاضافي فهو شهر الاله آشور .

ونجد في سلسلة أنوما أنا بيت مارحي آشيبو !يلليكو عددا من نصوص الفأل المأخوذة على الشخص المريض منها (اذا رأى الآشيبو)في الطريق الى المريض جرة موضوعا فهذا فأل يهب . واذا وجد منقلة فان المريض سيمون . اذا رأي خنزير اسود فان المريض سيمون ، اذا رأى خنزير ابيض فسوف يعيش المريض . واذا رأى خنزير يذيل واقف فان المريض لا يخاف شيء اذا رأى رجل أعمى فان مرضه سوف يزيد ، اذا سار

صقر الى جانبه الايمن فان المريض سيشفى . اذا كان نسر يسير على جانبه الايسر فان المريض سيموت . اذا نبح الذئب الى يسار الرجل فان المريض سيشفى واذا نبح الذئب عند الفجر الى يمين الرجل فان المريض سيموت. اذا وقفت حية على فراش المريض فانه سوف يشفى . اذا وقعت حية على فراش المريض في اليوم الثالث فسوف يموت . اذا وقعت حية على المريض نفسه فان مرضه سوف يطول ولكنه سيشفى (٦١) .

وهناك نصوص فأل مستمدة من امور كثيرة غير ما ذكرنا امثال تلك المستندة على ملاحظة خيول عربات الملك لمختلف انواع الفأل الخاصة بالبيت المالك .

التنجيم : بالواقع ان التنجيم والتنبوء عن المستقبل اتى متأخرا في تاريخ العراق القديم ولو ان البروج اليونانية الاثنى عشر ما هي الا تحوير للرموز البابلية الاولى . فاقدم خارطة لبروج السماء Horoscope ترجع الى حوالي سنة ٤١١ ق.م. وربما تعود مجموعة عندما آنو وانيل الى العصر السومري بدليل ذكرها تقيم العالم الى اربع اقسام (اكد ، عيلام ،سوبارتو وعيلام) والذي لا نجده في العصور التالية وذكرها للملوك امثال ريموش وابي سي والحيثين والأخلامو ، علما بان اضافات قد كفت بها في العصور التالية . فكانت الزقورات تستخدم في العابد لملاحظة الكواكب ، وكان في المعابد ايضا غرفة خاصة للنجمين تسمى بيت تامارتي (بيت المراقبة) حيث تقرأ مثلا (في اليوم ٢٩ من الشهر راقبنا القمر انه يوم تتلبد بالغيوم لم تر القمر فيه . وان المقالة السابقة (انوما آنو انيل) جاءت في اربعة فصول خصصت الى الحركات الفلكية والشمس والزهرة (فينوس ،عتار) وأداد . وتشرح معنى حركة النجوم ومواضعها في السماء والاضطرابات الفضائية (٦٢) .

وطابقوا المشتري مع مردوخ والزهرة مع عشتار ومارس معمزكال

والمريخ مع نابو وزحل مع الاله ننورتا ، واعتبروا بعضهـا نحس وآخـر حسن الطالع مالحريخ يرمز للذكاء وزحل حسن الطالع ومارس سيءالطالع وما الى ذلك •[٦٣] فالابراج الاثنيعشر لها اسماءها فالحمل (Kn,Sarikkn Inmisara كو ، ساريككا ، إنمي سارا) والثور (Te-Te,Gud-Anna والجوزاء (تواما) والسركان (يوموككو ، أللول) والأسـد (آرو ، اورماخ ، اوركولا) والعذراء (شـيرو ، ديلكان) والميـزان (زيبانيتو) والعقرب (أقرابو)، القوس (با ، بابيلكاك) والجدي (أنزو) والدلو (كو ، كو أننا) والحوت (نونو ، نون شامي (؟) •[٦٤]

فالقمر غالبا ، اول الكواكب التي راقبها العراقي القديم لقربـة من الارض وتغيراته الملحوظة والاعتيادية علاقة في ذلك • فهناك الكثير من نصوص الفأل المستندة على القمر وحركاتـه واشعالـه وخسوفه وعلاقته بالشمس الخ • تتوأ :

اذا ظهر القمر في اليوم ٢٧ كما في اليوم الاول فهو شؤم على علام• وفي اليوم ٢٨ فهو شؤم على عمورو •

اذا ظهر الشمس والقمر سوية في اليوم ١٢ فمعنا ،نهاية حكمالسلالة، خراب للرجال وان السارق سوف يقطع الراس •

اذا ظهر الشمس والقمر سوية في اليوم ١٣ فمعناه عدم استقـرار والتجارة سوف لا تزدهر في البلاد •

اذا ظهر القمر الشمس والقمر سوية في اليوم ١٤ فمعناه رجاءوالبلاد سوف تكون سعيدة وتنظر الارباب لأكد بسعادة والنهوض يستبشرالناس وتنام القطعان بسلام في حقول بلاد اكد •[٦٥]

وعندما يكون القرن الايمن من القمر عند ظهوره طويلا وقرنه الايسر قصراً فان الملك سوف يغزو بلادا أخرى •

وعندما يكون القمر كبيرا عند ظهوره فان خسوفا سوف يحدث واذا كان لامعا جدا عند شروقه فان محاصيل البلد سوف تنتعش .

وعندما يظهر القمر في اليوم ١٣ من تموز فسوف يحدث خرابا في البلدان .

وعندما تكون (شاورو) لامعة جدا فان الملك اكد سوف تنتهي اعماله .

وعندما يكون القمر كاملا عند شروقه فان الملك سوف يزداد علواء .

وعندما ظهر القمر في الاول من كسااليف فان ملك أكد سوف يـدمر الاراضي .

عندما يختفي القمر فسوف يقع شر على البلاد .

عندما يكون القمر غير مرأي مع وجود هلاليـن (ظاهرين منـه) فستكون عداوات في البلاد .

عندما تقف الشمس ضمن هالة القمر فسوف تتكلم البلاد جميعهـا الصدق . وعندما تحيط الهالة القمر والسرطان يقف ضمنها فسوف يطول عمر ملك أكد .

عندما تحيط هالة بالقمر وفي وسطها المشترى فسوف تغزو البـلاد جيوش أخاررو .

عندما تحيط هالة القمر وفي وسطها مارس وكرت موت في القطعـان ولا تنجح زراعة النخل .

عندما تحيط هالة بالقمر وفي وسطها زحل ويكون كلام الصدق في البـلاد .

عندما تحيط هالة بالقمر وفي منجم وسطها فان جيوش الملك سوف تحـاصر .

اذا احاطت هالة كبيرة بالملك فان طراب عظيم سجل بالبلاد •

عندما يظهر القمر في اليوم الذي تتوقعه فسوف تنخفض (اسعار الاسواق) •

اذا ظهر القمر والشمس في يوم ١٣ فسوف تكون البلاد في هدوء ، اما في اليوم ١٥ فان عدوقديم سوف يشهر سلاحه ضد البلاد •

عندما يكون ظهور القمر مصحوبا بهبوب ريح جنوبية فسوف يكون ذبح ٤ اخاررو •

عندما لا يرى الشمس مع القمر في يوم ١٤ أو ١٥شباط فمعناه فيضان عظيم • وعندما لا نرى القمر مع الشمس في ١٤ آذار فخراب الاور (٦٦) • وخسوف القمر فأل سيء (لقد عين أنيل كل من سن وشماش وعشتار ليسيروا السموات بالطريق الصحيح ولكن الشياطين السبعة أحاطوا القمر وبذلك جروا عليه الخسوف • فرأى انليل كرب سن فارسل فارسل رسوله نوسكو لاخبار أيا بذلك فعرف بالموضوع • وعندما سمع أيابذلك في المحيط امتلأ فمه حزنا • وعض شفتيه) • ويعتبر خسوف القمر خير مناسبة للقيام بطقوس لحماية المدينة من الشرور المتصلة بهذه الظاهرة • وفي يوم خسوف القمر يضع كهنة معابد تيرانا مذبحا (كاراككو) في باب معبد اربابهم • وعندما يتلاشى ضوء القمر يصيحون بان لا يقترب القتل والثورة والمصائب والخسوف الى الوركار • وكان الكهنة في يوم خسوف القمر يخرجون الآلات الموسيقية من المعبد وذلك لزرع الأمان وعدم الخوف والقلق في نفوس الناس خلال تلك الازقة والكلام غير الاعتيادي • ويدقوا على الطبل الصغير (ليليسسو) ومن الالات التي يخرجوها البوق (الخالخا لاتو) والعود المقدس (ايرشيما) • والوان القمر في الخسوف مهمة وتكون مصادر للفأل •

ووردتنا الكثير من الفؤول المستندة على القمر في الرسائل الملكية من

العصر الآشوري المتأخر • فظهور القمر باول الشهر عندما يكون النهار طويل هو فأل طيب عندما يظهر القمر باليوم الاول فان قلب البلاد سيكون مسرورا • وعندما يكون اليوم بالنسبة لقياسه طويلا فسيكون هناك حكم طويل وعندما يكون القمر عند بزوغه كأن يحمل تاجا فان الملك سوف يصل عنفوان مجده (٦٨) • وظهور القمر في نيسان مع الزهرة اعتبر فألا طيبا ايضا (عندما تظهر الزهرة في بلاد بابل مع القمر في شهر نيسان او اي يوم لا يتقرب فيه فانه بنفس الوقت فأل حسن) • (٦٩) وفي رسالة اخرى تقرأ (اذا ظهر القمر وكان العقرب قرب قرنه الايمن فان الجراد سوف يعبث طوال السنة ويأكل محصول الحصاد وسوف يقتل ملك علام وينتهي حكمه ويأتي عدوه ضده وينهب بلده وسوف يقع في يد الملك صولجان عظيم ويطول حكمه واذا اعتدى عليه عدو فسوف يقهر) (٧٠)

وترينا الفؤول من الرسائل الاشورية كون التفاؤلات من الشمس كلها معادية فالكسوف شر وخروج ما يشبه الدخان من الشمس عند شروقها بالربيع نذير شر حيث ان اداد سوف يغرق البلاد وعندما تصعد الشمس في مدارها فمعناه الحرب • (٧١)

وتقرأ ايضا في نصوص اخرى مع ان احاطة الشمس بهلة معناه سقوط المطر وعندما تقف الشمس في محل القمر فان الملك سوف يستقر على عرشه • (٧٢)

ثم التفاؤلات المأخوذة من حركات الكواكب المختلفة حيث تقرأ مثلا (عندما يقترب العقرب من امام القمر ويقف مان الملك سيطول عمره وان عدوه سوف تقدم عليه • وعندما يظهر المريخ لمدة شهر طعناه فيضان ومطر • وعندما يظهر المريخ في شهر ايلول فسوف تنشط حركة السوق وتصعد اسعار المحصولات • وعندما يقترب مارس من القمر ويقف فان القمر سوف يسبب شر الى سكان البلاد • عندما يقترب مارس من العقرب فسوف يموت الامير بلدغة عقرب ويأخذ اليه العرش بعده (٧٣)

وفي الرسائل من العصر الاشوري المتأخر نقرأ عن علامات فأل طيبة تتحصل من مركز المشتري عند ظهورها في طريق آنو وانليل ، وبرسالةتقرأ عن مقابلة المشتري للكسوف الشمسي وكونه فأل طيبللملك ويتوقف الباطل في البلاد ، وعندما يكون المشتري خلف القمر فسوف يكون هناك عداء في الارض • (٧٤)

وتقرأ عن النقمة لظهور المريخ (ان ظهور المريخ سوف يتم قريبا ، ستأتي نقمة عظيمة ان الاله اداد قد فتح فمه) (٧٥) ولعب زحل دورا ثانويا رؤية الزهرة ، اما بشارة خير على الدوام واذا كانت الزهرةمرتبطة مع ظهور القمر في نيسان فهو فأل طيب ايضا (٧٦)

والتفاؤلات المأخوذة من الرعد والبرق والمطر والرياح • (فاذا أسمع الاله أداد صوته للكل في عيد نيسان فان العدو سوف يوقف اما اذا كان بتموز فان الزراعة سوف تزدهر) • (٧٧) فاهمية الرعد تعتمد على الشهر الذي سمعت فيه (اذا سمع الاله أداد صوته في شهر آذار فان البلادسوف تثور على الملك وعندما ترعد مثل الكلب الكبير فان الشبيون سوف يهجمون) • وعن البرق (اذا كان هناك برق ليلا في الجنوب فان أداد يسبب فيضانات ، اما اذا كانت بالليل في الشمال فان اداد سوف يسبب فيضانات في بلاد الكوبتين) • واهمية المطر تعتمد على يوم حدوثه من الشهر ، وظهور قوس قزح في المدينة فسر كفأل طيب على المدينة نفسها والملك والنبلاء •(٧٨) وتقرأ عن العواصف انها مقرونة بالتفاؤلات الحسنة على الدوام (٧٩) وفسرت الريح الجنوبية كفأل حسن لانها فعلا تحمل دوما المطر في العراق بينما فسرت ريحالشمال كفأل سيء لانها جافةفيالعراق(٨٠) واعتبرت الزلازل تفاؤلات سيئة نحسة حيث تقرأ (عندما تهز الارض طول النهار فسيكون خراب للارض وينهب العدو الارض • وعندما تكون هناك هزة أرضية في نيسان فتتكون هناك ثورة ضد الملك وعندما تكون هزة العدو سوف يهجم ويجلس على العرش أمير جديد) (٨١) • و (عندما

تحفز الارض طول النهار فان الأمير سوف يحمل بعيدا) . (٨٢) واعتبروا ولادة الخنثى (السينيشتو اوو زاكارو) فأل سيء ليودي بالقبض على الملك . (٨٣)

واعتبرو بعض الايام نحسة واخره طيبة حيث نقرأ في احدى الرسائل المرسلة الى الملك الآشوري ما نصه (عن الأيام الحسنة التي تكلم عنها سيدي الملك هي اليوم العاشر ، الخامس عشر ، السادس عشر ، الثامن عشر ، العشرون ، الثاني والعشرون ، الاربع والعشرون، السادس والعشرون كلها ثمانية ايام في شهر ايار وانها حسنة للسؤال وعبادة الارباب ، ومنها اليوم العاشر طيب للمحاكمة والخامس عشر للحرب والسادس عشر لواحة القلب والثامن عشر لمعرفة المستقبل وليقتل ثعبانا في اليوم العشرون واليوم الثاني والعشرون طيبا للسفر والرابع عشر لالتماس الاله والطلب منه (٨٤). واعتبروا شهر ايلول حسنا واليوم الثاني منه يوم طيبا لأخذ الفأل حيث كانوا يراقبون الطيور من على سطح المعبد (٨٥) .

الذنب : ونقرأ في النصوص الطقوسية كالأدعية والرقي والتي منها سلسلة الشوريو بان مختلف الاسباب لدخول المرض الى الانسان وغضب الارباب هم تنائج ذنب الشخص . ففي نص تقرأ عن اسباب الذنب التي وضعت على شكل أسئلة (هل انه أذنب ضد الاله ، هل ان جريمة ضد ربه هل هو عمل خاطيء ضد سيده ، او كره ضد أخيه الأكبر أو ارذري ابا واما ، أو أهان اخته الكبرى ، هل اعطى قليلا تملك كثيرا ، هل قال لا لنعم ، نعم للا ؟ هل استعمل أوزانا مزيفة ؟ او أخذ ما ليس له دون اخذ حقه ؟ هل وضع حدا مزيفا أو أزاد حدا .. هل استحوذ على زوجة جار له ؟ هل سرق لباس جاره ؟ هل انه صريح بكلامه ولكنه كاذب في قلبه؟ هل يقول نعم في فمه ولا في قلبه) وتذهب القائمة الى تعداد اكثر من مائة ذنب دعي مردوخ لتخليص صاحب الدعاء منها . وهذه دون شك ما اعتبره العراقي القديم ذنوبا ولكنها ربما وصفت في عصور متأخرة

عندما ظهرت هناك مبادىء عليا للحق والباطل • ولكن المزج بين المبادىء الخلقية والطقوس المقدسة هي ميزة بابلية وآشورية • فالدعاء الى عشتار والتي يسأل المتعبد فيها الربه لان (تعفو عن ذنبي ••• واعمالي المخجلة وذنبي وتصفح لي عن ذنبي وتتقبل دعائي) وينتهي بصب الماء الطاهروحرق الاعشاب الذكية الرائحة وبعض الأضاحي • ثم الدعاء (الذي اقترفته حواله الى طيب ، والاعتداء الذي عملته اجعل الريح لتحمله بعيداً ، لقد نزعت عني ذنوبي كما اخلع الرداء ، ياربي ان ذنوبي سبع مرات سبعة انزع عني ذنوبي) •

واعتقد العراقيون القدماء باحتمال ترك الارباب المدن (كما يعتقد الصائبة في العراق اليوم يترك الارباب الماء خلال ايام عيد الكرصة لذا يغدو الماء غير صالح لاي استعمال لخلوه من عنصر الطهارة) نتيجة اقتراف مكانها ذنوبا لذا فتعلن حالة الحزن العام بطقوسه المعروفة منذ اقدم الازمان وفرض على الناس فيها احيانا الصوم وطقوس السحر الحزينة (٨٦) ويتكلم الملك في مثل هذه المناسبة عادة وينطق الحزن بلسان شعبه على الكثير من الأدعية والتعاويذ والالتزامات المرفقة • وفي الكثير من الأحيان نسمع الفرد بدعائه يستنجد لان يعرف ذنوبه (لا أعرف الذنب الذي ارتكبته ولا الخطأ الذي اقترفته) ويظهر منها بان أقل الأشياء التي قد لا يعرفها الشخص ربما تجد عليه غضب الرب • ونقرأ ايضا من قصة ايوب البابلي بان ما قد يكون خيرا في عين الانسان ربما يكون شرا في نظر الله وبالعكس •وهذه تؤيد القول بكثرة الامور التي قد تجلب غضب وسخط الارباب على الفرد • (٨٧)

وبوسط ما تصور الانسان نفسه محاطا بشتى انواع القوي المؤذية التي تهاجمه بنتيجة اقترافه شتى انواع الذنوب فقد حمى نفسه لنظام يكن من الطقوس والتطهير والغفران والسحر والعرافة مركزة كما أسلفنا حول مدينة اريدو وربها أيا ، المدينة الطيبة كما عرفها البابلي حيث مركز

وهي أيا وحيث الشجرة كيشكانو المقدسة في ذلك الربع الطاهر (الانكوررا) كما اوحي لأداء الانسان الاول وملك أريدو الكاهن . ومن مياه هـذه المدينة تكونت السيبتو (Siptu) اي لعنة الكفارة والتي أهم رقيـة في السحر . (٨٨)

وان الاله الحامي في نظر العراقي القـديم هو المسؤول عن الذنوب التي يرتكبها الفرد . فكاتب لكش عندما يندب خراب مدينته وانكسار اروكاجينا تقرأ قولـه (ليس هناك من ذنب ارتكبه اوروكاجينا ، هـلا تتحمل الربه نيسابا ذنب لوكال زاكيزي على رأسها .) وعندما يغضب الرب الحامي عن عبده ينسحب عن حمايته ، بالطبع نتيجة اقتراف الفرد ذنبا ، وآنذاك تنقض عليه العفاريت . حيث اعتقدوا بان الرب يعيش طيلة مـدة حمايته لعبده في جسمه . وتقرأ (فالذي لا اله له تدخل جسمه العفاريت جالية معها الآلام والأحزان) (أن الذي لا اله له فان وجع الرأس يغطيه كالرداء عند سيره في الشارع) ، ولأجل ان يرجع الى حالته الاولى الاعتيادية فيكون ذلك عن طريق السحر والاضاحي وطقوس التطهير . (٨٩)

الأحلام : اعتقد العراقي القديم بان ما يراه الشخص في حلمه عبارة عن حدث سيقع عليه . وعلى الفرد ان يجتهد بالحصول على من يفسر ذلك الحلم له . والمفسر للحلم آنذاك يجب ان يكون ذا اتصال بالأرباب نفسها عن طريق الكهنة ذوي الاختصاص (السقالو ، السقاليتو) . او كما في حالة كلكامش الها آخر يعرف نوايا اخوانه الارباب واسرار المستقبل . والاحلام ترسل من الآلهة نفسها الذي يتمكن من ان يرد شرورها بالالتماس الـى الأرباب نفسها بالدعاء الخاص . ومن الأدعية المعروفة في العراق القـديم بهذا الخصوص الدعاء التالي الذي يخاطب به الشخص الحالم الهه قائـلا (وعن الحلم الذي تعرفه أنت ولا أعرفه أنا ، فان كان طيبا فلا تحرمني من طيبة وان كان سيئا فلا تجعل شره يصلني) . وكثيرا ما كانوا ينظرون الى الأحلام كحوادث حقيقية واقعة . ولنا من الفلكي البابلي بيـل ادانو

من العصر الأخميني خير مثل حيث دون رؤيته باحلامه النجوم Bel-Idannu وكواكب مختلفة خمسة مرات خلال ثلاثة اشهر (مع تواريخهم) كحقائق ثابتة . وهناك نص من العصر الكاشي عثر عليه في مدينة نفر يحوي على سلسلة من الخبرات لوحظت جميعها في الأحلام .

فالأحلام التي اتتنا من العراق القديم بصورة عامة سواء مفسرة ام لا يمكن تقسيمها الى ثلاثة اصناف هي :

١ ــ أحلام تظهر بها الأرباب ارادتها والتي تحتاج أو قد لا تحتاج الى تفسير .

٢ ــ أحلام تعكس لنا وضع الشخص الحالم العقلي وسلامته الروحية والجسمية .

٣ ــ أحلام تنبؤية .

وان غالبية الأحلام التي وردت الينا هي من النوع الاول والتي قسمت الى نوعين إخبارية ورمزية . ونلحظ بان الأحلام الاخبارية (سواء كانذار أو أمر الهي) قد وضعت في عبارات مفهومة واضحة لا تحتاج معها الى أي تفسير . فينادي الاله الشخص الحالم باسمه (حيث يكون واقفا عند رأسه جميل الشكل وبحجم غير طبيعي) ويملي رسالته عليه . اما العملية الرمزية بحد ذاتها فهي وظيفة تدل على صلة مع العالم الخارجي حيث ان حدود الانسان التفكيرية دائبة الحركة تمتد الى ما هو أعمق من ظاهر غلافه الخارجي . ونجد في ملحمة كلكامش التأكيد على اطاعة الوصايا والرسائل التي تحملها مثل هذه الأحلام . فعدم اهتمام كلكامش لانذار أتاه في حلمه مرة يعود الى اقناع انكيدو له بذلك . وعندما أصر أنكيدو على كلكامش بعدم الالتفات لانذارات الرب الجبل نزل على أنكيدو نفسه العقاب بان اصيب بمرض غامض أدى اخيرا الى وفاته . فرويت لنا الكثير من الاحلام من العراق القديم حلها الملوك والامراء وبعض الأفراد التي ظهر صدمتها

فيما بعد حسب رواياتهم ، فاتى الاله أيا الى اوتونايشتوم في نومه واخبره بنبأ تصميم الأرباب على وجوب معاقبة البشر بطوفان كرم واعطاه الاوامر في بناء الفلك وساعة فوران التنور • وقبل ان يقابل كلكامش صديقه انكيدو كما تروي الملحمة كان قد رأى حلما فسرته اليه امه الربة ننسون يقرب تعرفة على صديق سيكون عزيز عليه • فقد رأى سقوط شهاب من السماء عليه ثقل عليه رفعه وعندما اجتمع الناس من اوروك حوله انحنى هو عليه ورفعه وجعله نظيرا له) • وفي حلم ثان رأى كلكامش ان قد عثر على فاس غريبة المنظر في اوروك • وفسرته له امه بقرب تعرفه على رجل سيكون له صديقا يعينه بالضيق • ففي البداية نرى الاحلام في ملحمة كلكامش تفسرها ام كلكامش من بعدها يحللها له انكيدو وبعد موت الأخير صار كلكامش نفسه يفسر أحلامه • (٩٠) •

فتتميز الأحلام بتكوين لا شعوري للحلم واستخدام شعوري للغرض الذي يقصده الحلم حسب التفسير • وهي دون شك تحمل قارئها على تصديق أحداث لا تعود بالواقع الى الحياة اليومية المألوفة • فليس من المعقول لبطل الوركاء وهو القوى الشجاع ، حسب ما تصفه الملحمة ، ان يتحداه بربريا ساذجا ومن ثم يرتبط به مدى حياته • ولهذا الارتباط أهمية ولأجل ان يجعله مقبولا استخدم الكاتب وسيلة الحلم ــ وجعلت الأحلام العلاقة بين كلكامش وأنكيدو محتملة • ولكن عندما فقد كلكامش انكيدو وصلت الأحلام الى الحد الذي كشفت به عن العالم الآخر • ولهذا فانها ليست فقط قد تنبأت بالموت ولكن كشفت العالم الأسفل • فشخصيات ملحمة كلكامش حسب ما يظهر تكشف عن خيرة حلمية صحيحة • فالجبل الذ تهاوى وظلام النهار وشخصيات العالم السفلي هي في الواقع رؤى يمكن ان تظهر للحالمين • (٩١) واخبرنا كايتي ايلاني مردوخ (موا) ١٧٢٨ ــ ١٦٥٨ ق•م) بان الاله إيشوم قد أفصح له عن قصيدته بايرا •(٩٢)

واخبرنا جودية بانه استلم الأمر باعادة بناء الاي ــ نيننو ، المعبد

الرئيسي في لكش ، في حلم وبعد ان قدم الأضاحي الى نينكرزو والربه، تومدوك ونينا خاطب الاخيرة بدعاء منه (••• ايتها الام ، مفسرة الاحلام، ففي منتصف حلمي ، رأيت شخصا ، تصل قامته السماء والارض وعلى رأسه التاج ، انه اله وعلى جانبه الطير الالهي الامكيك ، وعند قدميه الصاعقة وعن يمينه ويساره يجلس اسد ، أمرني إن البني بيتي • لم اعرفه ولكن الشمس خرجت من الأرض ، وطلعت منها امرأة في يدها القلم ولوح نجمة السحوات الطيبة •••وظهر رجل اخر يحمل في يده لوح من اللازورد، واضعا خطة معبد وضع (بعدها)امامي •••) •وكان تفسيرها عن كونه الاله الذي تصل قامته السموات والارض هو نينكرزو ، والشمس الخارجة هو نينكيش زيدا وحاملة القلم نيسابا والأخير هو الاله نيندوب •[٩٣]ومن قبل نقرأ عن حلم !يانانا توم أنسي لكش عند هجوم جيوش مدينة اوما على مدينته • فقد وقف الاله نينكرزو في الحلم عند رأسه واخبره من ان الاله بيار سوف يسير الى جانبه واوعده بالنصر [٩٤] • وكان حكام المدن الخاضعة لمدينة ماري يكبتون الى عاهلهم ما يرويه الأفراد لهم من أحلامهم مما يعتقدون بارتباطه بمستقبل المملكة • ثم حلم كوممايا Kummaya ذلك الأمير الاشوري الذي وصف لنا ما رآه في رحلته التي قام بها اثناء نومه الى عالم الأموات • فقد رأى ملك الموت برأس تنين ـ افعوان بيدين بشريتين ، وشاهد فركال على عرش ملكي وتشفع له عند الاخير الاله ايشوم فركال الشفيع • [٩٥]

ووصلتنا من العصر الآشوري المتأخر نصوصا تدون الكثير من الاحلام المهمة • ففي رسالة بكت ملردو رشوم ـ اوصور الى الملك آشوربانيباب ما نصه (في حلم قال الاله آشور الى (سخاريب) جد سيدي الملك ، ايها الحكيم ، الملك ، سيد الملوك ، نسل الحكيم وادايا • لقد فقت في معرفتك أيسو وجميع المهرة • وعندما ذهب والد سيدي الملك (اسرحدون) الى مصر • رأى (في الحلم) لمنطقة حران معبدا من خشب الارز وفيه الاله

سن متكئا على عصا بتاجين على رأسه وامامه الاله نوسكو • فدخل سيدي الملك ووضع (الاله) التاج على رأسه وقال له ستذهب الى الاقطار ، و (ستغزو) •[٩٦] واخبرنا الملك بنونيذ بانه قد رأى حلما ظهر له به الارباب مردوخ وسن ، اخبره الأول ان يهيء الطابوق ليبني معبد حران ويعيد سن الى عرشه السابق •

أو حلم اله نفسه مثل حلم دموزي [٩٧] • وفسرت أخته كشتين أننا Geshtin Anna حلما له كفأل يعلمه عن قرب موته ونصحته بان يجتهد على اخفاء نفسه من العفاريت • [٩٨]

ومن ارباب الأحلام في العراق القديم كان الاله زاقيقو Zaqiqu والرية مامو Mamo أو ماخير Makhir وهي الرية التي كان لها مزار في بلاوات • ثم زاكار Zakar الذي اعتبر رسول الاله سن • وقد اطلق على شماش اسم رب الأحلام (بيل بيري Bel Biri) •

ووصلنا رقيم حوى تفسير ليضع أحلام نستنتج منها بان كايت الرقيم (ان كان هو المفسر) قد فسر العكس مما هو تعارف عليه كتفسير المظواهر التي يراها الحالم • فالمعروف على سبيل المثال ان الحجة اليمنى كانت هي الحسنة ويكون فألها بذلك حسنا وكذلك الجبهة العليا ولذلك صرنا نسمع في التفسير اعتباره الحجة اليسرى اتي رآها الحالم حسنه والسفلى هي الطيبة حيث نقرأ (اذا نظر نحو يساره فانه سوف يدحر العدو ، اذا رجفت عينه اليمنى فسوف يظهر عليه مرض ، اذا رجفت عينه اليسرى فسوف يفرح فؤاده ، اذا عض لسانه من اليمين فسوف فسوف يعارض بعداوة واذا عض لسانه من اليسار فسوف ينشرح فؤاده • اذا عض شفته العليا سوف يكتظم • اذا عض شفته السفلى سوف ينشرح • [٩٩] والمعروف ان الارض اعتبرت عند العراقيين القدماء مصدر الظلمة والسماء مصدر النور ولكن صارت رؤية الارض في الحلم الذي رواه • الرقيم حسنا (على العكس)

والسماء طيبا (اذا نظر الى السماء سوف يأتي له كرب • اذا نظر الى الارض سوف يحصل له سرور) ونقرأ في نفس الرقيم ما قد نستنتج منه اعتماد المفسر على الارتباط المنطقي حيث ورد (اذا مسكه رجلا أحدبا فان لعنته سوف تنصب عليه • اذا مسكه رجلا أحدبا من انفه وكاد ان يخنقه فسوف يأتي له عار [١٠٠] • فالأحدب نظر اليه في الغالب كرجل لم تمنحه الأرباب شكلا مقبولا وهيئة حسنة فلهذا صارت مسكته في الحلم تجلب لعنة الآلهة وسخطها • ونقرأ أيضا (اذا كان يحمل بيرة في الشارع فان قلبه سوف ينشرح • اذا كان يحمل ماء في الشارع فان ذنوبه سوف تكفر) • [١٠١] فشرب البيرة يجلب الانشراح والماء دون شك نظر اليه كعنصر بل ومقدس • و (اذا كان ماسك قوسا في يده فلسوف يحصل على غنمة) فالقوس هو آلة حرب فمن الطبيعي ان نجده مقرونا في الحلم تبعا للارتباط المنطقي مع الغنيمة • وفي الشطر التالي نجد مزجا بين الارتباط المنطقي والعكسي حيث جاء (اذا كان ماسكا بقوس ، في يده ثم سقط منه على الارض فسوف يحصل على غنيمة له شخصيا [١٠٢] • وقد أتحفنا الاستاذ أ • ليو اوينهايم بترجمة لكتاب الأحلام الاشوري الذي يعود زمنه الى العصر المتأخر • فاذا قرأنا الاحلام المدرجة في الكتاب نجد ماهو شاذ وغريب بينها • فالواح كتاب الاحلام الاشوري الاحدى عشرةوربما الاثنى عشرة كانت جزء من مجموعات مكتبة الملك اشوربانيبال • وهي مكونةمن حوالي ثمانين قطعة تدور حول تفسير الاحلام • وان الاول والاخير من هذه الالواح تشمل على ادعية وتعاويذ وطقوس الفرض منها طرد عناصر الضر والشرور المذكورة في الالواح المتبقية اي من اثنين الى تسعة •اما الألواح التسعة السالفة الذكر والتي ينقصها اللوح السادس الآن فقد اعطيت عناوين مختلفة مثل الاله زقيقي رب الاحلام للوح الاول و (اذا صنع رجل في حلمه بابا) للوح الثالث و (اذا كان رجلا مرتديا الفضة) للوح الرابع و (اذا رأى رجلا في حلمه الاله انليل) للوح الثامن و(اذا دخل رجل من البوابة الرئيسية لمدينته) للوح التاسع و (اذا نام رجل على

جانبه الايسر وكان حلمه مشوشا) للوح العاشر و (اذا كانت أحلام الرجل مرتبكة) للوح الحادي عشر (١٠٣) •

ففي القسم الاول من اللوح الثالث نقرأ عن البناء والعمل في الحياة اليومية • فرؤية رجل لنفسه ان يضع بابا ماكرسيا ، سريرا ، مصطبة، منضدة أو قاربا فان تفسيرها ان عفريتا سيتجه اليه • واذا رأى في حلمه انه يعمل بشغل ليلي فان الهه الحامي سوف يجرده من ثروته ، او سراحا فان ثروته ستتضاءل او في عمل قامع ختم الكاهن الاعلى الاسطواني فان ابنه سيموت • (١٠٤) ويمكن ان تؤخذ هذه كشكل نموذجي لتفاسير الأحلام الأولية وذلك لوجود التكرار الكثير والنمطية في التنبؤات مع ظهور عبارات متعارف عليها • وهذه جعلت الاستاذ اوينهايم يستنتج السبب بقلة الاهتمام في تفسير الأحلام عند الناس آنذاك نظرا لاعتمادهم الأكبر على العرافة ونتائجها • ويظهر من النص الفائت ان المؤلف قد ربت الحرف في تسلسل منطقي حيث ان تفاسير الأحلام فيها كانت سقيمة وتختلف درجة تعاستها من واحد لآخر من ناحية ولا بد وان تكون حرفا ذات منزلة واطئة اجتماعيا • وفي اللوح السابع نقرأ رؤية الرجل لنفسه في الحلم (اذا توسعت بولته امام عضوه التناسلي و (شملت) الحائط والطريق فانه سوف يرزق باولاد • أما اذا توسعت بولته امام عضوه التناسلي وسجد امامها اجلالا فانه سوف يرزق بولد وسيكون هذا الولد ملكا واذا تبول على حائط (••• مكسور •••) فسوف لا يكون عنده اولاد • واذا تبول على قصب صغير فسوف لا يكون عنده أولاد • واذا (••• مكسور •••) بولته يقدمه فسوف يموت ابنه الاكبر • واذا غسل يديه في بولته فسوف يكون تمتعه قليلا • واذا وجه الرجل بولته نحو السماء فان هذا الرجل سوف يرزق بولد يكون له شأن كبير ولكن ايامه ستكون معدودات واذا تبول الرجل في النهر فان محصوله سيكون كثيرا • اذا تبول الرجل في بئر فانه سوف يخسر ممتلكاته • اذا تبول رجل في قناة للري فان

الاله أداد سوف يغرق محصوله • واذا بول الرجل على ربه الحامي أو ربته الحامية فانه سوف يجد ممتلكاته المفقودة • اذا شرب رجل بول زوجتهفان هذا الرجل سوف يتمتع بالرخاء) (١٠٥) وفي هذه التفاسير نجد تأكيدا لنظرية سيجموند فرويد في الرمزية العالمية Universal Symobolism فبصورة لاشعورية ربط العراقي القديم بين البول (الحيامن) وانتاج الأطفال • وبهذا فانها توافقتماما نظرية فرويد في اتجاهات الطفلالجنسية الاولى Infantile Sexuality : فكميات كثيرة من البول معناها ان الرجل الحالم سوف يحصل على ولد أو أولاد كثيرون ، والشيء المهم ايضا هو رمزاة الانحناء أمام البول احتراما حيث ترمز بوضوح الى الرغبة والحاجة الى الأطفال وخاصة الذكور منهم • وان قلة البول كما يدل عليه رمز القصب الصغير يدل على العقم • والبول بذاته يدل رمزيا على تدنيس وتلويث النفس ، وبذلك يفسر كفأل غير حسن (وعلى الأخص في وفاة الابن الأكبر وحدوث قحط او جوع) وتوجيه البول نحو السماء ينتج في صيرورة الابن ذا قيمة وأهمية والسبب في ذلك يعود بالطبع الى ارتباط السماء مع الأرباب حيث كان الاعتقاد القديم بان الآلهة تسكن هناك•ولكن حياته سوف تصبح قصيرة بتقدير الآلهة نفسها وذلك يعود ربما للوقاحة البالغة التي بينها في عمله هذا والذي ربما أراد من ورائه الاتصال جنسيا مع بعض الربات • وان وطأ الحالم بولته معناه احتقاره لها ورؤيادالة على خسارته لاعز ابنائه وهو الابن الأكبر بالطبع • واذا ما غسل يديه في بولته ، ذلك الغسل الذي سيؤدي حتما الى ضياع قسم كبير منه في الأرض واستشاره لكمية قليلة منه فسيؤدي الى نتيجة مشابهة الا وهي تمتعه القليل بالحياة • والعبارات الاربع التي تلي هذه مهمة أيضا • فهنا نلحظ حظا سعيدا يأتي بعد التلقيح الرمزي لكثيرين آخرين (البول في ماء جاري مثل النهر) • ولكن الحظ التعس يتأتى بعد البول في ماء البئر حيث سوف يضيع لكون البئر مقفلا • اما اذا بول في قناة اروائية وهي

بالطبع صغيرة بطيئة الجريان في الغالب فان خسارته سوف لا تشمل كل ممتلكاته كما في حالة البئر بل محددة على محصوله لتلـك السنة بالذات فقط • وان صب بول الرجل الحالم على الرب الحامي له علاقة مع تضحية النفس وهي أعلى تضحية يمكن ان يقدمها انسان الى ربه الشخصي وبذلك فسرت بعثوره على ما فقده من ممتلكات • اما العبارة الأخيرة فواضحة • فان شربه بول الزوجة سوف يؤمن للرجل التمتع بذرية تؤمن له حياته في الكبر والشيخوخة • هذا وان البول والتبول هما رمزيان للغاية •

ونقرأ في الرقيم الثامن العبارة التالية (اذا رأى رجل في حلمه الاله انليل فانه سوف يتمتع لعمر طويل [١٠٦] • وهذه ربما تمثل نعمة خاصة مسداة الى رجل نقي متدين تؤمن له طول العمر • وتقرأ في الرقيم التاسع (اذا رأى انسان نفسه في الحلم ذاهب الى مدينة تعز فمعناه حـزن أو صحة لمدة سنة ، ولباسل فمعناه تحسرات أو صحة لمدة سنة أو لهيت فانه سيكون ذا عمر طويل وتكثر املاكه) [١٠٧] فهذا الرقيم كما يظهر مخصص للاسفار • فهناك تناقض واضح في العبارتين الاوليتين بين الحزن والصحة والتحسر والعافية وربما ترجع الى افتخار الكاتب واعتزازه أو تعصبه حيث جعل السفرة لتلك المدينة يعطي اما حظا سعيدا او ثنيئا معتمدة على كون الشخص المسافر من مدينته التي اتى منها هو ام لا • والأخيرة ترمز بالطبع الى مسافة بعيدة بالنسبة للكاتب لان هيت بعيدة عن كل من الجنوب أو الشمال ان كان الرقيم قد كتب في واحدة منهما • فالبعد في المسافة هنا يرمز الى طول العمر حيث ان الحياة ما هي الا رحلة •

وذكر اوبنهايم ثلاثة رقم اخرى غير مرتبطة كليا مع كتاب الأحـلام الآشوري ولكنها تبحث في نفس الموضوع [١٠٨] • وهذه تلائم الطبيعـة الاساسية لكتاب الاحلام الا وهي التكاثر البشري • فبصورة عامة نرى ان أكل لحوم الحيوانات الوحشية ينتج حظا سيئا كما يولد الاخير ايضا اللحوم غير المألوفة ولحوم الاناس الغرباء • وأكل لحم الاصدقاء(ماعدا

أكل لحم اليد) يشير بصورة عامة الى حظ سعيد وخير سيجلبه الحلم • فالعراقي القديم بذلك سيأخذ لنفسه حسن سريرة وطيب صديقة ثم يعكسها الى العالم • وأكل الانسان الى لحم يده قد يجلب حظا تعسا لان اليد عضو على غاية الأهمية للانسان وهو في حلمه ينوي انزال الاذى بها أو لان اليد هو العضو غير المحظوظ من الجسم الذي تظهر عليه انفعالاته بسرعة • فعلى سبيل المثال اذا اختلف رجل مع آخر فان اليد هي التي تضرب اي انها الجزء من البدن الذي يورط صاحبه في النزاع أولا فيكسر الصداقة ويجلب الحظ السيء [١٠٩] • ويظهر التناقض في (اذا رأى رجل نفسه في الحلم يأكل عضوه التناسلي فان ابنه سوف يموت) و (اذا رأى رجل نفسه في الحلم يأكل عضو صديقه التناسلي فمعناه انه سيرزق بولد) [١١٠] • وبالنسبة الى فرويد فالأكل عموما له علاقة باتصال جنسي محرم (مع اخت أو ام أو بنت او بنت أخ الخ) وبذلك يكون أكل الانسان لعضوه التناسلي مجلبة لسوء حظ اليه بينما أكل الشخص لعضو صديقه التناسلي لا يحمل بين طياته اتصال جنسي محرم • وبذلك يكون مجلبة لحسن حظ • ونفس التفسير يصدق على (اذا رأى رجل نفسه في الحلم يأكل لحم يديه فمعناه ان ابنته سوف تموت) و (اذا رأى رجل نفسه في الحلم يأكل لحم قدمه فمعناه ان ابنه الاكبر سوف يموت) [١١١] فالعراقي القديم حسب ما تظهر هذه الأحلام وتنسياتها ، ادرك بصورة لاشعورية خطر عدم النسل واتخذ الاحتياطات (ايضا بصورة لاشعورية) لتجنبها • وبالواقع فان من الصعب جدا الافتراض بان أكل لحوم البشر قد حدث فعلاً في العراق القديم •

وهناك عبارتان تتعلقان بأكل الغائط وكيف انه ذو حدين يجلب سوء الطالع حينا وحسنه حينا آخر باختلاف الاشخاص • (اذا رأى رجل نفسه في الحلم يأكل غائط صديقه فتفسير ممتلكاته سوف تزيد ويكون حسن الحظ وسيقول عن ثروته اين سأضعها ؟ اذا رأى رجل نفسه في الحلم يأكل

براز الحيوانات الوحشية فسيكون ثريا) (١١٢) فبراز البشر عند الاقوام البدائية يقرن دائما مع الثروة وكأنها شيء قد انتج من قبل الفرد ونتيجة لجهود بذلها الى جانب ذلك فان التغوط بذاته عمل مريح ملذ للنفس الآمر الذي يجب ان يكون مقرونا مع حسن الحظ .

واذا ما اتينا على العبارات المتعلقة بالاختام الاسطوانية بكتاب الاحلام الآشوري هذا (١١٣) ، فنرى في تفسير الاحلام ان اعطاء شخص لختم اسطواني الى آخر له علاقة بانجاب الاطفال . ولهذا تفسيران . فالختم الاسطواني مهم في الكشف عن الهوية وبذلك يمثل الحظ المباشر الذي يربط الاب مع الابن . او ان هذه الاختام ربما كانت قد انتقلت من الاب الى الابن في حالة الوفاة ساندة بذلك التفسير التعريفي (الكشف عن الهوية) . وربما تكون العلاقة بين الختم الاسطواني والأطفال متأتية من تشابهها مع عضو الاخصاب عند الرجل . وبذلك تكون ممثلة للعلاقة وعملية التخصيب المباشر وفكرة انجاب الأطفال . ومن المهم ان نذكر بان اكثر الرموز المستخدمة في الاختام كالاسود والسهام والارباب لها تعابير صريحة وواضحة للقوة والاخصاب والنشاط . وهناك فقرات تتعلق بالتسليم (اذا رأى رجل نفسه في الحلم وقد اعطي لحم خنزير يفني سوء الصحة) (١١٤) . حيث ان الخنزير نفسه معروف كحيوان قذر يأكل كلما يجد وربما انهم عن خبرة (ولو انه ليس لنا دليل على ذلك) قد عرفوا بان أكل لحم الخنزير قد يعرض الانسان الى امراض . اما اذا كان اللحم المعطى غير مطبوخ فمعناه ان الحيوان نفسه سوف يهاجم الرجل الحالم أو يلم به مرض أو يموت . ونعرف عن مهاجمة الخنزير الوحشي للكثيرين من الناس وخاصة في مناطق الاهوار والزراعة الكثيفة وقتله اياهم في تلك العصور . ثم تقرأ (اذا رأى رجل في حلمه ان شخصا قد اعطاه شحم أسد فسوف لا يتمكن أحد من منافسته . وهنا ايضا عندما تحاول تطبيق قانون التأثير يبرز للحلم معناه فالأسد معروف بالقوة وخوف الحيوانات الأخرى منه

وحتى البشر ، فبذلك يكون أخذ الشخص الحالم لدهنه يعني اخذه لقوة الأسد وصفات ذلك الحيوان الاخرى الامر الذي سيجعله قويا لا يتمكن أحد من منافسته •

وفي عبارات الفأل نقرأ : (اذا رأى رجل في حلمه ان رجلا آخر يسلمه عجلة فتفسيره بان سوف يرزق بتوأمين • واذا كان درعا من الجلد بان كأبته سوف تنفرج • واذا كان منغزا فتفسيره بان سوف لا ينافسه أحد • واذا كان مزلاج باب فتفسيره بان سوف لا تنفضح أسراره •[115] فالعجلة بلا شك تأتي في زوجين اثنين على الدوام وبذلك اقترنت هنا بولادة التوائم ، اما الدرع فمعناه الوقاية والحماية من اي خطر فسيكون بذلك قويا لا يقوى أحد على منافسته والتغلب عليه • اما المنغز فهو اداة دفاعية وبذلك له علاقة بتقوية الانسان لنفسه بالوقت الذي يستعمل مزلاج الباب لغلقها فلا يتمكن بعد ذلك أحد من فتحها بسهولة وبفعل قانون التشابه •

وفي مكان آخر نقرأ (اذا رأى رجل نفسه في الحلم يعطي كأسا فارغا فمعناه بانه سوف يصبح فقيرا • واذا كان مملوء فمعناه بانه سوف يصبح ذا اسم مشهور ونسل كثير ••• واذا رأى رجل في حلمه ان احدا يعطيه دهن أسد فالمعنى بانه سيكون انسانا كاملا ، واذا كان دهن بغل فالمعنى بانه سوف لا يكون انسانا كاملا • واذا رأى ان احدا يعطيه ماء فان عمره سوف يطول ••• واذا كانت بيرة فمعناه سوف ينس ••• واذا كان خمرا فمعناه ان عمره سيكون قصيرا)[116] فتسلم الحالم للكأس الفارغ معناه تقبله الفقر وبذلك سيكون متجها نحوه واذا كان الكأس مملوء فسيكون طريقه نحو الثراء وهنا يتوضح قانون التشابه • ولما كان البغل حيوانا عقيما فلا تتوقع ان يكون تفسير الحلم الكمال بالنسبة للشخص الحالم • اما البول والماء منهما من رموز الخصب والتكاثر فلا بد ان يكون تفسير الحلم مقترن بطول العمر وكثرة الأطفال او زيادة المال بالنسبة للحالم • وكما ان الفرد أثناء شربه للبيرة ينسى او يتناسى مشاكله وآلامه وقد يصيب

فرح وقتي ، فقد قرن الحلم بين النسيان وشرب البيرة • اما الخمرة فلكونها لا تجعل شاربها ثملا الى مالا نهاية ومفعولها يتلاشى بعد مدة من الزمن تقصر او تطول بالنسبة للكمية التي شربها الشخص وبذلك يكون تفسير الخمرة وشربها هنا سرعة زوال وقرب نهاية العمر •

وان الواح التعويذة هي الاولى والعاشرة والحادية عشرة • (١١٧) وهناك أدلة على ان الالواح الثلاثة كانت بالأصل مجموعة منفصلة عنوانها (تحويل الأحلام السيئة الى حسنة) وهي مرتبطة مع نصوص لفأل من كتاب الأحلام لعلاقتها به • وتشمل هذه النصوص على دعوات وسحر وطرد شرور استعملت في مناشدة الارباب لنعم وفضائل ومن هذه الدعوات نقرأ بنص (اذا رأى رجلا حلما سيئا فيجب ولأجل ان لا تصيبه نتائجه السيئة ان ليقول لنفسه قبل ان يضع قدمه على الارض (في الصباح) ان الحلم الذي رأيته كان طيبا ، حقا طيبا امام الاله سن وشماش وبذلك سيوقل ذلك ويضع آجر من النوع الجيد واحدة لنفسه وحتى لا يقرب منه شر الحلم (الذي رآه) • وفي نص نقرأ شعيرة لاجل التخلص من نتائج الأحلام السيئة والتي عليه بموجبها ان يقرأ هذا الدعاء وهو مرفوع اليدين امام الاله شماش و « سوف يحصل على مايريد» (شماش انت الحاكم احكم في قضيتي ، انت الذي تصدر الأحكام ، اصدر حكمك في دعوتي ، بدل حلمي الذي رأيته الى حلم طيب ، هلا أسير في الطريق المستقيم ، هلا احصل على مساعد ، ياشماش ، هلا يكون حلمي طيبا طول النهار ، يا شماش هلا يكون حلمي طيبا طول الشهر) • ونجد تعاليما في هذا الباب في الرقيم المسمى (اذا رأى رجلا حلما سيئا واراد ان لا يتأثر بنتائجه السيئة) نقرأ فيه (اذا رأى رجلا حلما سيئا في الليل فيجب ان يأخذ••• (مكسور) ••• ويلطخ به كل جسمه (وهو متجه) نحو الشرق •••وعلى قطعة من الفخار ثم يقول الى القطعة ، ايتها القطعة هي تركيبك قد امتزج تركيبي ، في تركيبك قد امتزج تركيبي ، ثم عليه ان يخبر قطعة الفخار

(يشارو) كل الحلم الذي رآه ثم يرميها في الماء ويقول (وكما اطاق هذه القطعة في الماء وتتحطم وتتلاشى جميع اجزاؤها ، هلا تكون جميع نتائج الحلم الشريرة التي رأيتها • تختفي وتذوب وتبتعد عن يدي مسافة ستين ساعة مضاعفة • وهذا ما يجب ان يقوله الى القطعة التي يرميها في الماء وآنذاك سوف يذهب عنه الشر) (١١٨)

فهذه الدعوات هي بالواقع ستائر وتعاويذ الغاية منها طرد نتائج الاحلام الشريرة واستحصال أحلام حسنة بدلها • ومن هذه الامثلة الثلاثة التي ذكرناها ، أعلاه فالأولى تطرد شر حلم سيء وذلك عن طريق محاولة اقناع الأرباب بان الحلم كان طيبا لا سوء فيه • وهو بهذه الوسيلة يحاول تظليل الآلهة • وهذه الطريقة بالواقع معروفة في مختلف الأديان البدائية• اما الطريقة الثانية فهي نتاج عقلية أكثر تعقيدا كما يظهر وتحوى التماسا الى الاله لان يحكم ويغيره الى حلم حسن • اما في الثالثة فنجد طريقة جديدة فعوضا عن محاولة الشخص التهرب من نتائج حلمه السيء المخيفة• فانه قد وجه شر الحلم الى قطعة من طين الارض يرميها لتذوب في الماء ومعها شرور الحلم الذي يقاسيها الحالم وبذلك يكون قد خلص نفسه حسب اعتقاده من النتائج •

ووصلتنا من العراق القديم أدعية يتوسل بها المقيد الى الارباب كيما ترسل له أحلاما طيبة امثال (يارب القمر الجديد الذي لا يوازيه احد في القوة والذي لا يتمكن أحد ان يحصل مشورته ، لقد قدمت الك سائلا طاهرا كتضحية ليلية ، قدمت لك شرابا طاهرا ، انحني عليك ، اقف امامك، استرشدك ، وجه افكارك الحسنة والعادلة نحوي حتى يصطلح معي ربي وربتي اللذين غضبن علي منذ ايام في الحق والعدل وسيكون الحظ الحسن نصيبي وطريقي مستقيما ويرسل لي زاكار رب الاحلام في منتصف الليل كيما يغفر لي ذنوبي) • (اكشف نفسك لي ودعني ارى حلما طيبا، هلا يكون الحلم الذي سأحلمه طيبا ، هلا يكون الحلم الذي سأحلمه

صحيحا • هلا تقف مامو ربة الأحلام عند فراشي ، دعني ادخل ايزاكيـلا بيت الحياة) •(١١٩)

فالأحلام هذه قد تحملنا على ضرورة النظر العراقي القديم نظرة اكثر تعقيدا • فهو شخص كانت للرمزية في المعاني والاستعمالات بالنسبة اليـه مكان لا يستهان به • فاحلامه تبين بكل وضوح استعماله الرمزية اللاشعورية فيها وتنوع خبراته في تفسيرها •

الهوامش

١ ــ الدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم ، مصر والشرق الادنى القديم ، المجلد ٦ (القاهرة ، ١٩٦١) ص ٩٢ مادة ٤٧ .

٢ ــ قانون حمورابي ، مادة ٢ ، المصدر اعلاه ص ٥٩ .

3 — Hooke, **Babylonian and AssYrian Religion**, (London, 1953) Translated by A.J. Powerans, pp.69-70

5 — Erich Ebeling, «Ein Babylonische Beispiel Schwarzer Magic», **Orientalia**, vol. 20 (1951) pp. 167-170.

6 — Stanley D. Walters, The Sourceress and her Apprentice» **JCS**, vol. 23 (1970) pp. 27-28.

7 — A. Ray, **La Science Orientale Avant Les Grecs**, (Paris, 1947) pp. 40-47.

8 — Rene Taton, Ed. **op. cit.** p. 70.

9 — Contenau, **Every Day... Life in Babylon and AssYrin**, (N.Y., 1966).

10 — Hooke, **op. cit.** p. 77.

11 — H. Zimmern, **Die Keilinschriftliche und Das Alte Testament** (Leipzig, 1903), II, p. 33; James, **op. cit.** p. 238.

12 — E. Ebeling, **Tod und Leben Nach Den Vorstellungen Der Babylonier**, (Leipzig, 1931) pp. 76-78.

13 — Hooke, **op. cit.** p. 81.

١٤ ــ الدكتور سامي سعيد الأحمد ، الاصول الاولى لأفكار الشر والشيطان ، بغداد ١٩٧٠ ، ص ٢٤ .

15 — H.W.F. Saggs, **The Greatness That was BabYlon**, (N. Y., 1963),

16 — **Ibid,** pp. 305-307, 311

17 — E. E. Kundsen, Two Nimrud Incantation of The Utukku Type» **Irak,** vol. 27, 27, part 2, Fall 1965, pp. 167 FF.

18 — H. W. F. Saggs, The Greatness... **op. cit.** pp. 313-315.

19 — **Ibid,** pp. 315-316.

20 — **Ibid,** pp. 318-320.

21 — Bruno Melssner, **Babyloniens und Assyrians** (Heidelberg 1925), II, pp. 235-236.

22 — Morril Jastrow, **The Civilisation of Babylonia and Assyria** (Philadelphia, 1915) **op. cit.** p. 243.

23 — Contenau, **Every Day...** op. cit. pp. 254-255.

24 — **Maqlu,** Tablet I, 135-143.

25 — **Maqlu,** Tablet II, 132-135.

26 — Paul Haupt, **Akkadische und Sumarische Keilinschriftexte** (Leipzig, 1892), p. 90.

27 — **Shurpu Series,** Tablet V-VI, 60-72.

28 — **Maqlu Series,** Tablet III, 89-103 and Tablet VII, 97-107.

29 — **Maqlu Series,** Tablet VII, 31-38.

30 — Jastrow, **The Civilisation... op cit.** pp. 253-254.

٣١ ـ الدكتور سامي سعيد الأحمد ، الاصول الاولى ... المار ذكره ص ١٨ ـ ص ٢٠ .

32 — T.B. Pritchard, **Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament,** (New Jersey, 1955), Story of Creation, p. 62, Tablet I, Lines 139-143, George Barton, «Tianat», **Jaos,** vol. XV (1893), pp. 1-27.

الدكتور سامي سعيد الأحمد ، **الاصول الاولى ... المار ذكره** ، ص ٢٠

33 — Sami Said Ahmed, **Southern Mesopotamin in the Tire of Ashurbanibal,** (The Hague-Paris, 1968) pp. 71 FF.

34 — Kurt Selingmann, **The Mirror of Magic** (Cambridge, Mass., 1948) pp. 23-31.

35 — A. Leo Oppenheim, **Ancient Mesopotamia,** (Chicago, 1964) pp. 206-208.

36 — H. Zimmern, **Beitrage zur Kenntnis der Babylonischen Religion** (Leipzig, 1901) p. 116, No. 24, lines 1, 23.

37 — E.O. James, **The Ancient Gods,** (N. Y., 1960) p. 232.

38 — Contenau, **Every Day... op. cit.** p. 281.

39 — Delaporte, **Mesopotamia,** (London, 1925) pp. 152-154.

40 — Sami S. Ahmad, **Characteristics of Ancient Mesopotamain Religions Thought Ametzqr,** vol. 79 (1967) p. 127.

41 — Morris Jastrow, **Die Religion Babyloniens und Assyrien** (Giessen, 1905-12), pp. 213 FF. Morris Jastrow, «The Liver As The Seat of The Soul», in **Studies in the History of Religions, Presented to C.H. Toy** (New York, 1912) pp .143-168.

42 — Melssner, **Babylonien** (Heidelberg, 1925), II, pp. 270-1.

43 — **Ibid,** p. 273.

44 — Jastrow, **The Civilisation... op. cit.** pp. 255-256.

45 — David Weuberg, An Old Babylonian Forunners to Shumma Alu, **Huca,** vol. XL-XLI (1969-1970), pp. 87-94.

46 — Erica Reiner, «Fortune Telling/in/Mescpotamia», **JNES,** vol. 19, (1960) pp. 28 FF.

47 — Hooke, **op. cit.** p. 88.

٤٨ ــ الدكتور وليد الجادر ، نظرات في مباحث ومؤلفات ، سومر مجلد ٢٦ (١٩٧٠) ، ص ٤٠٩

49 — Saggs, **The Greatness... op. cit.** pp. 322-324.

٥٠ ــ الدكتور سامي سعيد الأحمد ، **الاصول الاولى . . . المار ذكره** ص ٢٣ .

51 — Oppenheim, **Ancient Mesopotamia... op. cit.** p. 212.

52 — Sami S. Ahmed, **Characteristics... op. cit.** p. 127.

53 — Melssner, **Babylonien... op. cit.**, II, 275 FF.

54 — Oppenheim, **Ancient Mesopotamia... op. cit.** p. 212.

55 — Melssner, **BabYlonien... op. cit.** II, p. 275.

56 — Hooke, **op. cit.** p. 92.

57 — Delaporte, **op. cit.** p. 154.

58 — F. R. Kraus, **Die Physiognimischen Omina der Babylonier** (Leipzig, 1935) p. 63.

59 — Oppenheim, **Ancient Mesopotamia... op. cit.** pp. 222-223.

٦٠ – الدكتوور الجامد ، **نظرات ... المار ذكره**، ص ٤٠٨ – ص ٤٠٩

61 — F. W. Goors, A Babylonian Omen Text, **AJSL**, vol. 43, (1927) pp. 22 FF.

62 — Rene Taton Ed. **A General History... op. cit.** pp. 71-72.

63 — Sami S. Ahmed, **Characteristics... op. cit.** p. 127.

64 — R. Campbell Thomson, **The Reports of The Magicians and Astrologers of Nineveh and Babylon in the British Museum** (London, 1900) p. xxiii.

65 — Melssner, **Babylonien... op. cit. II**, pp. 248-249.

66 — R. Campbell Thompson, **The Reports... op. cit.** Texts No. 30, 31, 38, 43, 48, 85, 86, 90, 91, 99, 100, 101, 112, 119, 120, 156, 157, 166, 170, 171.

67 — Hooke, **op. cit.** p. 96.

68 — Leroy Waterman, The Royal Correspondance of The Assyrian Empire (Ann Arbor,) vols. 1-4, Letter No. 1373.

69 — **Ibid,** Letter No. 1383.

70 — **Ibid,** Letter No. 1214.

71 — **Ibid,** No. 1435, 405, 1391.

72 — R. Campbell Thompson, **The Reports... op. cit.** pp. No. 173 and 176.

73 — **Ibid,** No. 213, 222, 234, 239.

74 — Waterman, **op. cit.** Letters, No. 744, 46, 565.

75 — **Ibid,** No. 657.

76 — **Ibid,** No. 1383.

77 — Meissner, **BabYlonien und... op. cit.** II, pp. 258 FF.

78 — Hooke, **op. cit.** p. 97

79 — R. Campbell Thompson, **The Repport... op. cit.** No. 250

80 — Waterman, **op. cit.** No. 1237.

81 — R. Campbell Thompson, **The Reparts... op. cit.** No. 263, 265, 267.

82 — Waterman, **op. cit.** No. 34.

83 — R. Campbell Thompson, **The Reports... op. cit.** No. 276.

84 — Waterman, No. 1140.

85 — **Ibid,** No. 1278.

86 — Morris Jastrow, **Aspects of Religions Belief and Practice in Babylonia and Assyria** (London, 1911) pp. 319 FF.

87 — H. Zimmern, **Die Keilinschriftliche und das Alte Testament** (Leipzig, 1903) pp. 609 FF.

88 — James, **op. cit.** pp. 268-270.

89 — Delaporte, **op. cit.** p. 167.

٩٠ ــ طه باقر ، **ملحمة كلكامش** ، سلسلة الثقافة العامة رقم ٨ (بغداد ١٩٧١) ص ١٢٨ ، ص ٦١ ــ ص ٦٣، ص ٨٥ ، ص ١٠٢ ،ص١٠٤

91 — Raymond de Becker, **The Uuderstanding of Dreams and Their Influence Upon History of Man,** Translated By Michael Heron (New York, 1964) pp. 107-108.

92 — Nels M. Baikey, A Babylonian Philosophy of History,

Osiris, vol. IX (1950), pp. 109 FF.

93 — Francois Thurcan-Dangin, **Les Inscriptions de Sumer et d'Akkad**, (Paris, 1905) pp. 137 FF.

94 — **Ibid**, p. 27.

٩٥ ــ الدكتور فيصل الوائلي ، من ادب العــراق القديم ، **سومر** ، مجلد ٢٣ (١٩٦٧) ص ٩٦ ــ ص ٩٩ .

96 — Hooke, **op. cit.** pp. 86-87.

97 — Th. Jacobsen, The Dumuzi Dream, **JNES**, vol. XII (1953), pp. 165-166.

98 — Bendt Alster, Who is Dumuzi's Friend (Ku-Li)?, **Acta Orientalia**, vol. XXXIII, (1971) pp. 335-336.

99 — Steven Langden, A Babylonian Tablet on the Interpretation of Dreams, **Museum Journal**, vol. VIII, (June, 1917) p. 119 FF.

١٠٠ ــ نفس **المصدر** ص ١٢٠ .

١٠١ ــ نفس **المصدر** ص ١٢١ خط ٦٧ .

١٠٢ ــ نفسه

103 — A. Leo Oppenheim, **The Interpretations of Dreams in Ancient Near East With a Translation of an Assyrian Dream Book**, (Philadelphia, 1956), p. 262.

104 — **Ibid**, p. 263.

105 — **Ibid**, pp. 264-265.

106 — **Ibid**, p. 266.

107 — **Ibid** p. 267.

108 — **Ibid**, 269.

109 — **Ibid** 270-271

110 — **Ibid**, p. 271

111 — **Ibid.**

112 — **Ibid**, p. 273.

113 — **Ibid**, pp. 276-277

114 — **Ibid**, p. 278.

115 — **Ibid**, p. 279.

116 — **Ibid**, pp. 279-280.

117 — **Ibid**, p. 295.

118 — **Ibid**, p. 300-302.

119 — H. F. Lutz, «An Omen Text Referring to the Action of A Dreamer», **AJSL**, vol. XXXV (1919) p. 145.

مصادر تاريخ الحضارة اليمنيّة القديمة والإسلاميّة وبعض الملاحظات حولها

سلطان ناجي
محاضر التاريخ اليمني
كلية التربية العليا ـ عدن

كما نعرف تقسّم مصادر اية فترة من الفترات التاريخية الى نوعين ، مصادر اساسية ومصادر ثانوية • فالمصادر الاساسية هي التي يكون عليها الاعتماد بالدرجة الأولى لأنها عادة تكتب اثناء أو بعد وقوع الأحداث التاريخية مباشرة ، وتمثل بطريقة أو بأخرى وجهة نظر صانع الاحداث ذاته • اما المصادر الثانوية فيكتبها عادة من ليس له علاقة مباشرة بالاحداث ، وقد يتم تدوينها بعد مضي وقت لا بأس به من وقوع تلك الحوادث بحيث يمكن أن يشوبها شيء من الغلط في الرد أو التحليل نظرا لبعد الشقة بين وقوع الحدث وزمن تدوينه •

المصادر الثانوية لتاريخ اليمن القديم :

١ ـ هذه المصادر متنوعة ولكنها جميعا تشترك في انها كتبت باقلام غير معاصرة وبعد مضي فترات طويلة عن مسرح الأحداث • فهناك اولا المصادر اليونانية والرومانية التي تعرضت لذكر اخبار اليمن القديمة قبل الفترة المسيحية أو في عصورها الأولى • ومعظم هذه الاخبار عامة وتحتوي غالبا على معلومات جغرافية عن اليمن حصل عليها عادة عن طريق السماع أو قام بتسجيلها بعض اليونان أو الرومان الذين زاروا المنطقة اثناء

وجود الصلات التجارية أو السياسية بينهم وبين اليمن • ومن هذه المؤلفات نذكر ماكتبه (سترابو) الذي قيل أنه صحب غزوة (جالوس الوس) الى اليمن عام ٢٤ قبل الميلاد • أو كتاب « البريبلوس » الذي كتبه رحالة مجهول فيما بين القرنين الأول والثالث وضمنه الكثير من المعلومات الجغرافية القيمة • ومعظم هذه الكتب اليونانية أو الرومانية هي الآن مترجمة باللغات الاوربية الحديثة كالانجليزية ويمكن الرجوع اليها بسهولة في هذه المظان •

٢ ـ اما فيما يتعلق باخبار المسيحية واليهودية في اليمن القديم فهي ايضا توجد في المصادر المسيحية أو اليهودية المعاصرة للفترة خارج اليمن • الا أنه بالنسبة للوثائق السريانية كرسائل المطران (سيمون) ، التي اكتشفت في الستينات بواسطة الاسقف (بهنام) رئيس الارثوذوكس في بغداد قبل وفاته وذلك في (ديرسانت مارك) حول تعذيب نصارى نجران وكانت موضوع ترجمة ودراسة ممتازة نشرها عرفان شهيد في بروكسل بالانجليزية عام ١٩٧١ تحت عنوان (ذي مرتيرس أوف نجران) أو « شهداء نجران» • بالنسبة لهذه الرسائل فقد رفعها دارسها الى منزلة المصادر الاساسية واثبت انها وثائق معاصرة كانت قد كتبت في الأصل باللغة « النجرانية » التي هي اللغة العربية وليست الحميرية • ومن ناحية لغوية بحتة فان هذا الاكتشاف يعتبر اعظم اكتشاف يخص اللغة العربية • وبهذا الصدد يقول عرفان شهيد ما نصه :

« ان هذا يثبت ان العربية ، التي سبق ان برزت كلغة شعرية أدبية منذ القرن الخامس الميلادي ، قد برزت ، على الاقل مئة سنة قبل هجرة محمد الى المدينة ، كلغة مكتوبة بالمعنى الواسع ، وليس فقط بالمعنى المحدود للغة تستخدم للتعبير عن عواطف « النقوش » • ان هذه حقيقة في غاية الأهمية لحل بعض القضايا الكبرى عما إذا كانت هناك رواية عربية للانجيل قبل الاسلام وكوجود ظاهرة تدوين للشعر الجاهلي » •

والحيقفة انني بعد ان اطلعت على هـذه الوثائق المعاصرة لتعذيب النصارى في كتاب (شهداء نجران) ذهلت من مدى تطابقها مع ما قص علينا القرآن عن اصحاب الاخدود •

٣ ـ وعندما نأتي إلى الفترة الاسلامية نجد ان كتب التاريخ العامـة التي الفها المؤرخون العرب خاصة في العصور العباسية تتعرض هي ايضا ، ولكن باقتضاب الى اخبار اليمن القديمة وذلك كجزء من الخطة العامـة التي كان اولئك المؤرخون يتبعونها اثناء تأريخهـم للعالم منذ الخليقـة وللشعوب التي سبقت الاسلام كمقدمة ضرورية لكتبهم التي كان الهدف منها أن تؤرخ للامة الاسلامية منذ قيام البعثة النبوية ليس الا • وعلى اية حال فكل مانجده في امثال هذه الكتب من الفترات السابقة للاسـلام يجب أن نأخذه بالحذر الشديد لأسباب كثيرة منها بعد الصلة ولتـداخل الاسطورة بالحقيقة التاريخية خاصة وان رواياتهم اعتمدت علـى السماع قبل اي شيء آخر •

٤ ـ ثم ان هناك بعض الكتب الخاصة التي ألفت في صدر الاسـلام أو في عهوده الاولى حول تاريخ اليمن • ومؤلفو هـذه الكتب هم من اليمنيين كوهب بن منبـه مؤلف (كتاب التيجان في ملوك حمـير) أو الهمداني صاحب كتاب (الاكيل) • وهو عبارة عن تاريخ اليمن القديم في عشرة اجزاء لم توجد حتى الآن منه سوى اربعة اجزاء هي الأول والثاني والثامن والعاشر ـ وقـد حقق الجزء العاشر منـه المرحوم الاب انستاس الكرملي من العراق ـ واخيرا سعيـد بن نشوان لحميري مؤلف (ملوك حمير واقيال اليمن • وعلى العموم فبمقارنتها مع كتب التاريخ العامة فهذه الكتب تعتبر أفضل وبالذات مؤلفات الهمداني منها حيث ان هذا الاخير قد شاهد بعض الآثار اليمنية الباقية في عهده (القرن الرابع الهجري) وقام بوصفها في كتابه هذا • ويظهر ان الهمداني كان يجيد قراءة حـروف المسند ولكنه لم يفقه كل معاني لغتها • وكيفما كان الحال فان جميع هذه

الكتب اليمنية تبقى هي أيضا مصادر ثانوية فقط إذ أنها ألفت بعد مضي عدة قرون من سقوط الحضارة اليمنية القديمة وبعد ان اصبحت اللغة الحميرية نفسها لغة ميتة وحلت اللغة العربية محلها •

المصادر الاساسية لتاريخ اليمن القديم :

٥ ـ تتلخص هذه المصادر الاساسية بالنقوش والآثار اليمنيةالقديمة فالنقوش مكتوبة بخط ولغات اليمن القديمة المندثرة أو بالخط المسند حسب الاصطلاح العربي أو الحميري حسب المفهوم الحديث الشائع • وهذه النقوش تؤرخ للاحداث التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والدينية خلال عهود اليمن القديمة قبل الاسلام • وهي منقورة بالحروف الحميرية على الأحجار الملساء في جدران السدود والهياكل والمباني العامة والخاصة • اما الاثار فهي بقايا تلك الأبنية أو التماثيل والحلي والنقود والرسوم التي وجدها المنقبون • وعن طريق مثل هذه الآثار نستطيع أن نكوّن فكرة عن الحياتين الاجتماعية والثقافية للشعب اليمني القديم•

٦ ـ كجزء من الحركة العلمية في بداية القرن التاسع عشر للبحث عن النقوش القديمة والسامية ، بدأت البعثات العملية تتقاطر على اليمن بحثا وراء نقوش الحضارة اليمنية القديمة • ومن جهود العشرات من الرحالة العلماء والبعثات العلمية خلال القرنين الماضيين تجمعت لدينا عشرات الالاف من هذه النقوش وكشف النقاب عن الآلاف من القطع الأثرية الثمينة في مدن اليمن القديمة مثل (صرواح) و (ومأرب) و (تمنع) و (حقة) و (حاز) و (قانا) و (مكيراس) و (شبوة) و (العقلة) و (حريضة) و (ظفار) و (نقب الهجر) و (مسورة) •

٧ ـ وبعد عدة محاولات فكت طلاسم الابجدية الحميرية في منتصف القرن التاسع عشر من قبل العلماء الألمان بالذات • واصبح في الامكان بعد ذلك التاريخ القيام بترجمة النقوش اليمنية الى اللغات الحية الحديثة

كالانجليزية والالمانية والفرنسية • وفي البداية صادفت العلماء صعوبات في ترجمة بعض الالفاظ والمعاني الحميرية • ولكن بعد محاولات جادةدؤوبة من قبلهم ومع التقدم في الزمن وزيادة المران في ترجمات النصوص الجديدة ، بدأ الخلاف تدريجيا يقل بين العلماء في ترجماتهم وتفسيراتهم لتلك الالفاظ والمعاني الحميرية • ولا شك ان هذه الاختلافات ستنمحي في المستقبل بعد أن يتم وضع قاموس شامل متفق عليه المغة الحميرية وعندئذ سيكون هو المرجع الأخير في هذا الشأن • ومما يثلج الصدر أن نعرف ان مؤرخا عربيا هو الدكتور محمود الغول استاذ الساميات بالجامعة الامريكية في بيروت والاخصائي بلغة اليمن القديمة ينوي نفسه وضع مثل هذا القاموس الذي لا شك ان يكون المرجع الأخير في هذا الشأن •

٨ ـ وفيما يلي موجز لأهم الرحلات أو البعثات الأثرية التي جاءت تبحث عن الآثار والنقوش اليمنية منذ منتصف القرن التاسع عشر مع تبيان للمناطق التي زارتها والنتائج التي حصلت عليها والعلماء الذين ترجموا نصوصها للرجوع اليها كمصدر أساسي أول في تاريخ اليمن القديم :ـ

أ ـ توماس ارنو : فرنسي • كان أول من زار (مأرب) عام ١٨٤٣ وبلغت النقوش التي استنسخها منها ومن (صرواح) (٥٦) نقشا • ترجم هذه النقوش الى الفرنسية العالم فرينسل •

ب ـ جوزيف هاليفي : وهو فرنسي ايضا • جاء الى اليمن عام ١٨٦٩ موفدا من قبل اكاديمية النقوش والفنون الجميلة في باريس • وقد استطاع ان ينسخ من (مأرب) و (الجوف) و (نجران) حوالي (٦٧٦) نقشا حميريا • وبعد ان عاد الى بلاده قام باجراء دراسات حولها • كما ان علماء آخرين قاموا من بعده بترجمة الكثير من نصوصها •

ج ـ ادورد جلازر : وهو نمساوي وقد قام بين عامي ١٨٨٢ ـ ١٨٩٢ بأربع زيارات الى اليمن موفدا ايضا من قبل بعض الهيئات العلمية • وقد

استطاع ان ينسخ حوالي (٢٠٠٠) نقش من مناطق (همدان) و (الجوف) و (ظفار) و (مأرب) و (تمنع) • قام هو بترجمة بعض منها واشترك علماء آخرون فيما بعد بترجمة بعض آخر منها وخاصة العلامة النمساوي (رودوكاناكيس) الذي ركز على النقوش القتبانية منها • ويعتبر بحق من طليعة علماء اليمنيات •

د ـ بعثة راتجنز وفيسمان : من المانيا • وقد قامت بأول حفر للاثار في المناطق المجاورة لصنعاء عام ١٩٣١ • نشرت ابحاث البعثة الجغرافية والاثرية في مؤلف بالالمانية عام ١٩٣٤ •

هـ ـ بعثة الجامعة المصرية : عام ١٩٣٦ • وقد قامت ببعض الحفائر الأثرية في (ناعط) و (مشهد) • قام عضو البعثة الدكتور خليل نامي بترجمة النقوش التي تجمعت من منطقة (همدان) الى اللغة العربية • وقد بقي الدكتور نامي طيلة فترة عمله كاستاذ لليمنية في جامعة القاهرة يترجم عشرات النقوش اليمنية في مجلة كلية الاداب • ولهذا فهو ابرز مؤرخ عربي عمل في ترجمة النقوش اليمنية الى العربية •

و ـ جون فيلبي : وقد قام برحلتين ، الأولى عام ١٩٣٧ والثانية عام ١٩٥١ وزار فيهما (نجران) و (شبوة) و (العقلة) • واستطاع أن ينسخ آلاف من النقوش من هذه المناطق • وقد قام الاستاذ بيستون من اكسفورد بترجمة بعض من نقوش الرحلة الأولى ، كما قام العلامة الهولندي ريكمنز بترجمة بعض نقوش الرحلة الثانية •

ز ـ بعثة الدكتورة كاتن ـ تومبسون : قامت عام ١٩٣٧ بعمل حفائر اثرية في مدينة (حريضة) في حضرموت ، اكتشفت معبد القمر (سن) هناك وقنوات للمياه ووسائل للري قديمة • نشرت الدكتورة تومبسون نتائج تنقيب البعثة في كتاب بالانجليزية عام ١٩٤٤ •

ح ـ محمد توفيق : هو عالم حشرات مصري زار (الجوف) بين

عامي ١٩٤٤ ــ ١٩٤٥ • وقد استطاع ان يجمع حوالي (١٦٠) نقشا من (خربة معين) و (خربة براقش) ، هذا بالاضافة الى تصوير كثير من الاثار والزخارف اليمنية التي رآها هناك • قام بترجمة هذه النقوش الى العربية الدكتور خليل ناجي ونشر الكتاب المعهد الفرنسي للاثار بالقاهرة عام ١٩٥١ •

ط ــ أحمد فخري : وهو عالم اثار مصري جاء الى اليمن عام ١٩٤٧ وزار كلا من (صرواح) و (مأرب) واستطاع أن يعثر على نحو (١٢٠) نقشا جديدا من هناك • وقد قام بترجمة النصوص العلامة الهولندي ريكمنز •

ي ــ بعثة مؤسسة دراسة الانسان : بلغ مجموع حملاتها التنقيبية بين عامي ١٩٥٠ ــ ١٩٥٣ اربع حملات • كانت الأولى والثانية إلى (تمنع) عاصمة (قتبان) • والثالثة الى (مأرب) والرابعة الى (ظفار) في (عمان)• ففي (تمنع) كشفت البعثة عن كثير من الفخار والتماثيل وبقايا المعابد والقصور والحلي • اما النقوش والمخربشات التي جمعتها البعثة فقد بلغت حوالي (٥٠٠٠) نقش حوالي (١٠٠٠) منها من جنوب منطقة (مكيراس)• وفي (مأرب) عثرت على مئات من النقوش والآثار البرنزية والرخامية ، وكشفت ايضا عن معبد الاله القمر (المقه) وعن سد مأرب • وفي (ظفار) اكتشفت تماثيل برونزية واثار معابد ونقوش • وقد نشرت الاثار العلمية والدراسات التاريخية لهذه البعثة في كثير من المجلات العلمية المتخصصة ولكن اهمها اربعة مجلدات ضخمة بالانكليزية اصدرتها حتى الآن جامعة هوبكنز بما في ذلك مجلد خصص لترجمة النقوش السبائية قام بها العلامة البلجيكي جام • ولا تزال هذه البعثة تعتبر اهم البعثات الاثرية التيزارت اليمـــن •

ك ــ لانكستر هاردنج : أوفد من بريطانيا عام ١٩٥٩ لاجراء مسح عن الآثار والمواقع الاثرية في جنوب اليمن (عدن والمحميات وقتذاك) •

وقد بلغ عدد المواقع الأثرية التي فحصها ووصفها (٣٩) موقعا اثريا • ومن هذه المواقع (حصن الغراب) و (مشغا) و (ريبون) و (تمنع) و(صبر)• كذلك قام بتسجيل وفهرسة مجموعة (منشرجي) في متحف عدن •وهذه المجموعة تعتبر أهم مقتنيات المتحف في عدن • وقد تم تجميعها ، على مدى فترة طويلة من الزمن ، من الاعراب الذين كانوا يأتون بها الى المدينة من المناطق الريفية • وهي تشمل تماثيل ومجوهرات ونقوش واختام • ومعظمها جاء من المنطقة شمال (مكيراس) من (مسورة) و (هجرالناب) في أرض دولة (أوسان) القديمة • والوصف للمواقع الاثرية التي قام بمسحها هذا العالم الاثري • موجود في كتابه الذي اصدره بالانجليزية عام ١٩٦٤ •

ل ــ بعثة فان بييك : في عام ١٩٦١ ترأس هذا العالم بعثة أثرية أوفدها معهد اسميثسونيان الى وادي (حضرموت) لاجراء مسح أثري للمنطقة هناك • واهم ما وجدته البعثة ادوات وأسلحة قديمة من الفلنت (الصوان) تعود الى قبل حوالي (١٥٠٠٠) • كذلك قام أحد اعضاء البعثة هو الدكتور جام بنسخ حوالي (٩٧) نقشا من (العقلة) قرب (شبوة) • وقد نشر فيما بعد بحثا قيما وترجمة لها بالانجليزية أسماه « نصوص العقلة » •

م ــ بريان دو : كان مديرا لادارة الاثار في عدن في الفترة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٧ حتى مجيء الاستقلال • وقد قام خلال هذه الفترة باجراء مسوحات أثرية لكثير من المواقع والاثار في عدن والارياف منها (دار العرائس) و (كودام سيلة) في المحافظة الثانية • و (امعادية) و (وادي شرجان) و (وادي احور) في المحافظة الثالثة • و (وادي ميفعة) و (قانا)و(جردان) و (وادي مرخة) و (حيد بن عقيل) في المحافظة الرابعة • (شبوة) و (العقلة) و (حريضة) و (حصن الغراب) في المحافظة الخامسة • وقد

خصص القسم الأكبر من كتابه الصادر بالانجليزية عام ۱۹۷۱ لوصف هذه المواقع الاثرية .

ن ـ بعثة الدكتور موللر : وقد ترأس الدكتور موللر استاذ الساميات باحدى جامعات المانيا الغربية بعثة مكونة من عدة علماء في الاثار واللهجات وزار المناطق الشمالية من اليمن عام ١٩٧٠ . وقد عاد مرة ثانية الى صنعاء في آخر هذا العام (١٩٧٤) . ونحن لانزال في انتظار ظهور النتائج العلمية لهذه البعثـة .

س ـ سيرجي شيرنسكي : وهو السكرتير العلمي للعلاقات الدوليـة بمعهد علم الاثار التابع لاكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي . وقد قضى الفترة ما بين مارس ـ مايو ١٩٧٢ للتعرف على مجموعات الآثار في متحفي (عدن) و (المكلا) . وكذلك في المعاينة المباشرة للاثار في سائر محافظات الجمهورية . وقد نشر تقريره في اربع حلقات بعنوان (اليمن : مركز هام من مراكز الحضارة الانسانية) وذلك في مجلة (الثقافة الجديدة) العدنية، اعداد اغسطس ـ نوفمبر ١٩٧٤ . وبالاضافة الى ان الباحث قد استطاع أن يتحقق من وجود معبد فريد فوق (حصن الغراب) على أرض احدا قدم موانيء اليمن وهو (قانا) الذي يعود الى القرن الأول قبل الميلاد ، فان اهم الاستنتاجات التي جاء بها المؤلف هي كما يقول بالنص : ص ٥٤ عدد نوفمبر ٧٤ .

« اثبتت اعمال التحقيق ان هناك عددا كبيرا من المعالم الاثرية المثيرة جدا في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية . وهذه المعالم تصور تطـور الحضارة في هذه المنطقة خلال نصف مليون سنة على الأقل . والمعـالم المذكورة تلعب دورا هاما لا من أجل اعادة تكون الصورة الموضوعيـة للتاريخ القديم لسكان (اليمن) فحسب بل ان لها معنى خاصا من حيث حل بعض القضايا النظرية العامة لعلوم التاريخ الحديث وتاريخ تطـور الحضارة العالمية ككل . »

٤ ـ بعثة جامعة باريس ١٩٧٤ ـ ١٩٨٤ : وستركز هـذه البعثة أعمالها في مدينة (شبوة) عاصمة حضرموت القديمة • ولأن شبوة تقع في قلب الصحراء فسيتم البحث خلال الثلاثة شهور الاولى الباردة من كل سنة لمدة عشر سنوات • والشخصية العلمية الديناميكيةوراءهذا المشروع هي الدكتورة (جاكلين بيرين) المتخصصة بالاثار اليمنية • فبالاضافة الى الدراسات الاكاديمية التي نشرتها حول الحضارة اليمنية فقد قامت بدراسات ميدانية في (مسورة) أو (هجر الناب) واثبتت انها كانت عاصمة دولة (أوسان) • اما مشروع (شبوة) الحالي فهو من اجل المحاولة لأن تثبت افتراضا علميا أوليا جاءت به وهو ان ما عرف (بالمحافد) الذي ترجمه العلماء بالحصون ـ ليس الا اماكن لتقطير مياه الندى في الصحراء • فهي تعتقد ان ما تقوم به اسرائيل الآن من مشاريع التقطير في صحراء (النقب) مبني في الاساس على هـذا الاكتشاف اليمني القـديم • واذا ما اثبتت التحقيقات نظريتها هذه فستكون ممـا لا شك فيه من أهـم الاكتشافات العبقرية اليمنيين القدماء • في هذا المضمار بالاضافة الى عبقريتهم في بناء المدرجات الزراعية وأقامة السدود وهندسة وسائل الراي •

٩ ـ والمصدر الاساسي الثاني الذي يجب أن نرجع اليه في بحثنـا عن تاريخ الحضارة اليمنية القديمة بجانب ترجمات النصوص الحميرية هذه هي الأبحاث والكتب الخاصة أو العامة التي كتبت حولها • فهذه الابحاث والكتب هي في الحقيقة مصادر أساسية لأنها اعتمـدت في مرتكزاتهـا وتحليلاتها واستنتاجاتها على النصوص الحميرية المترجمة وهي التي تكوّن المادة عند الباحث أو المؤرخ •

١٠ ـ وهذه الابحاث والكتب تبلغ المئات وقد كتبها علماء مختصون في مختلف فروع الدراسات اليمنية القديمـة من تأريخية واثرية وفنيـة وحضارية ولغوية • وهي منشورة في كثير من المجلات العلمية الأثرية أو السامية أو على شكل كتيبات أو كتب • ومن أهم هذه الدراسات في اللغة

الانجليزية ابحاث ومؤلفات الاساتذة (البريت) و (بييك) و (بيستون) و (براون) و (كاتن تومبسون) و (كليفلانـد) و (محمود الغـول) و (أرفين) و (جام) و (فلبي) و (ولكر) و (بنت) •اما في اللغة اليمنية فتلك التي (لجلازر) و (جر وهمان) و (هوفنر) و (راتجنز) و(فيسمان) و (رودوكاناكيس) و (هومل) و (موورثمان) • وفي اللغة الفرنسية مؤلفات (بيرين) و (ريكمنز) •

١١ ــ اما الابحاث التي يمكننا الرجوع اليها في اللغة العربية لمعرفة شيء عن الحضارة اليمنية أو التاريخ اليمني فهي لا تتجاوز اصابع اليـد الواحدة • فبالاضافة إلى ترجمات الاستاذ خليل يحي نامي لبضع مئات من النصوص الحميرية الى اللغة العربية ، هناك أولا كتاب (لتاريخ العربي القديم) الذي ظهر في الالمانية عام ١٩٢٧ حول تاريخ اليمن القديم وحضارته لمؤلفيه (نيلسن) و (هومل) و (رودو كاناكيس) • وقد قام بترجمته إلى العربية عام ١٩٥٨ الاستاذ فؤاد حسنين استاذ الساميات في جامعة القاهرة وقتذاك • ومما يزيد في قيمة هذا الكتاب الاستكمالات والاضافات التي اضافها المترجـم الى الكتاب • الا ان البروفيسور (بيستون) فـد اثبت مؤخرا ، في بحث نشـره في « جورنال أوف ايكونميك أند سوشيل هستري أوف ذي اوريان » مجلـد ١٥(١٩٧٢) ، بأن كـلا من (هومل) و (رودوكاناكيس) قد وقعا في خطأ فاحش عند ترجمتهما للفظتين اليمنيتين (شعب) و (مكرب) بمعنى (قبيلة) و (الحاكم الديني) • على التوالي• فقد اصبح هذان المفهومان المحور للكتاب ومن هناك تنوقل هـذا الرأي الخاطىء في المؤلفات الأخرى وبذلك اصبح مفهوم نظام الحكم في اليمن القديمة عند العلماء غير ما كان هو في واقع الحال • فقد اثبت البروفيسور (بيستون) في دراسته هذه عن « طبيعة النظام الملكي في الحضارة اليمنية القديمة » (كينج شب إن انشينت ساوت اريبيا) أن لفظة (شعب) اليمنية ليست هي (القبيلة) وانما هي عبارة عن مجموع اثنين أو اكثر من المجتمعات

القروية الزراعية • كما ان كلا من لفظتي (ملك) و (مكرب) هما لقبان لشيء واحد • وقد أتى بنصوص يثبت فيها حالات يكون فيه (الملك) هو نفس (المكرب) • وفي الأخير يثبت البروفيسور (بيستون) خطل مفهوم (رودوكاناكيس) عن شكل الدولة في اليمن القديمة وذلك بسبب انه ــ اقصد رود وكاناكيس ــ اتخذ النظام البيروقراطي الشديد المركزية لمصر الرومانية نموذجا له • فقدسية الملك كانت غريبة عن الحضارة اليمنية القديمة • « فقد كانت السلطة التشريعية العليا في اليمن بيد هيئة تشريعية كان الملك احد اعضائها فقط • لقد كانت وظيفة الملك في الحضارةاليمنية القديمة تتلخص بأخذ المبادرة لاقامة ثم رعاية الاعمال العامة الكبرى وكانت من مسئوليته ايضا التأكد من ان قوانين المجلس التشريعي قد نفذت ثم معاقبة كل من يخرق مثل تلك المراسيم والقوانين • وفي محيط التجارة كان الملك يعمل سوية مع شيخ السوق من أجل ضمان تنفيذ الأنظمة والقوانين التي سنتها الهيئتين التشريعية وتأديب المخالفين لها • وباختصار فا نالملك على الأقل في المرحلة الأولى من التاريخ اليمني القديم كان عبارة عن كبير المنفذين للشعب ولم يكن حاكما مطلقا » •

١٢ ــ الا ان اهم الكتب الشاملة هو كتاب الدكتور جواد علي عن (تاريخ العرب قبل الاسلام) الذي صدر في طبعته الأولى في الخمسينات في ٨ أجزاء • فقد اراده الأستاذ الفاضل آن يكون بمثابة الموسوعة في الجاهلية والجاهليين تتناول كل نواحي الحياة عندهم من سياسية واجتماعية ودينية وعلمية وأدبية وفنية • وقد اعتمد المؤلف على كل من الاخبار بين العرب والابحاث والدراسات الاكاديمية الأجنبية في تأليف هذا الكتاب• وهذا الاعتماد واضح من اسماء الكتب والمؤلفات التي رجع اليها والتي عادة تظهر في حواشي كل صفحة من صفحات الأجزاء الثمانية من الكتاب• وفي اواخر الستينات وبعد ان تكشف للمؤلف مواد اجنبية جديدة في تاريخ العرب قبل الاسلام وبالذات فيما يخص التاريخ اليمني منه نظرا

للاكتشافات الاثرية ولبعض التفسيرات الجديدة للنقوش اليمنية ، فقد بدأ المؤلف بعد ١٩٦٨ يعيد اخراج الكتاب بشكل جديد تماما تحت اسم (المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام) بحيث أصبح مختلفا عن السابق من حيث الحجم والانشاء والتبويب والترتيب والاحكام المتضمنة فيه • وعلى كل حال فالكتاب يبقى صالحا كمرجع لتفصيلاته الكثيرة في أية قضية ترد حيث يقوم المؤلف بتلخيص لآراء العلماء الأجانب المختلفين حول اي من تلك القضايا • الا ان الحاجة تبقى قائمة دائما لمواكبة ما استجد من الاكتشافات والتفسيرات الجديدة حول تاريخ اليمن وحضارته القديمة • وقد رأينا في الفقرة (١١) أعلاه ماذا طرأ مثلا بالنسبة لمفهوم نظام الحكم أو شكل الدولة اليمنية القديمة في غضون السنتين الماضيتين وهو المفهوم الجديد الذي فاتت حتى الطبعة الجديدة من هذه الموسوعة أن تستوعبه •

١٣ ــ وعن العلاقات بين اليمن القديمة والحبشة فهناك كتاب الأستاذ عبد المجيد عابدين (بين الحبشة والعرب) • الا انه عندما تتم ترجمة أو تلخيص كتاب عرفان شهيد ــ المذكور في (٢) أعلاه ــ(شهداء نجران ــ وثائق جديدة) ، عندما يتم أي من ذلكما الى القارىء العربي الذي لا يجيد الانجليزية ، فان كتاب عابدين لن يبقى ذا اهمية في موضوعه بعد ذلك • هذا وقد صدر في العام الماضي (١٩٧٣) كتابان لمؤلفين يمنيين الأول باسم (في تاريخ اليمن) لمطهر الإرياني والثاني باسم (تاريخ اليمن القديم) لمحمد عبد القادر بافقية • والاول عبارة عن ترجمة لمجموعة من النقوش اليمنية بينما الثاني هو محاولة لتعريف القارىء العربي واليمني بالذات بالهيكل العام للتاريخ اليمني القديم المستمد أساسا من المراجع الاجنبية• وبالنسبة لطريقة الهوامش التي اتبعها المؤلف الثاني (كما فعل من قبله المستر دو) فقد كان من الأفضل ان لا تأتي بمثل ذلك التعقيد حيث اصبحت كلها ارقاما في ارقام للمؤلف والكتاب والصفحة معا لا تساعد الا في ارهاب القارىء العام الذي من اجله كتب الكتابان •

بعض الملاحظات العامة حول المصادر الاساسية لتاريخ اليمن القديم :

١٤ ـ بالمقارنة مع فترتي تاريخ اليمن في العصرين الاسلامي والحديث ، فان الصعوبات التي تقابل المؤرخ أو الباحث في فترة تاريخ اليمن القديم اكثر منها من الفترتين الاخريين والسبب في ذلك يعود الى نوعيته وطبيعة مصادر الفترة القديمة حيث انها كما رأينا ذات طبيعة خاصة وتعتمد اساسا على النقوش الحميرية .

١٥ ـ حتى الآن لم تكتشف جميع النقوش الحميرية . فكثير من مصادر الفترة لا تزال مفقودة وبذلك فالحقائق التاريخية التي نعرفها عن تلك العهود لا يمكن ان تكون كافية .

١٦ ـ ثم ان هناك صعوبة اخرى وهي ان جميع النقوش التي اكتشفت حتى الآن لم تترجم كل نصوصها بحيث يستفيد المؤرخ من مادتها . ان كثيرا منها لا تزال مغلقة تنظر بشوق ولوعة من يدرسها ويشرحها وينشرها للملأ . وهذه النقوش غير المشروحة موجودة نصوصها في المدونات العلمية المعروفة . وكل واحدة منها لها رقم تعرف به عند العلماء . فالعادة أن توسم النقوش باسماء مكتشفيها أو جامعيها . فمثلا الـ (١٥٨) نقشا التي استنسخها محمد توفيق من منطقة الجوف (شرق اليمن) اصبحت تعرف باسمه فيقال نقش رقم : توفيق ١ ، ٢ وهكذا حتى نصل الى رقم : توفيق ١٥٨ .

١٧ ـ ثم ان تلك النقوش التي شرحت وعرّبت قد اختلف العلماء في بعض نصوصها والفاظها . وهذه الاختلافات في الشروح عائدة بطبيعة الى افتقارنا الى وجود قاموس كامل شامل لمعاني الفاظ هذه اللغات اليمنية. واذا وجدت مثل هذه الاختلافات في الالفاظ والمعاني والتفسيرات فان ذلك سينعكس بلا شك على فهمنا للحقائق التاريخية عن الفترة ذاتها . وقد رأينا كيف ادى خطأ تفسير لفظتي (شعب) و (مكرب) اليمنيتين الى قلب مفهوم نظام الحكم .

١٨ ـ كذلك فالنقوش التاريخية الموجودة منها قليلة . واطول نقش تاريخي وجد هو نقش (صرواح) أو نقش النصر . وهو يحتوي على حوالي (٢٠٠٠) كلمة (يوجد نص النقش بالانجليزية في كتاب الدكتور فخري عن رحلته الاثرية الى مأرب المنشور بالقاهرة ١٩٥١ وقد لخصه الى العربية محمد عبد القادر بافقية في كتابه الصادر العام الماضي بعنوان: تاريخ اليمن القديم ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٦٥ ـ ٧٦) . وهذا النقش يتعلق باخبار سبأ وبحروب أحد ملوكها (كرب ايل وتر) . وان وجدت مثل هذه النقوش التاريخية فهي عادة قصيرة وموجزة وتتضمن الكثير من اسماء الملوك والقبائل . ان معظم النقوش التي وجدت تتعرض لاشياء شخصية تتعلق بتقديم الهبات أو النذور للمعابد أو الآلهة عرفانا بالجميل لشفاء من مرض أو لعودة سالمة من سفر أو لمنح ذرية أو لزيادة في الغلال أو لهطول في الأمطار أو لانتصار على الأعداء . كذلك فهناك عدد لا بأس بها من النقوش الخاصة باصلاح السدود ووسائل الري وشئون الزراعة . وكثير من المصطلحات الزراعية القديمة لا تزال تستخدم في اليمن الى يومنا هذا . وفي الناحية الاقتصادية فقد وجدت نقوش طويلة تنظم الضرائب وشئون التجارة واعمال البيع والشراء . وكذا في النواحي التشريعية والقانونية لتنظيم شئون المجتمع .

١٩ ـ واخيرا فالذي يزيد من صعوبة معرفتنا معرفة صحيحة بالاخبار التاريخية وترتيبها ترتيبا زمنيا هو تجاهل تلك النقوش لذكر التواريخ التي كتبت فيها ، وان ذكرت عليها بعض تلك التواريخ فتكون باسماء اشخاص كانوا يعيشون آنذاك وهم قد يكونون مهمين ومعروفين في ايامهم ولكننا لا نستطيع الآن تحديد عصرهم . وكنتيجة حتمية لهذا القصور في التواريخ فانه يصعب تحديد بدايات الدول اليمنية القديمة ونهاياتها وكذلك ترتيب سني ملوكها ترتيبا زمنيا .

مصادر اليمن الاسلامية وبعض الملاحظات العامة حولها :

٢٠ ـ مصادر تاريخ اليمن الاسلامية ذات طبيعة خاصة وتختلف عن مصادر اليمن القديمة • وهي عبارة عن مئات من المؤلفات كتبها مؤرخون يمنيون عاصروا الاحداث خلال العصور الوسيطة • والجزء الأكبر من هذه المؤلفات لا يزال مخطوطا وموجودا في ماكتبات لجامع الكبير بصنعاء ، او المكتبات العامة في الخارج مثل : الامبر وزيانا والفاتيكان والمتحف البريطاني وليدن ودار الكتب المصرية ومعهد المخطوطات بالجامعة العربية واستابتول أو في المكتبات الخاصة في بعض المدن اليمنية الأخرى كتريم وسيئون وزبيد وحجة وصنعاء وتعز وذمار • والمنشور من هذه المخطوطات لايزال قليلا ، وللعلماء الأجانب فضل الزيادة في تحقيق ونشر وترجمة اولى المخطوطات اليمنية التاريخية في مطلع هذا القرن ، بل وفي المحافظة على آلاف من المخطوطات اليمنية الأخرى في انواع المعارف الأخرى وذلك في المكتبات العامة في الخارج حيث يستطيع الرجوع اليها كل دارس أو يطلب نسخا مصورة منها من اراد ذلك •

٢١ ـ وانواع هذه المخطوطات التاريخية مختلفة من حيث الشكل والمضمون • فمن حيث محتوياتها فهناك أولا المؤلفات العامة التي تؤرخ لجميع الدول اليمنية التي تداولت حكم اليمن الاسلامية حتى زمن المؤلف عادة • من هذه الكتب (تاريخ اليمن) لعمارة ، و (بهجة الزمن) لعبد الباقي ، و (غاية الاماني في اخبار القطر اليماني) ليحي بن الحسين • والنوع الثاني من هذه المصادر اكثر تفصيلا وخاص بدول معينة ككتاب الخزرجي (العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية) ، أو مؤلف المحلي (الحدائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية) ، أو (كشف اسرار الباطنية واخبار القرامطة) للحماري ، أو (السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز في اليمن) لابن حاتم ، أو البرق اليماني في الفتح العثماني) للنهرولي • اما النوع الثالث فخاص بالمدن مثل (تاريخ ثغر عدن) لبا

مخرمة ، أو (تاريخ صنعاء) للرازي ، أو (بغية المفيد في اخبار زبيد) لابن الربيع ، أو (بهجة السمر في اخبار بندر سعاد (يعني الشحر) المشتهر لبا سباع • ويختص النوع الرابع بتاريخ لشخصيات حاكمة مثل (الدرة المضيئة في السيرة القاسمية) للجرموزي ، أو (سيرة الامام الهادي يحي ابن الحسين) • اما النوع الخامس فهو كتب التراجم مثل (الجامع الوجيز في وفيات العلماء ذوي التبريز) للجنداري ، أو (مطلع الأقمار ومجمع الانهار في تراجم علماء ذمار) لحيدرة ، أو (البدر الطالع) للشوكاني ، أو (طبقات فقهاء اليمن) لابن سمرة •

٢٢ ــ ومن حيث الشكل أو الاسلوب في تدوين هذه المؤلفات التاريخية فقد تنوع هو ايضا • فبعض المؤرخين اتبع اسلوب الحوليات في رصد الاحداث سنة بسنة كمؤلفات يحي بن الحسين والخزرجي وبامخرمة (في قلادة النحر) • والبعض الآخر اتبع الاسلوب الاخر في التأريخ للدول والشخصيات كالجندي وعمارة وعبد الباقي عبد المجيد • ولجأ فريق ثالث الى تدوين تاريخ اليمن الاسلامية شعرا ، ومن ذلك قصيدة (البسامة) لابن الوزير و (بلوغ المرام شرح مسك الختام فيمن ملك اليمن من ملك وامام) للعرشين ــ وقد قام بتحقيقها ونشرها المرحوم الاب انستاس الكرملي من العراق عام ١٩٣٩ •

وعلى العموم فالمستوى اللغوي العام لهذه المؤلفات التاريخية اليمنية لا يختلف كثيرا عن المستوى اللغوي للمؤلفات التاريخية في البلدان الاسلامية الاخرى خلال العصور الوسطى • الا ان المستخدم لهذه المصادر اليمنية يجب أن يكون قادرا على فهم مفردات ومعاني بعض نصوصها ذات الطابع المحلي الصرف وكذلك اسماء البقاع والاماكن ومواقعها الجغرافية • وفي بعض الحالات فان رداءة الخط لهذه المخطوطات أو عدم استخدامه للتنقيط يكون عائقا لقراءة النصوص وفهمها • وعلى اية حال فان معظم المخطوطات مجلدة تجليدا انيقا وصفحاتها متينة مصقولة وذات خطوط

جميلة متنوعة بحيث يمكن قراءتها والاستفادة منها بسهولة •

٢٣ ــ من حيث المنهج أو الخط العام لهذه المؤلفات اليمنية ، فهي لم تؤرخ عموما الا للنواحي السياسية أو الحربية ، اما النواحي الاجتماعية والثقافية والحضارية فتكاد ، باستثناء بعض الاشارات المقتضية هنا أو هناك ، ان تكون معدومة • لذا فان الباحث الحديث الذي يركز على تتبع تاريخ تطور الافكار والحركات الاقتصادية لن يستطيع أن يخرج بصورة متكاملة عن الموضوع مدعومة بالنصوص والاسانيد • الا انه بالرجوع الى المؤلفات اليمنية الأخرى في الأدب والشعر ومعاجم الاسماء والاماكن والتقاليد والفقه والشريعة والفتاوي والزراعة ، سيتمكن الباحث من ملافاة بعض النقص في الجوانب الثقافية والاجتماعية من التاريخ اليمني • ومع ذلك فان هذه الطريقة الثانية مضنية للغاية لأن اعداد هذه المؤلفات الأخرى تبلغ الالاف ولا يزال معظمها مخطوطا أو غير مفهرس بحيث يصبح على الباحث قراءة مادة الكتاب كاملا كي يتصيد بعض تلك الاشارات الاجتماعية أو الثقافية أو الاقتصادية القليلة المبثوثة في بطونها •

٢٤ ــ ثم أن معظم هذه المؤلفات التاريخية هي مؤلفات رسمية أو شبه رسمية لمختلف الدول التي تداولت حكم اليمن خلال العصور الوسيطة • فهي عموما تسجل لوجهة النظر التي يقرها ويرضى بها الحاكم ويجازي عليها • والواقع ان المؤرخين اليمنيين لم يمارسوا الكتابة التاريخية الا في ظل الحكومات المستقلة بعد مطلع القرن الثالث الهجري • اما في الفترة التي كانت البلاد تحت الخلافة الاسلامية فان معلوماتنا عنها مستمدة من الكتب التاريخية العامة التي ألفت حول التاريخ الاسلامي خارج اليمن • والمادة المتعلقة باليمن شحيحة ولا تتعدى في غالب الاحيان اسماء الولاة الذين كان الخلفاء يندبونهم اليها • ولما بدأت الدول اليمنية المختلفة تظهر وتتصارع على الساحة اليمنية ، بدأ المؤرخون يظهرون لتسجيل نشاطات الدول خاصة في الميادين الحربية • والمطلع على تاريخ هذه الدول خلال

السبع مئة عام تقريبا بين القرن التاسع والقرن السادس عشر سيجد انه لم تخل سنة من هذه السنوات من المعارك والحروب • فقد وجد مؤرخ أو مؤرخون لكل دولة من هذه الدول تقريبا ، فللدول السنية مؤرخوها وللدول الشيعية مؤرخوها • وبعض الكتب عامة تؤرخ لجميع الدول ولكنها في الأخير تركز على احداث الدولة التي يعيش المؤرخ في ظلها أو توافق هواه • بل اننا نجد ان بعض المؤرخين من أفراد الأسر الحاكمة ذاتها أو انهم اصحاب الامر فيها كمؤرخي الدولة الزيدية والدولة النجاحية والدولة الرسولية • وكيفما كان الأمر فان التواريخ اليمنية عموما تبقى معتدلة وغير متحيزة تحيزا كاملا عند التاريخ للدول الأخرى• فاذا اخذنا مثلا أحسن واشمل التواريخ العامة التي تؤرخ لمختلف دول اليمن من عهد الرسول حتى طرد الاتراك في بداية العصور الحديثة في القرن السابع عشر، سنجد أن مؤلفه يحي بن الحسين ، بالرغم من انه زيدي المذهب ومن افراد الأسرة الحاكمة ، فقد كان موضوعيا في اكثر ما كتبه عن الدول السنية التي عاصرت الدولة الزيدية • ونفس هذا الحكم يمكن أن يقال عن كتاب عمارة المؤرخ السني ، الذي ارخ فيما أرخ ، للدول الفاطمية وآل نجاح من الاحباش •

٢٥ ـ بجانب هذه المخطوطات التاريخية اليمنية التي تعتبر المصدر الأساسي الأول لتاريخ اليمن الاسلامية ، هناك مصدر أساسي ثاني هو الدراسات الجامعية الاكاديمية التي قام بها بعض الباحثين العرب والاجانب من أجل الحصول على شهادتي الماجستير أو الدكتوراة في احدى فترات تاريخ اليمن الاسلامية • وقد بدأت هذه الدراسات في الجامعات الأجنبية عن طريق تحقيق ونشر وترجمة بعض المخطوطات الى اللغات الأجنبية كما فعل العلامة الانجليزي كاي بالنسبة (لتاريخ عمارة) عام ١٨٩٢ ، والاستاذ براون بالنسبة لكتاب الخزرجي (العقود اللؤلؤية) والدكتور ماضي بالنسبة لقسم من تاريخ (انباء الزمن في أخبار اليمن) ليحي بن الحسين، والدكتور شومان بالنسبة لقسم من مخطوطة (قلادة النحر في وفيات اعيان الدهر)

لبا مخرمة عن فترة من حكم الدولة الطاهرية • ومحمد صالحية بالنسبة لمخطوطة (الفضل المزيد على نعمة المستفيد في أخبار مدينة زبيد ـ جامعة عين شمس ١٩٧٠) • وآخر هذه المخطوطات عند الفترة اليمنية الاسلامية التي تحقق وتترجم هي مخطوطة الملك الرسولي العباس بن علي ابن داود الغساني المتوفي ٧٧٨ هجرية بعنوان (بغية الفلاحين) • ويقوم بتحقيقها حاليا (١٩٧٤) البروفيسور سارجنت من جامعة كمبردج •والنوع الآخر من الدراسات الاكاديمية الجامعية عن تاريخ اليمن الاسلامية التي قام بها بعض الباحثين العرب والاجانب من أجل الحصول على شهادتي الماجستير والدكتوراة تركز حول تاريخ دولة واحدة يمنية او فترة من فترات كما فعل الدكتوران فان ارن دونك وتريتون بالنسبة لـ (ظهور الامامة الزيدية في اليمن) أو (ائمة صنعاء) على التوالي • أو (تاريخ الدولة اليعفرية)لجايدز أو (الصليحيون في اليمن) لحسن سليمان محمود ـ وقد ساعد المجمع العراقي الدكتور محمود في نشر كتاب اكاديمي عام يغطي كل الفترة بعنوان (تاريخ اليمن السياسي في العصر الاسلامي ، ١٩٦٩) ـ أو (الحياة السياسية في اليمن في القرنين الثالث والرابع الهجريين) لصابر دياب ، أو (الايوبيون في اليمن) لمحمد عبدالعال• ويقوم أحد الطلبة العراقيين الآن (١٩٧٤) بالاعداد لشهادة جامعية عليا من جامعة بغداد في موضوع القبائل اليمنية المهاجرة الى مصر في صدر الاسلام •

ان كل هذه الدراسات الاكاديمية وامثالها تكون اذن المصدر الاساسي الثاني لتاريخ اليمن الاسلامي ، وعلى الباحث في تاريخ اليمن ان يرجع اليها • الا ان معظمها لا تزال مخطوطة ومحفوظة في مكتبات الجامعات التي أجريت الدراسة فيها • وبما ان العدد الأكبر من هذه الدراسات باللغات الاجنبية فان معرفة اللغة الأجنبية ضروري لمن يريد ان يستفيد منها•

سلطان ناجي

سياسة الدولة العباسية في عصرها الأول مع الأمويين في الأندلس

للدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي
بجامعة الاسكندرية

استئصال شافة بني أمية في المشرق :

لم تضع معركة الزاب حدا لمقاومة الأمويين ، فقد أعلن أنصار الأمويين الثورة على العباسيين في حمص وقنسرين والجزيرة وحوران ، واتخذ الثوار الأعلام البيض شعارا لهم ، ولكن ابا العباس السفاح تمكن من اخماد هذه الثورات بالقوة حينا وبالتسوية السلمية [1] حينا آخر ،واضطر أبو العباس الى تسيير أخيه أبي جعفر المنصور لمساعدة الحسن بن قحطبة في حصاره لابن هبيرة في واسط ، فاستمر العباسيون يحاصرون هذه المدينة نحوا من ١١ شهراً لاقوا خلالها مقاومة عنيفة من ابن هبيرةوقواته، وحاول العباسيون حرق واسط عن طريق سفن ملأوها حطبا وأضرموا فيها النار ثم وجهوها الى المدينة لتحرق ما يقابلها ، ولكن ابن هبيرة كان يبادر بسحب هذه السفن بواسطة حراقات مزودة بكلاليب [2] تجر تلك السفن ، وعمد أبو العباس الى التفريق بين قوات ابن هبيرة ، وأبت

---

(١) وذلك عن طريق الوعود والاموال .

(٢) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، طبعة دار القاموس الحديث ، ج ٩ ص ١٤٤ .

اليمنية أن تقاتل لتعين مروان بن محمد ، فقالت : « لانعين مروان وآثاره فينا ظاهرة » ، بينما رفضت النزارية أن تقاتل حتى يقاتل معها اليمنية ،ثم ان أبا العباس أخذ يكاتب اليمانية من اتباع ابن هبيرة ، وأطعمهم بالوعود، فأجابه اليمنية وعلى رأسهم زياد بن صالح الحارثي عامل ابن هبيرة السابق على الكوفة وأقرب أصحابه اليه ، وعلى هذا النحو خذل اليمنية ابن هبيرة، وتخلى عنه النزارية ، ولم يبق معه سوى الصعاليك والفتيان (٣) .

ولم يجد ابن هبيرة بدا من فتح باب التفاوض مع العباسيين خاصة وقد وصلته الانباء بمصرع مروان بن محمد ، فطلب الصلح مع الأمان، فاجيب الى طلبه ، وصدر له كتاب أمان شرط له فيه ما سأل ، وختمه أبو العباس (٤) ، ولكن العباسيين لم يفوا بعهودهم له : فقد وقع في يد أبي العباس كتب من ابن هبيرة الى محمد بن عبدالله بن حسن يبايع له فيها ويعلن أن لديه أموالا وعدة وسلاحا وأن معه عشرين ألف رجل ، فكتب أبو العباس الى أبي جعفر المنصور يأمره بضرب عنق ابن هبيرة ، كما كتب أبو مسلم الخراساني يحرض المنصور على قتله ، وينصحه بأن يتخلص منه ،لأن أمر العباسيين لا يستقيم مادام ابن هبيرة حيا : فوجه المنصور لقتله رجلا مضريا يقال له حازم بن خزيمة التميمي ، أتاه في جماعة وهو جالس في رحبة القصر بواسط فقتلوه ، وقتلوا قواده وأصحابه عن آخرهم (٥) . وبذلك تخلص أبو العباس من خطر الأمويين العسكري ، ولكن بقي عليه أن يتخلص من بقايا البيت الأموي ، ليتحقق له بذلك القضاء على كل نفوذ لهذا البيت بين أنصاره والمتعصبين له ، فلا يفكر هؤلاء الأنصار في البحث عن أمير أموي يستعيد سلطان الأمويين من جهة ، وليشبع انتقامه الشخصي منهم لما فعلوه ببني هاشم عامة من قتل وسجن وتعذيب وتشريد .

(٣) نفس المصدر .

(٤) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، طبعة صادرة بيروت ، ج٢ ص٣٥٣

(٥) نفس المصدر ، ص ٣٥٤ .

وتنفيذا لهذا المبدأ تتبع العباسيون بقيادة عبدالله بن علي العباسي مروان بن محمد بالشام حتى فر إلى مصر مارا بالأردن وفلسطين ، وكان عبدالله بن علي قد وجه وهو على نهر ابي فطرس بفلسطين صالح بن علي في طلب مروان بن محمد ، فسار صالح الى الرملة ، ومنها الى ساحل البحر حيث جمع السفن ، « وتجهز يريد مروان وهو بالفرماء ، فسار على الساحل والسفن حذاءه في البحر حتى نزل العريش » ، ولكن مروان فر منها الى الفسطاط ثم عبر النيل وقطع الجسر ، وصالح يتتبعه من موضع لي موضع حتى أحاط به في كنيسة نزل بها في أبي صير ، فقتلوه واحتزوا رأسه ، وبعث بها صالح بن علي الى أبي العباس (٦) . ولما وصل رأس مروان الى أبي العباس ــ وكان بالكوفة ــ ورآه ، سجد ، ثم رفع رأسه وقال : « الحمد لله الذي أظهرني عليك وأظفرني بك ، ولم يبق ثأري قبلك وقبل رهطك أعداء الدين ، وتمثل :

لو يشربون دمي لـم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني (٧) »

فطلب الثأر من البيت الاموي كان هدفا من أهداف العباسيين من وراء تتبعهم للامويين ، بدليل ما رواه المسعودي اذ يقول عندما تعرض لذكر مصرع مروان بن محمد : « فلحقوه بمصر وقد نزل بوصير ، فبايتوه وهجموا على عسكره ، وضربوا بالطبول وكبروا ، ونادوا : يا لثارات ابراهيم » (٨) . وذكر أيضا أنه لما أتاه رأس مروان ووضع بين يديه سجد وأطال السجود ثم حمد الله وقال : « ما أبالي متى طرقني الموت ، فقد قتلت بالحسين وبني أبيه من بني أمية مائتين ، وأحرقت شلو هشام بابن عمي زيد بن علي ، وقتلت مروان بأخي ابراهيم » (٩) .

---

(٦) الطبري ، ج ٩ ص ١٣٦ ــ ابن الأثير ، طبعة صادر ، ج ٥ ص٤٢٧

(٧) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٢٧ .

(٨) المسعودي ، مروج الذهب ، طبعة محي الدين عبد الحميد ، ج ٣ ص ٢٤٦ .

(٩) نفس المصدر ، ص ٢٥٧ .

ومثل آخر نسوقه للاستدلال على هدف آخر من أهداف العباسيين سالفةالذكر وأعني به الرغبةفي القضاء على بني أميةقضاء مبرما واستئصال شأنتهم حتى يفقد أنصارهم كل أمل في إحياء دولتهم ، فقد كان سليمان بن هشام بن عبد الملك قد استأمن الى أبي العباس ، « فقدم معه بابنين له، فأكرمه أبو العباس وبره وأجلسه وابنيه على النمارق والكراسي . فكان أبو العباس يجلس بالعشيات ، ويأذن لخواصه وأهل بيته ، فدخل عليه أبو الجهم ليلة وقد أذن لأهله وخواصه ، فقال له : « ان أعرابيا أقبل يوضع على ناقة ، حتى أناخها بالباب وعقلها ، ثم جاءني وقال : استأذن لي علي أمير المؤمنين » فقلت له : اذهب وضع عنك ثياب سفرك . وعد علي ، سأستأذن عليه . فقال : اني آليت ألا أضع عني ثوبا ولا أحل لثاما حتى أنظر الى وجهه . قال (أبو العباس) : فهل أنبأك من هو ؟ قال: نعم ، زعم أنه سديف مولاك ، فقال : « سديف ؟ أئذن له »، فدخل أعرابي كأنه ممجد ، فوقف ، فسلم عليه بامرة المؤمنين ، ثم تقدم فقبل بين يديه ورجليه ، ثم تأخر ، فوقف مثله ثم اندفع فقال :

أصبح الملك ثابت الأساس ... بالبهاليل من بني العباس
يا أمير المطهرين من الرجـ ... ـس ويا رأس منتهى كل رأس
أنت مهدي هاشم وهداها ... كم أناس رجوك بعد أياس
لا تقيلن عبد شمس عثارا ... واقطعن كل رقلة وغراس
افنها أيها الخليفة واحسم ... عنك بالسيف شأنة الأرجاس
انزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والاتعاس
ولقد ساءني وساء قبيلي ... قربهم من نمارق وكراسي [10]

---

(١٠) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٣٦٠ . وروى ابن الأثير هذا الخبر مع تعديل طفيف في الأبيات الشعرية فذكر أن سديف دخل على السفاح وعنده سليمان ابن هشام بن عبد الملك وقد أكرمه ، فقال سديف :

لا يغرنك ما ترى من الرجال ... ان تحت الضلوع داء دويا

فأمر أبو العباس أبا الجهم باخراجهم وضرب أعناقهم ، ففعل وأتاه برؤوسهم وتتبع عبدالله بن علي العباسي بالشام بقايا البيت الأموي رجالا وأطفالا بالقتل تمهيدا للقضاء عليهم وتصفية البيت الأموي من أمرائه الأحياء، بل أمر أبو العباس بتعقب هؤلاء الأمراء حيث كانوا وقتلهم أينما وجدوا ، وقد أمر بقطع يدي أبان بن معاوية بن هشام ورجليه ثم طيف به في كور الشام ينادي على رأسه : هذا أبان بن معاوية فارس بني أمية ، حتى مات. كذلك قتلوا النساء والصبية ، فذبحوا عبدة بنت هشام بن عبد الملك ذبحا (١١) ؛ وقتل سليمان بن علي بالبصرة جماعة من بني أمية ، وأمر بهم فسحلوا في طرقاتها حتى ماتوا فأكلتهم الكلاب ، كما قتل يحيى بن محمد العباسي أعدادا كبيرة من أهل الموصل (١٢) ، ولهذا تفرق بنو أمية في الآفاق للنجاة بأرواحهم من بطش العباسيين بهم ، وكان فيمن فر منهم عبد الواحد ابن سليمان ، والعمر بن يزيد ، وعمرو بن معاوية بن عمرو بن سفيان بن عتبة بن أبي سفيان ، فعمد بنو العباس الى التظاهر بالأسف والندم على ما اقترفوه من آثام في حق بني أمية ، وبسطوا لهم أمانا يخدعونهم ، حتى يجمعوهم ثم يضربوا رقابهم جميعا فيقضوا عليهم بذلك دفعة واحدة. وعلى هذا النحو وزع عبدالله بن علي المنشورات في كور الشام بأن « أمير

←

فضع السيف وارفع السوط حتى   لا ترى فوق ظهرها أمويا

فقال سليمان : قتلتني ياشيخ ، فدخل السفاح وأخذ سليمان فقتل (ابن الأثير ج ٥ ص ٤٢٩) . أما الأبيات المذكورة بالمتن فينسبها ابن الأثير الى شبل بن عبدالله — مولى بني هاشم — على عبدالله بن علي وعنده من بني أمية نحو تسعين رجلا على الطعام ، فأنشده شبل الابيات المذكورة ، فأمر بهم عبدالله فضربوا بالعمد حتى قتلوا (نفس المصدر ، ص ٤٣٠).

(١١) أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، مدريد ، ١٨٦٧ ص ٤٧.

(١٢) وسبب ذلك ما ظهر منهم من محبة بني أمية وكراهة بني العباس (ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٤٤) .

المؤمنين قد ندم على ما كان في بني أمية وأحب البقاء ، وقد أمرني بتأمينهم ، فقد أمنتهم ، فلا أعلمن أحدا يعرض لهم بمكروه » [١٣] . فاستأمن أبو العباس بذلك بضعا وسبعين رجلا ، وقيل ثمانين ، منهم عبد الواحد بن سليمان والغمر بن يزيد والأصبغ بن محمد بن سعيد . وهكذا أخذ العباسيون كلما أتاهم أموي قربوه وأنزلوه معسكر صالح بن علي بالقرب من نهر أبي فطرس بفلسطين ، وأعطوه العهود والمواثيق ، وتسامع بذلك أمراء بني أمية الفارين في انحاء الأرض ، وكانوا قد ملوا حياة التشرد ، وأمضهم تعب التنقل مستتكرين لصاحبهم الرعب والخوف من الوقوع في أيدي السلطات العباسية ، فتداعوا من كل فج أملا في الظفر بالأمان وبدء حياة يسودها الاطمئنان ، ولكن نفرا من أمراء بني أمية ـ أكثر حذرا ـ تشككوا في صدق هذا الأمان ، فلم يضطربوا مع من اضطرب في المعسكر من بني أمية ، ولم يتعجلوا الذهاب طلبا للأمان وأثروا التريث والانتظار وترقب الأحداث على مقربة من المعسكر العباسي ، فاذا ما حصل الجميع على الأمان أمكنهم أن يقدموا أنفسهم وينالوه بدورهم ، ومن بين هؤلاء المترقبين المتحرزين الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي قدر له أن يحيى دولة بني أمية في الأندلس [١٤] . فلما اكتمل بنو أمية في معسكر عبدالله بن علي أمر بهم فقتلوا وكان فيمن قتل : محمد بن عبد الملك بن مروان ، والغمر بن يزيد ، وعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، وسعيد ابن عبد الملك ، وأبو عبيدة بن الوليد بن عبد الملك . فلما فرغ عبدالله ابن علي منهم قال :

بني أميـــة قد أفنيت جمعكم ... فكيف لي منكم بالأول الماضي
يطيب النفس أن النار تجمعكم ... عوضتم من لظاها شر معتاض

---

(١٣) اخبار مجموعة ، ص ٤٧ .

(١٤) عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس . بيروت ١٩٦٢ ص ١٧٤ وما يليها .

منيتم ، لا أقال الله عثـرتكم بليث غاب إلى الأعداء نهاض
إن كان غيظي لفوت منكم فلقد منيت منكم بما ربي به راض (١٥)

وفي الحجاز قتل داود بن علي العباسي من ظفر به من بني أمية بمكة والمدينـة (١٦) .

ويأتي المسعودي برواية تعبر عن كراهية العباسيين للامويين وارتياحهم بالتخلص منهم ، فقد ذكر ابن دأب (١٧) ، قال : « دعاني الهادي في وقت من الليل لم تجر العادة أنه يدعوني في مثله ، فدخلت اليه ، فاذا هو جالس في بيت صغير شتوي ، و قدامه دفتر صغير ينظر فيه ، فقال لي : يا عيسى ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين . قال : اني أرقت في هذه الليلة ، وتداعت إلى الخواطر ، واشتملت علي الهموم ، وهاج علي ماجرت إليه بنو امية من بني حرب وبني مروان في سفك دمائنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذا عبدالله ابن علي قد قتل منهم على نهر أبي فطرس فلانا حتى أتيت على تسمية أكثر من قتل منهم ، وهذا عبد الصمد بن علي قد قتل منهـم بالحجاز في وقت واحد نحو ما قتل عبدالله بن علي ، وهو القائل بعد سفكه دمائهم :

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها أخذي بثأري من بني مروان
ومن آل حرب ليت شيخي شاهد سفكي دماء بني أبي سفيـان

قال ابن دأب : فسر والله الهادي ، وظهرت منه أريحية ، فقال : ياعيسى داود بن علي هو القائل ذلك والقائل لمن ذكرت بالحجاز ، ولقد أذكرتنيهما

---

(١٥) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٣١ .

(١٦) نفس المصدر ، ج ٥ ص ٤٤٨ . وذكر اليعقوبي انه أوثق جماعة منهم في الحديد ووجههم الى الطائف حيث قتلهم (اليعقوبي ، ج٢ص٣٥٢).

(١٧) هو عيسى بن دأب من اهل الحجاز ، وكان أكثر أهل عصره أدبا وعلما ومعرفة بأخبار الناس وايامهم ، وكـان الهادي العبـاسي يـدعوه لمسامرته ، فيدعو له متكأ ، ولم يكن غيره يطمع منه في ذلك (المسعودي، ج ٣ ص ٣٢٥) .

حتى كأني ما سمعتهما • قلت : يا أمير المؤمنين ، وقد قيل إنهما لعبدالله ابن علي ، قالهما على نهر أبي فطرس • قال : قد قيل ذلك (١٨) •

قيام دولة بني أمية في الأندلس على يد الأمير عبدالرحمن بن معاوية الداخل:

رأينا كيف غدر العباسيون بالأمويين في أبي فطرس وتتبعوا بقايا البيت الأموي بالقتل اما اشباعا لغريزة الانتقام أو رغبة في التخلص منهم فتستقر دعائم دولة بني العباس ويصفو لهم الأمر ، الا أن أميرا من البيت الأموي البائد هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام نجح في الافلات من قبضتهم رغم المحاولات العديدة التي بذلها المسودة لاقتناصه ، واستطاع أن يصل سليما الى كورة فلسطين ، وهناك التقى بغلاميه بدر وبسالم بن شجاع غلام شقيقته (١٩) ، وكانا يحملان اليه نفقة وشيئا من جوهر، وانطلق معهما من موضع الى موضع متخفيا حتى وصل الى مصر ، ثم تابع سيره من مصر الى برقة حيث أقام بعض الوقت مستترا ، ثم واصل سيره غربا حتى أوغل في إفريقية ، وقد توافى بها نفر من أهل بيته ، وكان يلي افريقية والمغرب الأوسط منذ أيام مروان بن محمد في سنة ١٢٩ هـ رجل يعرف بعبدالرحمن بن حبيب الفهري استقل بولايته منذ أن قتل مروان وسقطت دولة بني أمية ، فخرج عن طاعة الخليفة العباسي السفاح ثم المنصور ، وكان ابن حبيب يخشى من وفود العناصر الأموية الى بلاده ولوذها بأرضه ، وكان يخاف بوجه خاص من الأمير عبد الرحمن بن معاوية الذي كان يحدوه الأمل في احياء دولة بني أمية بأرض المغرب تحقيقا لنبوءة تنبأ له بها مسلمة بن عبد الملك ، فرسخت في أعماق نفسه وهو ابن عشر سنوات وكبرت مع الأيام حتى أصبحت هدفا يسعى ابن معاوية الى تحقيقه ، فجد ابن حبيب في مطاردته للتخلص منه •

---

(١٨) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٣٢٩ •

(١٩) المقرى ، نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب ، طبعة محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ج ١ ص ٣١٢ •

وقاسى عبد الرحمن بن معاوية مرارة العيش في أرض المغرب طريدا شريدا ، واحتمل آلام الفرار والاختفاء دون ضعف أو استسلام ، الى أن استقر به المطاف عند أخواله من قبيلة نفزة ، وكانت تنزل قريبا من سبتة[٢٠] معبر الأندلس . وكانت الأندلس وقتئذ تموج بالفوضى والاضطراب بسبب الفتن والعصبيات القبلية ، وهنا لاحت لابن معاوية بارقة من الأمل ، فلا بد له وهو سليل خلفاء بني أمية العظام أن يجد لنفسه وسط هذا الصراع مجالا يجدد فيه دولة أجداده ، وتملكه هذا الأمل تملكا شديدا ، وشرع في استغلال هذا الوضع لمصلحته ، فبدأ من جديد محاولاته التي أخفقت في المغـرب .

واتصل وهو بأرض المغرب بموالي المروانية في الأندلس وهو حزب كان مواليا للامويين ، وتم الاتصال عن طريق مولاه بدر ، وبفضل هـؤلاء المروانية استطاع أن يعتمد على العصبية اليمنيـة الموتورة من المضريـة والقيسية ، وكان اليمنية يتلهفون لنيل ثأرهم من المضرية الذيـن أطاحوا بسلطانهم ، فلما عرض عليهم بدر مولى عبد الرحمن بن معاوية رغبة مولاه في دخول الأندلس بشرط أن تساعده اليمنية وتنصره ، رحبوا به ترحيبا بالغا [٢١] ، وأبدوا استعدادا طيبا لقبوله أميرا على الأندلس بلا منازع، وما أن وصلت هذه الانباء الى الأمير عبد الرحمن حتى بادر بركوب البحر الى الأندلس فدخلها في آخر ربيع الثاني سنة ١٣٨ (٧٥٥م) ونزل بالمنكب، واستقبله موالي المروانية استقبالا حافلا أنساه ما عاناه في تغريبه من آلام التشريد ومشقة المطاردات ، وأقبل اليه اليمنية من كور الأندلس ،واستطاع ابن معاوية بفضل المعيته وذكائه أن يقتحم وحده من أمراء بني أمية المشردين هذه البلاد في وقت نشبت فيه الاحن بين اليمنية والمضريـة ، فأصفقت

---

(٢٠) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٦٦٤ .

(٢١) راجع التفاصيل في تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ١٧٩ - ١٨٢ .

اليمنية على أمره وآزرته ، وبايعه كثير من جند الأندلس ، وتوافت إليه جنود الأمصار ، وتضخم عدد أنصاره ، واستمال قلوب الناس بحسن سياسته ، ورجاحة فكره وحيويته ونشاطه ، حتى انقاد له كل أبي ، وأطاعه كل عصي ، واستطاع أن يهزم يوسف الفهري والي الأندلس ومن اعتمد عليهم من القيسية بزعامة الصميل بن حاتم بن ذي الجوشن في موقعه المصارة التي جرت في ظاهر قرطبة في العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨هـ، وتعتبر هذه الواقعة أخت واقعة مرج راهط التي وقعت في أرض الشام في سنة ٦٤ هـ . وبانتصار عبد الرحمن وفريقه من اليمنية أمكن له أن يؤسس دولة بني أمية في الأندلس (٢٢) .

وشهدت الأندلس في بداية عهد الداخل صراعا متواصلا بين الأمير الأموي وبين خصومه السياسيين والثائرين عليه من القيسية الموتورين واليمنية المنقلبين عليه ، ولكن الأمير الداخل كان ينتصر على أعدائه ومناوئيه بفضل ما أوتي من دهاء وقوة شكيمة ومضاء عزم ، كل ذلك دون أن يتراخى عن تجديد ما طمس لبني أمية في المشرق من معالم الخلافة : فشيد الدور ، وأقام القصور ، وبنى المسجد الجامع بقرطبة ، وحصن المدينة بسور يدور حولها . وإليه يرجع الفضل الأعظم في تمصير قرطبة وتجميلها ، وتنظيم شؤون الادارة والحكم فيها. ويشير ابن حيان الى ارتقاء الأندلس في عهده من مجرد ولاية تابعة للخلافة في المشرق الى مصاف الدول الكبرى ، وإلى التطور الذي طرأ على شؤون الادارة والحكم في ظل هذا الأمير فيقول : « لما ألفى الداخل الأندلسي ثغرا قاصيا غفلا من حلية الملك، عاطلا ، أرهف أهلها بالطاعة السلطانية ، وحنكهم بالسيرة الملوكية ،وأخذهم بالآداب ، فأكسبهم عما قليل المروءة ، وأقامهم على الطريقة ، وبدأ فدون الدواوين ، ورفع الأواوين ، وفرض الأعطية ، وعقد الألوية ، وجند

---

(٢٢) ارجع الى المرجع السابق ص ١٨٣ ـ ١٩٣ ، ولنفس المؤلف قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ج ١ بيروت ١٩٧١ ص ٤٥ .

الأجناد ، ورفع العماد ، وأوثق الاوتاد . فأقام للملك آلته ، وأخذ السلطان عدته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك ، وحذروا جانبه ، وتحاموا حوزته ، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس ، واستقل له الأمر فيها » (٢٣) .ويرجع الفضل في نجاح سياسته وتوطيد ملكه الى وزرائه وحجابه الذين أحسن اختيارهم واتنقاهم من بين من أدخلوه الأندلس من مواليه وأيدوه ونصروه وأخلصوا له ، وعمل عبد الرحمن الداخل على إحاطة نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء ، فزود حاضرته قرطبة بروائع المنشآت والعمائر،وقامت فيها حركة عمرانية ومعمارية لم تشهد لها نظيرا من قبل ، واتخذت منذ ذلك الحين مظهر المدن الكبيرة ، وأصبحت جديرة بأن تكون دمشق الأندلس .

سعي المنصور العباسي الى اسقاط الدولة الأموية في الأندلس :

ولكن أبا جعفر المنصور لم يترك الأمير الأموي يهنأ بهذه الامارة ، فيسعى سعيا حثيثا الى خلعه واسقاطه وتحويل الأندلس الى ولاية عباسية ، ففي سنة ١٤٦ هـ سير اليه المنصور قائدا من قواد العباسيين في إفريقية هو العلاء بن مغيث اليحصبي ، عبر بحر افريقية ونزل بالأندلس ولبس السواد ، ودعا لأبي جعفر المنصور في باجة بغرب الأندلس مستغلا العواصف السياسية التي أثارها خصوم الداخل في طليطلة . واشبيلية ولبلة وغيرها، وكان المنصور قد بعث إليه سجلا ولواء ، فاجتمع اليه حشد كبير من اتباع من اليمنية والمضرية على السواء ، وتطلع أكثر أهل الأندلس الى خلع عبد الرحمن (٢٤) ، ويبدو أن العلاء بن مغيث اختار اللحظة المناسبة للقضاء على دولة عبد الرحمن الفتية ، فقد كانت الثورات تجتاح البلاد الأندلسية

---

(٢٣) المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٣١٠ .

(٢٤) ابن القوطية القرطبي ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٣ — أخبار مجموعة ص ١٠٢ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٧٥ . ابن عذارى المراكشي ،ج٢ ص ٧٧ .

في شمالها وجنوبها ، وكان الأمير وقت انتزاء العلاء مشغولا باخماد احدى ثورات القيسية بطليطلة ، وقد بلغه نبأ حركة العلاء أثناء قيامه بمحاصرة طليطلة ، فبادر من فوره لمواجهة العلاء ، ولكن هذا الأخير أسرع بالزحف إليه وقصده بجموع كثيفة ، فاضطر الأمير الداخل الى التحصن في قرمونة الواقعة بالقرب من اشبيلية ، مع مواليه وثقات رجاله ، ولم يلبث العلاء أن أقبل بمجموعة فنازله بقرمونة وحاصره بها ما يقرب من شهرين حتى ساءت حالة الأمير الأموي ، ونفذت مؤونته ، ودب اليأس في نفوس رجاله. وكان أنصار العلاء يحسبون أن الأمر لن يطول ، فلما طال الحصار انخذل عنه أكثر أنصاره ، وأدرك الأمير ابن معاوية أن هذه هي فرصته المواتية لمهاجمة العلاء هجوما مفاجئا ، وكان عليه أن يتحرك سواء رضي أم كره ويغامر بمصيره ومصير الدولة التي جهد في تأسيسها ، فجمع قواته وكانوا لا يتجاوزون السبعمائة ، وأمر بنار فأوقدت عند باب إشبيلية أحد أبواب قرمونة ، ثم أمر بأغماد السيوف فطرحت في النار ، وصاح برجاله يأمرهم بالخروج معه لهذه الجموع المحتشدة خارج الباب خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع (٢٥) ، ثم إنه سل سيفه في مقدمة أصحابه ، واندفع من باب المدينة ومن ورائه رجاله ، وقد بلغ بهم الحماس واللهفة الى القتال مبلغا عظيما ، وانقضوا على جيش العلاء فمزقوه شر ممزق ، حتى بلغ عدد القتلى من عسكره نحو سبعة آلاف (٢٦) ، وسقط العلاء نفسه صريعا ، فأمر عبدالرحمن مبالغة منه في السخرية من خصمه المنصور أن يبعث اليه رأس العلاء ، فأخذه وصبره ولفه في السجل واللواء ، ووضعه في سفط ، وبعث به مع رجل من أهل قرطبة كان قاصدا الى مكة ، لأداء الحج ، وأوصاه بأن يضع السفط في مكة أمام سرادق المنصور الذي كان يحج في هذا العام ، ففعل القرطبي ما أمره به الأمير ، فلما نظر اليه المنصور ارتاع ، ثم

---

(٢٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج٢ ص ٧٧ .

(٢٦) المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٣١١ .

علق على ذلك بقوله : « إنا لله !! عرضنا بهذا المسكين للقتل ، الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان » (٢٧) .

وقد شهد أبو جعفر المنصور لعبد الرحمن الداخل بقوة الحيلة وشدة البأس وطول المراس ، فذكروا أنه قال يوما لبعض جلسائه : « أخبروني من صقر قريش من الملوك ؟ قالوا : ذاك أمير المؤمنين (٢٨) الذي راض الملوك ، وسكن الزلازل ، وأباد الأعداء ، وحسم الأدواء . قال : ما قلتم شيئا . قالوا : فمعاوية . قال : لا . قالوا : فعبد الملك بن مروان . قال : ما قلتم شيئا . قالوا : يا أمير المؤمنين ، فمن هو ؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية ، الذي عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلدا أعجميا منفردا بنفسه ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودن الدواوين ، وأقام ملكا عظيما بعد انقطاعه بحسن تدبيره ، وشدة شكيمته ، إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان ، وذللا له صعبه ، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب عترته واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه . وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين ، فأذل الجبابرة الثائرين . فقال الجميع : صدقت والله يا أمير المؤمنين » (٢٩) .

وكان المنصور يعترف أمام جلسائه بذكاء الأمير الأموي ويعلل فشله في تدمير دولة بقوة مراسه ويقول : « لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالشأن في أمر فتى قريش الأحوذي الفذ في جميع شؤونه ، وعدمه لأهله ونشبه ، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ومضاء عزيمته حتى قذف نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده، فاقتحم جزيرة

---

(٢٧) ابن القوطية ، ص ٣٤ ـ ابن عذارى ، ج ٢ ص ٧٨ .
(٢٨) يقصدونه هو أي المنصور .
(٢٩) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٨٨ ، ٨٩ ـ المقري ، ج ١ ص ٣١٠ .

شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصية، وقمع بعضهم بعضا بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته ، حتى انقاد له عصيهم ، وذل له أبيهم ، فاستولى فيها على أريكته، ملكا على قطيعته ، قاهرا لأعدائه ، حاميا لذماره ، مانعا لحوزته ، خالطا الرغبة إليه بالرهبة منه ، ان ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه » (٣٠).

لقد فشل أبو جعفر المنصور في اسقاط الدولة الأموية في الأندلس في حين نجح في استرجاع افريقية وتحريرها من سيطرة الخوارج الاباضية (٣١) ، أما المغربين الأوسط والأقصى فاستعصيا عليه ،وظل المغرب الأدنى (او افريقية) مواليا للعباسيين حتى بعد قيام دولة بني الأغلب التي كانت ترتبط اسميا بالخلافة العباسية ، وقد تحكم هذا الوضع في توجيه السياسة العباسية نحو المغرب والأندلس ، فكانت سياسة عدائية بالنسبة للدويلات المستقلة التي قامت فيما وراء إفريقية بالاضافة الى الاندلس بينما كانت ودية نحو دولة الاغالبة لأن هذه الدولة كانت تدين بالولاء لبني العباس ، وقد ساعد الرشيد على قيامها بعهد منه لتكون حاجزا بين البلاد الخاضعة للدولة العباسية والقوى غير السنية في المغربين الأوسط والأقصى سيما قوة الأدارسة الذين كانوا يتطلعون الى توحيد المغرب والمشرق الاسلاميين تحت لوائهم (٣٢) ومع فشل المحاولة العباسية الأولى للقضاء على دولة الأمويين في الأندلس في خلافة أبي جعفر المنصور ، فقد تجددت محاولات من تلاه من خلفاء بني العباس لتحقيق نفس الهدف سواء بالنسبة للدولة الأموية في الأندلس على النحو الذي نراه في الصفحات القادمة،

---

(٣٠) المقري ، ج ١ ص ٣١٠ .

(٣١) راجع التفاصيل في : ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١٧ — ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٢ ، ٨٣ .

(٣٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالمغرب ، تحقيق د . مختار العبادي ، ص ١٧ هامش رقم ٢ .

أو بالنسبة لدولة الرستميين في المغرب الأوسط (٣٣) أو بالنسبة لدولة الأدارسة (٣٤).

المحاولة الثانية في خلافة المهدي العباسي :

وفي خلافة المهدي العباسي بن المنصور (١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥م) بدأت محاولات الدولة العباسية من جديد القضاء على امارة عبدالرحمن الداخل في الأندلس . واستفادت الدولة العباسية في هذه المرة من التجربة الأولى الفاشلة ، فلم تبعث داعية من دعاتها هذه المرة ، ولا جيشا من إفريقية لغزو الأندلس ، وانما اعتمد المهدي على الدهاء والدس ، فقد اتفق مع بعض ثوار الأندلس من العرب المعارضين للوجود الأموي على أن يعلنوا ثلاث ثورات في آن واحد في مناطق مختلفة من الأندلس ، فينتهز شارلمان بن ببين القصير ملك الفرنجة الذي كانت تربطه بالخليفة العباسي علاقات ودية (٣٥) الفرصة ويغزو الأندلس ،فيسقط النظام الأموي.

(٣٣) أبو الربيع سليمان البارودي ، مختصر تاريخ الاباضية ، تونس ١٩٣٨ ص ٣٤ - كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الأباضية ،ص١٤٤.

(٣٤) البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، الجزائر ١٩١١ ص ١٢٢ - ابن الخطيب ، ص ١٩٣ - الجزنائي ، كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تحقيق الفريد بل ، الجزائر ١٩٢٢ ص ١٠ -.

(٣٥) رغم صمت المصادر العربية عن ذكر أي اشارة لثمة علاقات بين الدولة العباسية والدولة الكارولنجية ، فاننا نميل الى تأكيد قيام مثل هذه العلاقات ، فالاوضاع السياسية في العالم شرقية وغربية منذ قيام الدولة العباسية بخلافة السفاح في سنة ٧٥٠م (١٣٢هـ) والدولة الكارولنجية بتتويج ببين القصير ملكا على دولة الفرنجة في سنة ٧٥١ م حتم قيام أحلاف دولية بين الدولتين ضد الدولة الاموية في الأندلس التي كانت تعتبر في نظر خلفاء بني العباس دولة غير شرعية ، والدولة البيزنطية التي اصبحت في نظر الكنيسة الغربية والغرب المسيحي مناهضة لمبادىء هذه الكنيسة بسبب سياسة أباطرتها اللا آيقونية خاصة في زمن الامبراطور الايسوري قسطنطين

وتلتزم المصادر العربية واللاتينية الصمت عن ثمة قيام اتصالات بين العاهلين العباسي والكارولنجي ومع ذلك فنحن نجزم بوجود مثل هذا التحالف بينهما استنادا على المؤامرة الكبرى التي تدخل بمقتضاها شارلمان حربيا في الأندلس ، فان تدخل شارلمان لا يمكن أن يحدث مالم يكن هناك اتفاق مسبق بينه وبين أصحاب المصلحة في هذا التدخل وأعني بهم العباسيين الذين ــ بحكم بعد الأندلس عن متناول أيديهم ــ اعتمدوا على العملاء من الثوار والمنتزين لتحقيق مآربهم ، بدليل أن أحد هؤلاء الثوار

الخامس (٧٤١ ــ ٧٧٥) مما أدى الى لجوء البابوات الى ملوك الفرنجة لمساعدتهم ضد هجمات اللومبارديين بدلا من التوجه الى بيزنطية نفسها . وهكذا ساعدت الخصومات القائمة بين العباسيين والامويين في الأندلس من جهة وبين الفرنجة والامويين من جهة ثانية ، وبين الفرنجة والبيزنطيين من جهة ثالثة وبين البيزنطيين والعباسيين من جهة رابعة، على التقاء أهداف مشتركة بين الأطراف المتنازعة وتكوين محورين متعاديين في آن واحد ، فبيزنطة تقاربت مع قرطبة ، وبغداد تقاربت مع أخن ، واذا كانت الصلات السياسية بين الدولة البيزنطية والأموية في الأندلس قد قامت متاخرةمنذ سنة ٨٣٩م بسبب العداء القديم بين الأمويين في المشرق والبيزنطيين ، فان الصلات بين الولة العباسية والفرنجة سبقتها بعهد طويل ففي سنة ٧٦٥ أوفد بيبين القصير (٧٤١ ــ ٧٦٨) سفارة الى بلاط الخليفة ابي جعفرالمنصور (٧٥٤ ــ ٧٧٥م) عادت بعد ثلاث سنوات مصحوبة برسل من المنصور الى بيبين يحملون اليه عددا من الهدايا وقد أشار الطبري الى ورود رسول من قبل الروم (وصحتها الفرنجة) بعد تأسيسه لمدينة بغداد يسميه الطبري « بطريقا من بطارقة الروم » ، وقد أمر المنصور وزيره الربيع بن يونس بأن يطوف به بغداد وما حولها (انظر الطبري ، ج ٩ ص ٢٦٢ ــ ابن الأثير ، ص ٥٧٤) . ونعتقدأنالهدف من هذه السفارة هو توكيد الشعور بالتقارب السياسي والأهداف المشتركة منذ أن أرسل المنصور الى الأندلس القائد العلاء بن مغيث اليحصبي في سنة ٧٦٣ أي قبل وصول السفارة الكارولنجية بعامين ، لقلب الحكم الأموي بحكم اشتراكهما في العداء لبني أمية في الأندلس . ثم توقفت هذه العلاقات الودية بعد وفاة بيبين القصير فترة ، واستمرت راكدة حتى أيام شارلمان ، عندما تجددت هذه العلاقات بينه وبين المهدي العباسي .

وهو الرماحس الكناني لجأ الى بغداد بعد فشل ثورتـه ، وأن سليمان الأعرابي اتصل بشارلمان ليدعوه الى غزو الأندلس [٣٦] .

والظاهر أن الأمير الداخل كان يفكر جديا في الانتقام من العباسيين بعد نجاحه في ايقاع الهزيمة بالعلاء اليحصبي ، صنيعة العباسيين ، فأظهر في سنة ١٦٣ هـ عزمه على التجهز للخروج الى الشام ، فقد أشار ابن الأثير الى أن الأمير عبد الرحمن الأموي أعلن عن عزمه في هذه السنة على قصد بلاد الشام « بزعمه لمحو الدولة العباسية وأخذ ثأره منهم ، فقضى عليه سليمان بن يقظان والحسين بن يحيى بن سعيد الأنصاري بسرقسطة واشتد أمرهما ، فترك ما كان عزم عليه » [٣٧] . وأغلب الظن لو كان هذا الخبر صحيحا أنه نمى الى السلطات العباسية سواء في افريقية أم في بغداد، فبادرت بتدبير هذه المؤامرة للقضاء عليه قبل أن يقوم بأي محاولة والواقع أن عبد الرحمن الداخل لم يكن لديه من الامكانيات العسكرية ما يسمح له بالقيام بأي مغامرة في الشام أو حتى في افريقية ، ولعله كان ينوي مساعدة الدولة الرسمية التي قامت حديثا بالمغرب الأوسط ضد أعدائها في افريقية وطرابلس أو قد يكون قد أعلن ما أعلنه تنفيثا عن غضبه على العباسيين بسبب سعيهم لاسقاطه فنقل أحد عملاء العباسيين هذا الخبر ، فبادروا هم لتوجيه ضربة قوية الى قلب دولة قبل أن يشرع هو لمناوءتهم.

وأيا ما كان الأمر فان شخصيات عربية أربعة مناهضة للامير الأموي أعلنت ثوراتها في ثلاث مناطق مختلفة من الأندلس في أوقات متقاربة ، مما

---

(٣٦) ذكر ابن الأثير ان سليمان الأعرابي استدعى « قارلة ملك الافرنج ووعده بتسليم سرقسطة وثعلبة . (قائد الأمير عبدالرحمن الداخل وكان قد وقع في أسر سليمان الأعرابي) اليه . فلما وصل اليه لم يصبح بيده غير ثعلبة فأخذه وعاد الى بلاده وهو يظن انه يأخذ به عظيم الفداء ، فأهمله عبدالرحمن مدة ثم وضع من طلبه من الفرنج فأطلقوه » (ابن الأثير ، ج ٦ ص ٦٤) .

(٣٧) نفس المصدر ، ص ٦٢ .

يقطع بوجود اتفاق مسبق بين الأطراف المعنية . هذه الشخصيات التي اعتمد عليها المهدي هي :

١ ــ عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلبي ، وسمي بالصقلبي لأنه كان طويل القامة أشقر الشعر ، أزرق العينين [٣٨] ، وهو شخصية أخرى غير شخصية ابن حبيب الفهري الذي كان قد استقل بافريقية بعد سقوط الدولة الأموية في المشرق . وقد ثار ابن حبيب الفهري الصقلبي بتدمير في آخر سنة ١٦٢ هـ .

٢ ــ سليمان بن يقظان الاعرابي والى برشلونة .

٣ ــ حسين بن يحيى الانصاري من ولد سعد بن عبادة الأنصاري ، وقد ثار بسرقسطة مع سليمان سالف الذكر .

٤ ــ الرماحس بن عبدالعزيز الكناني والى الجزيرة الخضراء وقد ثار في بداية سنة ١٦٤ هـ .

أما شارلمان فلم يكن يزهد في امتلاك الأندلس أو حتى اقتطاع قسم منها ، فقد كان قد فرغ من حروبه في أوروبا ،وضم اليه لمبارديا وسكسونيا وبافاريا ، وامتد ملكه حتى بلغ الدانوب [٣٩] .وكان قارله حسبما تسميه المصادر العربية يحلم بطرد المسلمين من الأندلس [٤٠] طمعا في ضم مملكة

---

(٣٨) أخبار مجموعة ص ١١٠ ــ ابن عذارى ، ج ٢ ص ٨٣ .

(٣٩) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, Leiden 1950, t. I, p. 120.

(٤٠) في رؤيا رآها شارلمان ناداه القديس جيمس قائلا : ان جثمانه الذي لا يعرفه المسلمون والمسيحيون يرقد في تلك الأرض النائية ، ثم أمر شارلمان بان ينهض ويستخلص جليقية من أيدي المسلمين . وتكرر ظهور الرؤيا ثلاث مرات ، ولم يسع شارلمان الا أن يلبي النداء في المرة الرابعة (انظر : كارلس ديفيز ، شارلمان ، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني ، القاهرة ١٩٥٥ ص ٩٨) .

القوط القديمة الى امبراطوريته .

ومما لا شك فيه أن المؤامرة دبرت بعلم المهدي وموافقته،وليس أدل على ذلك من التجاء الرماحس بن عبد العزيز الكناني الثائر في الجزيرة اليه بعد فشل ثورته على الأمويين ، وهناك دليل آخر على تورط المهدي في هذه المؤامرة الكارولنجية العربية ضد الأمويين في الأندلس ، هذا الدليل هو رسالة أرسلها الأمير عبد الرحمن الداخل الى الخليفة المهدي العباسي ثلبه فيها (٤١) وسبه ولعنه بفاحش القول ، فرد عليه المهدي برسالة

---

(٤١) أورد الطبري رواية لمحمد بن عمر عن حفص مولى مزينة عن ابيه انه قال : « كان هشام الكلبي صديقا لي ، فكنا نتلاقى فنتحدث ونتناشد ، فكنت أراه في حال رثة وفي أخلاق ، على بغلة هزيلة والضر فيه بين وعلى بغلته ، فما راعني الا وقد لقيني يوما على بغلة شقراء من بغال الخلافة ، وسرج ولجام من سروج الخلافة ولجمها ، في ثياب جياد ورائحة طيبة فأظهرت السرور ، ثم قلت له : أرى نعمة ظاهرة . قال لي نعم أخبرك عنها فاكتم . بينا أنا في منزلي منذ أيام بين الظهر والعصر اذ أتاني رسول المهدي، فسرت اليه ، ودخلت عليه وهو جالس خال ليس عنده أحد ، وبين يديه كتاب . قال : ادن يا هشام . فدنوت ، فجلست بين يديه ، فقال : خذ هذا الكتاب فاقرأه ، ولا يمنعك ما فيه مما تستفظعه أن تقرأه . قال : فنظرت في الكتاب ، فلما قرأت بعضه استفظعته فألقيته من يدي ، ولعنت كاتبه . فقال لي : قد قلت لك ان استفظعته فلا تلقه ، اقرأه بحقي عليك حتى تأتي على آخره . قال : فقرأته ، فاذا كتاب قد ثلبه فيه كاتبه ثلبا عجيبا لم يبق له فيه شيئا فقلت : يا أمير المؤمنين من هذا الملعون الكذاب ؟ قال : **هذا صاحب الأندلس** . قال ، قلت : فالثاب والله يا أمير المؤمنين فيه وفي آبائه وفي أمهاته . قال : ثم اندرأت أذكر مثالبهم . قال : فسر بذلك وقال : اقسمت عليك لما أمللت مثالبهم كلها على كاتب . قال : ودعا بكاتب من كتاب السر فأمره مجلس ناحية وأمرني فصرت اليه فصدر الكاتب من المهدي جوابا، وأمللت عليه مثالبهم فأكثرت ، فلم أبق شيئا حتى فرغت من الكتاب ،ثم عرضته عليه فأظهر السرور . ثم لم أبرح حتى أمر بالكتاب فختم ، وجعل في خريطة ، ودفع الى صاحب البريد ، وأمر بتعجيله الى الأندلس . قال ثم دعا لي بمنديل فيه عشرة أثواب من جياد الثياب وعشرة آلاف درهم وهذه البغلة بسرجها ولجامها فأعطاني ذلك وقال لي اكتم ما سمعت) الطبري ، ج ١٠ ص ١٣ .

مماثلة عدد فيها مثالب بني امية وبدأ عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلبي بالعبور الى افريقية ، ثم عاد بجيش كبير من البربر نزل به في مدينة تدمير (الموضع الذي قامت عليه مدينة مرسية) وبادر بمكاتبة سليمان بن يقظان بالدخول في أمره ومحاربة عبد الرحمن الأموي والدعاء الى طاعة المهدي [٤٢] ، وكان سليمان ببرشلونة ، فلم يجبه ، فاغتاظ عليه ، وقصد بلده فيمن معه من البربر ، فهزمه سليمان ، فعاد الصقلبي الى تدمير . وكانت مهمة سليمان بن يقظان الزحف الى سرقسطة واعلان الثورة مع أحد المغامرين العرب وهو حسين بن يحيى الأنصاري . أما الرماحس فكان عليه أن يعلن ثورته في جنوب الأندلس في نفس الوقت حتى يتعذر على عبد الرحمن الداخل أن يقضي على هذه الثورات جميعا .

ولكن الثوار لم يتضامنوا فيما بينهم ، واختلفوا في توقيت ثوراتهم كما أن بعضهم حارب البعض الآخر كما حدث بين الصقلبي والأعرابي ، أو ما حدث بين الأعرابي والأنصاري فاستطاع عبد الرحمن الداخل أن يقضي على كل ثورة على حدة .

وبدأ الأمير الداخل بأخطرهم وهو عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلبي ، فسار اليه في العدد والعدة ، وأحرق السفن تضييقا عليه في الهرب [٤٣] ، فلاذ الصقلبي بجبل منيع بناحية بلنسية ،ومن هناك أرسل الى سليمان بن يقظان ببرشلونة يدعوه الى الدخول في أمره ، ويسأله أن يمده بمعونته ، ولكن سليمان لم يجبه الى طلبه ، فامتعض الفهري ، ولجأ إلى رجل من البربر يقال له مشكار البربري فاطمأن اليه الفهري ، وكان عبد الرحمن قد أعلن أنه يبذل ألف دينار لمن يأتيه برأسه ، فاغتاله مشكار طمعا في المكافأة ، وأتى برأسه ،وتم ذلك في آخر سنة ١٦٢هـ (٧٧٨م) [٤٤]

---

(٤٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥٤ .
(٤٣) نفس المصدر ، ص ٥٤ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ٨٣ .
(٤٤) اخبار مجموعة ، ص ١١١ .

ثم صرف عبد الرحمن الداخل همه بعد ذلك لمقاتله الرماحس ، فأرسل اليه وزيره عبدالله بن خالد على رأس جيش باغته بالهجوم على قصره في الجزيرة الخضراء ، ففر الرماحس على مركب جاز به البحر حتى قدم الى الخليفة العباسي .

وأما سليمان الأعرابي ، فقد ثار بسرقسطة وثار معه فيها حسين بن يحيى الأنصاري في أواخر سنة ١٦٣ هـ ، فبعث اليهما ابن معاوية قائده ثعلبة بن عبيد الجذامي في عسكر كثيف فقاتلهما ثعلبة قتالا عنيفا ، وعاد يوما الى مخيمه ، فاغتنم سليمان غرته ، فخرج عليه وأسره ، فتفرق عسكره . وعمل على الافادة من أسيره ، فترك على سرقسطة صاحبه حسين ابن يحيى الأنصاري ومضى هو وأسيره الى افرنجة حيث قابل شارلمان وسلمه ثعلبة وحرضه على دخول الأندلس (٤٥) .

وأيا ماكان الأمر فقد كان شارلمان ملتزما بالاتفاق المعقود بينه وبين المهدي ، ولعله أبطأ في تنفيذ المهمة التي تعهد القيام بها لمشاغله السياسية فكان ذلك سببا لخروج سليمان الأعرابي اليه لاستقدامه في صحبة ثعلبة قائد الجيش الأموي تشجيعا له على الاشتراك في المؤامرة ، والظاهر أن سليمان نجح في مهمته ، فقد خرج شارلمان على رأس جيوشه في ربيع سنة ٧٧٨ م متجها الى جبال البرانس ، فاجتازها الى رنشفالة ، وهاجم بنبلونة واستولى عليها ثم واصل زحفه الى سرقسطة وهو يعتقد أنها ستفتح له أبوابها ، اذ كان سليمان قد مهد السبيل أمامه لدخولها . ويبدو أن

---

(٤٥) ويرى ليفي بروفنسال أنه من المحتمل ان يكون سليمان قد توجه الى افرنجة وفي صحبته أحد الخارجين من العرب على عبد الرحمن بن معاوية وهو أبو ثور ، وكان واليا على وشقة ، ويستند ليفي في ذلك على فقرة من الحوليات الملكية لدولة الفرنجة تروي أن ملك الفرنجة تلقى في سنة ٧٧٨م (١٦٣ هـ) من أبي ثور صاحب وشقة وابن الأعرابي صاحب برشلونة وجرندة عددا من الرهائن

(voir Lévi-Provençal, op. cit. p. 123)

حسين بن يحيى الأنصاري قد طمع في الانفراد بولايتها فأغلق أبوابها أمام جيوش شارلمان ، وأصم أذنيه عن توسلات صاحبه سليمان ،وقد يكون الأمير عبد الرحمن المعروف بدهائه قد اتصل سرا بحسين الأنصاري وأقنعه بالامتناع في سرقسطة أمام جيوش شارلمان ولوح له بمكافآت مجزية ، فليس هناك تفسير آخر لانقلابه على زميله وتجرئه على شارلمان الا أن يكون مدفوعا الى أداء هذا الدور .

وطال انتظار شارلمان خارج المدينة حتى يئس من فتحها ، وأدرك أن المؤامرة قد فشلت فاضطر الى رفع الحصار عنها وقفل عائدا الى بلاده ، وقد تكون قد وصلته انباء مزعجة كقيام اضطرابات وفتن في بلاده أرغمته على القفول ، وان كنا نرجح التفسير الأول بدليل أنه أرغم سليمان الأعرابي على التراجع معه ، واحتفظ كذلك بثعلبة الجذامي لنفسه ، ولو أن قضية اشتراكه كانت مجرد استجابة لدعوة الأعرابي لما كان قد حرص على أن يتراجع معه ، ولكن المسألة أبعد من ذلك ، اذ يبدو أنه كان يهدف التحقيق في الأمر ودراسة أسباب الفشل .

انسحب شارلمان بجيشه الى غالة ، ولما بلغ بنبلونة سحب حاميتها الفرنجية ، وهدم أسوار المدينة ، ولكن عبد الرحمن الداخل لم يتركه يرحل في سلام ، فقد أثار عليه قبائل البشكنس (٤٦) ،وكانوا ينقمون على شارلمان تخريبه لعاصمتهم بنبلونة ، فترصدوا مؤخرة جيشه الكبير وهو يجتاز أحد دروب شعاب رنشفالة وأمطروها وابلا من السهام وكتل الحجارة حتى قضوا على هذه المؤخرة قضاء مبرما ، وقتل في رنشفالة عدد كبير من عسكره على رأسهم قائدان من أشهر قواده هما إيجيهار Eggihard وأنسيلم Anselme كما قتل صفيه رولان Roland فحزن شارلمان لمصرعه ، وكان ذلك موضوع أنشودة من شعر الملاحم الفرنسي تعرف بأنشودة رولان .

---

(٤٦) اخبار مجموعة ، ص ١١٤ .

وفي أثناء المعركة تمكن ولدا سليمان الأعرابي من تخليصه ، ورجعا به الى سرقسطة . وهكذا انتصر الامير عبد الرحمن على المتآمرين عليه، واضطر شارلمان الى مهادنته ليتفرغ لمشاكله الداخلية ، وفي ذلك يقول المقري : « وخاطب عبد الرحمن قارله (أي شارلمان) ملك الافرنج ،وكان من طغاة الافرنج بعد أن تمرس به مدة،فأصابه صلب المكسر، تام الرجولية، فمال معه (أي شارلمان) الى المداراة ، ودعاه الى المصاهرة والسلم ،فأجابه للسلم ولم تتم المصاهرة » (٤٧) .

وهكذا فشلت المؤامرة الدولية الكبرى التي دبرها المهدي بالاتفاق مع ثوار الأندلس وشارلمان وأيقن شارلمان نفسه أنه لن يتمكن من بسط نفوذه على الأندلس طالما لا يرتكن فيها على قوى مناوئة للامير الأموي، كما وضح لديه استحالة تغلبه على الاسلام في الأندلس ما لم يؤمن بلاد الفرنجة والغرب المسيحي .

ومع هذا الفشل المتواصل فان سلسلة المؤامرات والمكائد العباسية لم تنته بعد (٤٨) ، واستمرت في عهد خلفاء عبد الرحمن الداخل ممثلة في تأييد

(٤٧) المقري ، ج ١ ص ٣١٠ .

(٤٨) يبدو أن الخليفة المأمون كان يسعى الى اجراء مضاد للامويين في الاندلس ، فكما سعى الى تدمير الامبراطورية البيزنطية عن طريق تعضيده للثائر توماس الصقلبي على الامبراطور ميشيل العموري ، ودفعه غزاة البحر الأندلسيين الى غزو جزيرة اتريطش وانتزاعها من بيزنطة التي كانت ترتبط بروابط ودية مع الأندلس يشير المسعودي الى انه أمر في سنة ٢١٢ هـ بلعن معاوية على منابر بغداد ، وأعد الكتب الى الحواضر الاسلامية يأمر فيها عما له بذلك ، فاعظم الناس ذلك وأكبروه ، واضطربت العامة ، فأشير عليه بترك ذلك ، فأعرض عما له بذلك ، فاعظم الناس ذلك وأكبروه ، واضطربت العامة ، فأشير عليه بترك ذلك ، فأعرض عما كان هم به (المسعودي ، ج ٣ ص ٤٥٤) واعتقد أن لعن معادية على بناء بغداد لم يكن ليثير على المأمون ثائرة العامة من الأهالي ، على النحو الذي أورده المسعودي ، الى الحد الذي يدعوه الى العدول عما شرع فيه ، كما أعتقد أن معاوية انما كان يقصد بني امية الذين كان يمثلهم في الأندلس في عهده الأمير عبد الرحمن الاوسط .

الأغالبة في إفريقية ـ صنائع العباسيين ـ لثوار الأندلس الناقمين على أمرائها والمناوئين للسلطة المركزية ، وعلى الأخص الثائر عمر بن حفصون الخارج على الأمير الاموي عبدالله (٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ) ، وكان ابن حفصون يطمع في الاستيلاء على الأندلس كلها وولايتها هو وأولاده من بعده بدلا من بني أمية بدليل أنه أظهر الميل الى الدعوة العباسية وكاتب ابن الأغلب أمير إفريقية (٤٩) . ولكن هذه المحاولة فشلت كسابقاتها ، وفقد العباسيون الأمل نهائيا في اسقاط الحكم الأموي بالأندلس .

رد الفعل الأموي على المؤامرات العباسية :

وكان من الطبيعي أن يلتقى أمراء بني أمية في قرطبة مع خصوم الدولة العباسية فتقوم بينهم صلات ودية ، على النحو الذي حدث بين ثوار الأندلس الخارجين على الدولة الأموية وبين الأغالبة التابعين للعباسيين ، فنشهد على هذا الاساس تحركا ملموسا في السياسة الأموية نحو دولة الرسميتين من جهة ونحو الدولة البيزنطية من جهة أخرى ، ويشير المؤرخون الى أن أبا اليقظان محمد بن أفلح الرستمي كان « لا يقدم و لا يؤخر في أموره ومعضلاته إلا عن رأي الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط أمير قرطبة » (٥٠) . أما فيما يتعلق بالدولة البيزنطية فقد رأى أباطرتها تدعيم صلاتهم بقرطبة على الرغم من استحالة التعاون العسكري بينهم وبين مسلمي الأندلس ، فقد كانت هزيمة تيوفيل في ٢ أغسطس سنة ٨٣٨م على يدي المعتصم في موقعة عمورية كارثة كبرى أطاحت بهيبة الدولة وكانت السبب المباشر في توجهه بطلب العون الى الأمير الاموي عبدالرحمن

---

(٤٩) راجع التفاصيل في كتابي: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت ١٩٦٢ .

(٥٠) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٦١ — ابن الخطيب ، كتاب اعمال الأعلام، القسم الخاص بالأندلس ، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال ، ص ٢٤.

الاوسط (٥١) ، وحملت هـذه الهزيمة الامبراطور البيزنطي على المبادرة بالاتصال بامير قرطبة ، فأرسل سفارة برئاسة قراطيوس الرومي في سنة ٢٢٥ هـ (٨٣٩ ـ ٨٤٠ م) الى قرطبة ، وحمل رسوله الى الامير الاموي هدية ورسالة يطلب منه فيها مواصلته ، ويبدي رغبته في أن يعمل الأمير على استرجاع الشام انتقاما من المأمون والمعتصم اللذين هاجما بلاده، وعبر عنهما بابني مراجل وماردة ، وفي هذه الرسالة يطلب الامبراطور أيضا لنفسه جزيرة اقريطش التي كان قد نزلها الربضيون واحتلوها في عهد ميشيل الثاني العموري بعد خروجهم من الاسكندرية في سنة ٢١٢ هـ . وقد رد الأمير عبد الرحمن الأوسط على هذه السفارة بسفارة مماثلة مثله فيها الشاعر يحيى الغزال ، ويحيى صاحب المنيقلة ، وبعث معهما رسالة ناقش فيها ما جاء في رسالة الامبراطور فقرة فقرة (٥٢) . ثم تطورت العلاقات الدبلوماسية بين بيزنطة وقرطبة في عصر الخلافة الأموية بقرطبة ،وتبودلت بين العاصمتين السفارات والهدايا (٥٣) .

دكتور السيد عبد العزيز سالم
جامعة الاسكندرية

---

(٥١) Ch. Diehl, Histoire du Moyen âge, pp. 312, 323

(٥٢) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة السيد عبد العزيز سالم ، ص ١٠١ — تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص٣١٦

(٥٣) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة الأموية بالأندلس ص ٦٧ وما يليها .

تراث العرب الفكري والعلمي
في فلسطين
في ظل الحكم الإسلامي

الدكتور عواد مجيد الأعظمي
الاستاذ المساعد
كلية الآداب - جامعة بغداد

تراث العرب الفكري والعلمي في فلسطين واسع الافق غزير المادة ، وبالرغم من سعته ، وغزارته ، فان الادلة والشواهد التي سوف نوردها هنا ، سوف تفي بالغرض المقصود ...

وسنحاول هنا كشف بعض جوانب التراث الفكري ، في مجالات اللغة والادب ، والفقه والتاريخ والجغرافيــة ، والطب والتي خلدها العــرب والمسلمون على ربوع هذه البلاد المقدسة .

فلما دخل العرب المسلمون فلسطين لقيهم فيها ، وفي مشارفها قومهم، وابناء لغتهم .. ولما تم لهم فتحها استأنس الاراميون أو السريان من اهلها باللغة العربية لقربها من لسانهم .. وقد بدأ اختلاط العرب باهل البلاد ، فقد اطلق الخليفة الثالث عثمان بن عفان العنان لقريش وغيرها من القبائل العربية ليخرجوا من ديارهــم ، فانتشروا في مختلف الاقطــار المفتتحة ، واستقروا فيها .. وفي عهد هشام بن عبد الملك الخليفة الاموي نــزلت بطون كثيرة من مختلف انحاء الجزيرة العربية بلاد الشام واستقرت فيها. وفي تقاليد بدو سيناء انه قد هاجر من العرب المسلمون ٧٥ قبيلة من نجد

والحجاز في سنة واحدة فسكنوا مصر ، وسيناء وجنوب فلسطين [1] .

والمعروف ان معظم القبائل التي نزلت فلسطين هي قبائل يمانية تنتسب الى طيء . وقضاعة ، وبني عدى [2] .

وعن طريق هذه القبائل العربية ، وبداية انتشار الاسلام في مختلف المدن الفلسطينية ، وسيادة لغة القرآن العربية ، بدأت تسود اللغة العربية على جميع بلاد فلسطين .. كما ساعد على ذلك ، كما اوضحت سابقا اللغة الارامية ـ السريانية التي تمتد جذورها التاريخية الى اللغة الكنعانية (الام) بحروفها الابجدية .

كما لعبت المساجد والجوامع العديدة ـ الى جانب المدارس ، دورا هاما في سيادة اللغة العربية وديمومتها كتراث خالد حي في بلاد فلسطين..
حفلت المدن الفلسطينية المتعددة ـ منذ دخولها حضيرة العالم الاسلامي ـ بالعديد من الفقهاء ، والعلماء والمحدثين . وكان على رأس هذه المدن ـ مدينة القدس ...

وسنذكر هنا جماعة من اعيان التابعين ، والعلماء والزهاد ممن دخلوا بيت المقدس ، وترعرعوا في ربوعها وتركوا آثارا خالدة بعد الفتح العمري [3] .. وعمارة عبد الملك بن مروان [4] حتى القرن الخامس الهجري ...

---

(١) انظر : شقير ، نعوم ، تاريخ سيناء القديم والحديث ، القاهرة ١٩١٦ . ص ١٠٨ ، ومصطفى الدباغ ، بلادنا فلسطين ،ج ١ ، ق ٢ ،ص٣٨٥

(٢) تفصيل القبائل العربية وبطونها ، انظر ، القلقشندي ، نهاية الارب في معرفة انساب العرب ، وكتابه صبح الاعشى .

(٣) المقصود دخول مدينة القدس ضمن حضيرة العالم الاسلامي على يد الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب صلحا عام ١٥ هـ ـ ٦٣٦ م .

(٤) المقصود بناء عبد الملك بن مروان مسجد قبة الصخرة ، والمسجد الاقصى..

اشتهر في مدينة القدس اثناء الفتح العمري وبعده كلا من العلماء والفقهاء الاتية اسماؤهم [٥] ..

يعلى بن شداد بن ثابت — من الطبقة الثانية من نايقي الشام، حضر فتح بيت المقدس ، وكان ثقة روى عنه جماعة ..

وابو نعيم المؤذن ، اول من اذن ببيت المقدس ، فكان عبادة بن الصامت واليا على ايليا (القدس) ..

وخالد بن معدان الكلاعي العبد الصالح الفقيه الكبير .. ومحارب ابن دثار ، وكان قاضيا ، وهو من العلماء والزهاد ، وحديثه مخرج في كتب الأسلام ..

كعب الاحبار ابن مانع الحميري ابو اسحاق .. كان يهوديا ، فاسلم في خلافة ابي بكر ، وقيل عمر .. سكن الشام ودخل بيت المقدس ، وروى عن جماعة من الصحابة كأبي هريرة ..

ومالك بن دينار من الأئمة الاعلام روى عن أنس ، واخرج له اصحاب السنن ابو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة ..

وام الخير رابعة بنت اسماعيل العدوية البصرية ، مولاة آل عقيل الصالحة المشهورة ، كانت من اعيان عصرها واخيارها في الصلاح والعبادة مشهورة .. وكانت تقول في مناجاتها : « يا الهي اتحرق بالنار قلبا يحبك » ، فهتف بها مرة هاتف : « ماكنا نفعل هذا فلا تظني بنا ظن السوء . » .. ومن وصاياها ، اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم .. واورد لها الشيخ شهاب الدين السهروردي ، في كتاب عوارف المعارف :

انى جعلتك في الفؤاد محدثي ... وابحت جسمي من اراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس ... وحبيب قلبي في الفؤاد انيسي

(٥) انظر تفاصيل هؤلاء العلماء والفقهاء في كتاب الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، لمجير الدين الحنبلي ، جـ ١ ، ص ٢٨٥ — ٣٠٢ .

توفيت سنة خمس وثلاثين ــ وقيل وثمانين ــ ومائة ، وقبرها على رأس جبل طورزيتا في بيت المقدس .

والاوزاعي عبد الرحمن بن عمر واحد الائمة الاعلام فقيه الشام ،كان رأسا في العلم والعبادة قدم بيت المقدس فصلى فيه ثمان ركعات والصخرة وراءه ..

وسفيان الثوري ، هو ابن سعيد بن مرق الامام العالم المجمع على جلالته ، وزهده وورعه ، أتى المسجد الاقصى فصلى فيه بموضع الجماعة، واتى قبة الصخرة الشريفة وختم فيها القرآن ..

والامام الاعظم والحبر الاكرم محمد بن ادريس الشافعي المطلبي ، أحد الأئمة المجتهدين الاعلام وامام اهل السنة ركن الاسلام ، ولد بغزةمن بلاد الشام على الاصح سنة خمسين ومائة ، وهي التي توفي فيها الامام الاعظم . ابو حنيفة ..

خرج كتاب الام وكتاب السنن ... وتوفي الامام الشافعي بمصر سنة اربع ومائتين ، وقبره مشهور يزار ..

ومحمد بن كرام المتكلم التي تنسب اليه الفرقة الكرامية (٦) :توفي ببيت المقدس ودفن بباب اريحا ، وله ببيت المقدس عشرين سنة ..

وشيخ الاسلام العالم الحبر ابو الفرح عبد الواحد بن احمد بن محمد ابن علي بن احمد الشيرازي ، قدم الشام فسكن ببيت المقدس ، وهو الذي نشر مذهب الامام احمد .. له تصانيف منها المبهج ، والايضاح ، والتبصرة في اصول الدين ،ومختصر في الحدود في اصول الفقه ومسائل الامتحان، ويقال : ان له كتاب الجواهر في التفسير وهو ثلاث مجلدات ..

---

(٦) بهذا الخصوص انظر البحث «نشوء مذهب الكرامية في خراسان» ترجمه ونشره الدكتور عواد مجيد الاعظمي المجلة التاريخية ، خريف ١٩٧٠.

والشيخ العلامة ابو الفتح نصر بن ابراهيم المقدسي النابلسي الشافعي شيخ المذهب بالشام صاحب التصانيف مع الزهد والعبادة .. اقام بالقدس مدة طويلة .. ومن تصانيفه ، التهذيب ، وكتاب التقريب ، وكتاب الفصول ، وكتاب الكافي ...

والشيخ الامام ابو المعالي المشرف بن المرجا بن ابراهيم المقدسي ، كان من علماء بيت المقدس ، لم كتاب : فضائل بيت المقدس والصخرة ...

والغزالي الامام زين الدين حجة الاسلام ابو حامد محمد بن احمد الغزالي الطوسي الشافعي . ولد سنة خمسين واربعمائة . ولم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله .. اقام بدمشق ثم انتقل الى بيت المقدس .. واخذ بالتصانيف المشهورة ببيت المقدس ، ويقال انه صنف في القدس احياء علوم الدين .. واقام بالنصرية شرقي بيت المقدس بالغزالية نسبة اليه : توفي بطوس سنة خمس وخمسمائة للهجرة ..

والامام الحافظ ابو الفضل محمد بن طاهر بن علي بن احمد المعروف بابن القيسواني كذا اسمه في تاريخ ابن خلكان .. وقيل اسمه علي بن احمد بن محمد بن طاهر المقدسي الجوال في الآفاق الجامع بين الذكاء والحفظ وحسن التصنيف .. ولد ببيت المقدس سنة ثمان واربعين واربعمائة .. وكان من المشهورين بالحفظ والمعرفة بعلوم الحديث ، وله في ذلك مصنفات مجموعات تدل على غزارة علمه وجودة معرفته ، وصنف تصانيف كثيرة منها : اطراف الكتب الستة ، وهي صحيح البخاري ، ومسلم ، وابو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه [٧] .. ومنهم من اشتهر في الجغرافية نذكر منهم المقدسي (بفتح الميم) نسبة الى القدس أو المقدسي (بضم الميم) وتشديد الدال نسبة الى بيت القدس وهو

---

(٧) انظر تفاصيل علماء وفقهاء اخرين في كتاب الانس الجليل لمؤلفه مجير الدين الحنبلي ، جـ ١ ، ص ٢٨٥ — ٣٠٢ .

شمس الدين أبو عبدالله بن أحمد بن أبي بكر المعروف بالبشاري ويرجح أن وفاته كانت سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ ــ ٩٩٢ م ــ وكتابه المشهور في الجغرافية (٨) « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » • نشره دي غويه، ليدن ، ١٨٧٧ ••

وقد برز في العهد الايوبي ، والعهد المملوكي العديد من العلماء والفقهاء في مدينة القدس تركوا آثارا خالدة في مؤلفاتهم وكتبهم •• كما شيدت في هذه الفترة العديد من المدارس ، والزوايا ، والمشاهد ، ودور الحديث والقرآن ، كلها تنطق عن عمق التراث الفكري والعلمي للعرب والمسلمين على ارض هذه البلاد المقدسة ••

ويشير مجير الدين الحنبلي في كتابه الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ــ الجزء الثاني ــ بشيء من التفصيل والدقة الى هؤلاء العلماء والفقهاء والقضاة الذين ظهروا في هذه الفترة ، كما يشير الى العدد الكبير من المدارس والزوايا ، والربط التي شيدت في مدينة القدس (٩)•

ولا بأس ان نذكر هنا عددا من هؤلاء العلماء والفقهاء ، وعدد من المدارس والزوايا وغيرها لكي تبرز المعالم الحقيقية للتراث الفكري والعلمي للعرب والمسلمين في بلاد فلسطين ••

اسس الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب المدرسة الصلاحية ، لما فتح بيت المقدس على يديه ، وجعلها للشافعية •• ونكتفي هنا بذكر بعض اسماء الفقهاء والقضاة الذين شغلوا المناصب في هذه المدرسة منهم:

---

(٨) أنظر ، عدي يوسف مخلص ، المقدسي البشاري ، النجف ، ١٩٧٣ ص ٢١ و ٢٥ •

(٩) يراجع بخصوص ذلك الانس الجليل ــ جـ ٢ ، ص ٣٣ ــ ٤٨ ،وص ١٠١ ــ ٢٩٨ •• لغرض الاطلاع على اسماء العلماء والفقه ، واسماء المدارس والزوايا والربط وغيرها بشيء من التفصيل •

شيخ الاسلام بهاء الدين •• بن تميم الاسدي الموصلي المولد والحلبي المنشأ المعروف بابن شداد •• اتصل بخدمة صلاح الدين سنة اربع وثمانين وخمسمائة ، وولاه قضاء العسكر وبيت المقدس • توفى بحلب سنة اثنتين وثلاثين وستمائة •• ومن تصانيفه دلائل الاحكام على التنبيه •• وكتاب الموجز الباهر في الفقه ، وكتاب ملجأ الحكام في الاقضية ، وسيرة الملك صلاح الدين ••

ومنهم شيخ الاسلام مجدالدين طاهر بن نصر بن جهيل الحلبي الشافعي، كان اماما في الفقه ، والحساب ، والفرائض • صنف كتابا في فضل الجهاد، وهو اول من درس بالمدرسة الصلاحية بالقدس الشريف •• توفي بالقدس في سنة ست وتسعين وخمسمائة •

وشيخ الاسلام تقي الدين ابو عمر عثمان •• وكان احد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه •• ومن تصانيفه ، مشكل الوسيط . وكتاب الفتاوى ، وعلوم الحديث ، وكتاب ادب المفتي والمستفتي •

ومن مشايخ الصلاحية ، الامام العالم الفاضل محي الدين ابو حفص عمر بن القاضي السعيد عزالدين •• وكان متوليا قضاء غزة ، وكان قضاء القدس من مضافاته ••

وشيخ الاسلام صلاح الدين ابو سعيد •• الدمشقي ثم المقدسي ، الامام البارع المحقق •• اقام بالقدس مدة طويلة يدرس ويفتي ويحدث ويصنف •• ومن تصانيفه القواعد مشهورة ، وهو كتاب نفيس يشتمل على علمي الاصول والفروع •• وجمع الاحاديث الواردة في زيارة قبر النبي (ص) •• ومن كتبه منحة الفرائض بعلوم آيات الفرائض وكتاب سماه تنقيح المفهوم في صيغ العموم •• توفي بالقدس الشريف سنة احدى وستين وسبعمائة ••

وقاضي القضاة شيخ الاسلام برهان الدين ابو اسحاق •• ابن جماعة

الكناني قاضي مصر والشام وخطيب الخطباء وشيخ الشيوخ وكبير طائفة الفقهاء .. انقطع ببيت المقدس ثم اضيف اليه تدريس الصلاحية وله مجاميع وفوائد بخطه وجمع تفسيرا في نحو عشر مجلدات ..

شيخ الاسلام رحلة الافاق والمحقق على الاطلاق عز الدين بن عبد السلام ابن داود بن عثمان السعدي المقدسي .. مولده بقرية كفر الماء من عجلون في سنة احدى او اثنتين وسبعين وسبعمائة .. وحفظ كتبا من فنون شتى وحصل وبرع في العلوم ، وولي تدريس الصلاحية .. توفي سنة خمسين وثمانمائة ..

وغير من عشرات بل مئات العلماء والفقهاء عاشوا ارض فلسطين — ارض القدس — وتركوا فيها تراثهم الحي الخالد ..

ولقد لعبت المدارس ، والزوايا ، والربط وغيرها ، والتي اسست في العهد الايوبي ، والمملوكي — دورا كبيرا في ارساء قواعد التراث العربي — الاسلامي في فلسطين ..

ولا يسع المجال هنا الى ذكر جميع هذه المدارس لانها تتجاوز المئات .. ولا بأس ان نشير الى اسماء بعضها ..

المدرسة الصلاحية بالقدس : على المذهب الشافعي ..

المدرسة الفارسية : بداخل المسجد الاقصى

المدرسة الناصرية : على برج باب الرحمة

الرباط الخاتونية : واقفها افل خاتون

المدرسة الجاولية : واقفها سنجر الجاولي

المدرسة الباسطية : واقفها عبد الباسط بن خليل

المدرسة الطولونية : انشأها الظاهر برقوق

الزاوية الشيخونية : واقفها سيف الدين قطيشا

المدرسة البارودية : واقفها الست سفرى خاتون (١٠)

ويلاحظ من اسماء هذه المدارس ووقفيتها ان المرأة المسلمة كانت تلعب دورا كبيرا في خلق التراث الفكري والعلمي في مدينة القدس •• وبلاد فلسطين عامة •

لم يقتصر ظهور العلماء والفقهاء على مدينة القدس فقط ، وانما تعداه الى مدن فلسطينية اخرى — كغزة وعسقلان ، وطول كرم وغيرها •• وقد تركوا جميعا تراثا فكريا زاخرا حيا في مختلف مجالات اللغة والفقه والحديث والعلم والطب وسوف نعرض هنا بعض اسمائهم بدقة وايجاز••

لقد ذكرت سابقا الامام الشافعي ، ولا بأس هنا ان اذكره ثانية باعتباره من علماء غزة ، ومؤسس المذهب الشافعي •• وكان ادريس والد الشافعي قد اتى غزة واتخذها مقرا له ومات فيها •• واما امه فالمشهورة انها يمانية من الازد •• ولد الشافعي بغزة في العام الذي توفى فيه الامام ابو حنيفة النعمان ••وحياته من (١٥٠ هـ / ٧٦٧م — ٢٠٤ هـ /٨٢٠م)•• وكان الشافعي ذكيا مفرطا برع في اللغة وايام العرب ، كما برع في الفقه والحديث : ويروي له بذكر موطنه غزة قوله :

واني لمشتاق الى ارض غزة — وان خانني بعد التفرق كتماني
سقى الله ارضا لو ظفرت بتربتها — كحلت من شدة الشوق اجفاني

وله مؤلفات كثيرة منها : كتاب الام في الفقه ، وهو كتاب ضخم ،وله ايضا المسند في الحديث ••

ومن مشاهير غزة في العهد المملوكي :

عمر بن محمد بن علي بن فتوح سراج الدين حفص الغزي ، برع في النحو والقراءات والحديث والفقه •

---

(١٠) لغرض الاطلاع على اسماء العديد من هذه المدارس يراجع كتاب الانس الجليل جـ ٢ ، ص ٣٣ — ٥٠ •

واشتهر ايضا في غزة كل من :ـ

الحسن بن الفرح الغزي ، فقيه ورواية من رواة القرن الثامن للهجرة ..

وابو عبدالله محمد بن الجراح الغزي ، من رواة الحديث وفقهاء القرن الثالث للهجرة [11] وابو بكر محمد بن العباس بن وصيف الغزي، عالم فقيه توفى عام ٣٧٢ هـ [12] .

وابراهيم بن عثمان الكلبي الاشهبي الغزي ، ابو اسحق ٤٤١ هـ ـ ٥٢٤/١٠٤٩م ـ ١١٣٠م ويعد من مشاهير من انجبتهم غزة ، فهو شاعر مجيد ، يضرب المثل بجودة شعره ، ذكره الحافظ الذهبي بقوله : «شاعر العصر ، وحامل لواء القريض » وله ديوان شعر في نحو (٥٠٠٠بيت)[13]

ومن ابرز نواب غزة ، الذي مر ذكره سابقا ، هو الجاولي الشافعي ، والجاولي هذا هو الذي رتب « مسند الشافعي » ترتيبا حسنا ، وشرحه في مجلدات ...

ومن العلماء الاخرين الذين اشتهروا في الطب ـ محمد الريس[14].. وكان طبيبا حاذقا ، وقد اشتهر في طبه وحكمته ، وله تأليف في الطب، واشتهر في سوريا ومصر ، وتوفي بالقدس عام ١١٣٠ هـ /١٧١٨م .

ومنهم ايضا كمال الدين البكري ١١٤٣ هـ ـ ١١٩٦هـ / ١٧٣١ م ـ ١٧٨٢م ، وهو شيخ علامة صوفي واديب شاعر من فقهاء الحنفية بفلسطين،

---

(١١) انظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، ٤\٢٠٣ .

(١٢) انظر ابو الفلاح الحنبلي شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ ، ٧٩/٣ ..

(١٣) انظر الحافظ الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، الكويت ،١٩٦٣، ١\٥٥ .

(١٤) انظر ، المرادي ، سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر القاهرة ، ٤\٥٩ .

ولد في القدس وتوفي في غزة ، له مؤلفات وديوان شعر .

وفي مدينة عسقلان اشتهر عدد كبير من العلماء نذكر منهم :

ابان بن صالح بن عمير القرشي ، من رواة الحديث ولو سنة ٦٠هـ، ومات بعسقلان سنة بضع عشرة ومائة (١٥) ..

وعمر بن محمد بن يزيد بن عبدالله بن عمر العمري من الرواةوالعباد، وكان افضل اهل زمانه ، توفي في عسقلان سنة ١٥٠ هـ (١٦) ..

واحمد بن حجر العسقلاني الاصل ، المصري المولد والمنشأ ٧٧٢هـ ــ ٨٥٣هـ /١٣٧٢م ــ ١٤٤٩ م وهو الفقيه والمحدث والمؤرخ ، ويعرف بابن حجر العسقلاني من أئمة العلم والتاريخ ، واما تأليفه فقد زادت على المئة وخمسين كتابا منها :الاصابة في تمييز الصحابة ، والدرر الكامنة فياعيان المئة الثـامنة ، وفتح الباري شرح صحيح البخاري ، ولما توفي مشى في جنازته في القاهرة اكثر من خمسين الف انسان .

وفي طول كرم ، برع علماء وفقهاء كثيرين ، نذكر منهم :ــ

الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي ، تصدر للافتاء في الجامع الازهر، ذكره المحيي محمد بقوله : « احد اكابر علماء الحنابلة بمصر ، كان اماما محدثا ففيها ذا اطلاع واسع » له نحو سبعين مؤلفا ، توفي في عام ١٠٣٣هـ

ويوسف بن يحي بن مرعي الكرمي ، اخذ العلم منعلماء مصر ،تصدر للافتاء في بلاد نابلس ، توفي عام ١٠٧٨ هـ .

وفي قلقيلية ــ ينسب اليها الكثير من رجال العلم والفضل ، ومن اقدم علمائها الشيخ شمس الدين محمد بن احمد بن ابراهيم مفلحالقلقيلي

---

(١٥) عن تهذيب بن عساكر ، ٢/١٣٠

(١٦) عن شذرات الذهب ، ١\٢٠٩ .

٧٧٦هـ ـ ٨٥٢ هـ كان شيخا صالحا ، عالما كثـير العبادة ، ونزل ببيت المقدس ، وبها توفي ••

وفي نابلس اشتهر محمد بن احمد بن سالم السفاريني شمس الدين ابو العون (١١١٤ هـ ـ ١١٨٨ هـ) عالم بالحديث ، والاصول والادب ، درس وافتى بنابلس ، وفيها توفى ، له مؤلفات وشعر رقيق ••

من هذا العرض الدقيق الشامل تبرز لنا قيمة التراث الفكري والعلمي للعرب والمسلمين على ارض فلسطين العربية •

ولنا وطيـد الامل ان تبرز بحوثا ودراسات اخرى في هـذا المجال ومجالات اخرى ، لكي نوضح بشكل علمي موضوعي معالم تراثنا الخالد على كل ارض وبلد من هذه المعمورة •

والله ولي التوفيق

ملامح من تاريخ :

حركة الخوارج الاباضية

كما تكشفها مخطوطة الأزكوي

الدكتور فاروق عمر فوزي
كلية الآداب - جامعة بغداد

مقدمة :

لقد اضافت البحوث التاريخية الحديثة الى معلوماتنا عن الحركة الاباضية خاصة وحركة الخوارج عامة اكثر مما اسهم به ولها وزن وقبله برونو (1) . وممن برز في هذه البحوث الحديثة مستشرقين امثال Rubinassi و Watt و Gabsicli و Vaglievi و Lewicki و Wilkinson و Scascia (2) . وقد استطاعت هذه البحوث ان تلقي ضوءا

---

(1) Wellhausen, **The Arab Kingdom and its fall**, Calcutta, 1922.
Idem, **Die religios-politischen Oppositions parteren in alten Islam,** Berlin 1901 (Arabic trans).

(٢) R. Rubinacci - Califfa Abd al-MaliK b. Marwan egli lbaditi, ALON, 1953 pp. 99 - 121

M. watt Khazijite thought in the Umayyad period, D. I., 35, 1961.

F. Gabrieli - La Poesia Harigita nel Secola degli Omayyade, R. S. O., 20, 1943.

جديدا باعتمادها على مصادر لم تكن معروفة سابقا وخاصة ما يخص منهـا وجهة النظر الخارجية التي كانت مغمورة او غامضة لحد الآن بسبب معارضة هذه الحركة للخلافتين الاموية والعباسية معا • ومعلوم ان المؤرخ المحقق لا يمكنه ان يكون صورة اقرب ما تكون الى الحقيقة الا اذا قرأ «ما تحدث به او كتبه المنهزمون والمنتصرون جميعا » (٣) بشرط الا يسخر ما يقرأه الي تطبيق نظرية مسبقة في ذهنه لأنه سيصل حتما الى نتيجة بعيـدة عن الواقع ذلك ان « البحوث التاريخية مقضي عليها بالعقم اذا سخرت لأيـة نظرية او رأي سابق » (٤) • ان اهم المصادر التي وصلتنا عن تاريخ الحركة الاباضية وخاصة في اقليم عمان هو مخطوطة سرحان بن سعيد الازكوي الموسومة (كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة) والتي ألفها حوالي سنـة

→

L. Vaglieri - Le Vicende Del Harigismo in epoca Abbasside, R. S. O., 24, 1949,

idem - L'imamats ibadita dell 'Oman, ALUON, 3, 1949.

T. LewiciKi - Les lbadites en Tunicie au Moyen Age, Conference BAPR, 1958.

wilKinson - The Origins of the Omani State (in Arabian peninsula), London 1972.

Scarcia - Lo scambio di letters... ALVON, xiv, 1964.

E. Salem - Political theory and Institutios of the Khawarij, (J. H. U. S.), series XLLIV, no: 2. 1966.

د . محمود اسماعيل عبد الرزاق ـ جدل حول الخوارج وقضيـة التحكيم المجلة التاريخية المصرية ، ٢٠ ، ١٩٧٣ .

R. Bathurst, The Ya'rubi dynasty of Oman, D. phil, Oxford, 1976 (see also The Arabian Peninsula, pp. 89 - 107) .

(٣) راجع طه حسين ، الشيخان ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٨ـ٩ .

(٤) إتيين دينيه ، **الشرق في نظر** الغرب ، ترجمة عمر فاخوري (اراء غربية في مسائل شرقية) دمشق .

١٧٢٨م /١١٤١هـ وتتألف المخطوطة من اربعين بابا تشتمل الأبواب الثلاثة الاولى على ذكر اخبار الجاهلية واعتقادات اهل الشرك وذكر ملوك العرب والعجم واخبارهم • ويختص الباب الرابع في ذكر انتقال الازد الى عمان وطرد الفرس منها •

اما الابواب التالية حتى الباب السادس والعشرون فيشمل على اخبار الرسول (ص) والخلفاء الراشدين من بعده • ويختص الباب السابع والعشرون بذكر جواب عبدالله اباض لعبد الملك بن مروان •

اما الباب الثامن والعشرون فيشتمل على الفرق الاسلامية وهو لاشك مهم لأنه يظهر بوضوح رأي الاباضية في الفرق الاخرى وموقف الاباضية من فرق الخوارج الاخرى (الفصل الثالث) ويفصل الباب التاسع والعشرون في اعتقادات الاباضية وهي وجهة نظر مهمة لأنها منبعثة عن مؤلف خارجي العقيدة يتكلم عن فرقته• ولا شك فانه يندر ان نجد في مصادرنا التاريخية روايات تعبر عن وجهة نظر الخوارج انفسهم •

وتعود اهمية الباب الثلاثين في كونه يبحث في اخبار الدولتين الاموية والعباسية فيعطي وجهة نظر الخوارج الاباضية فيهم !!

اما الابواب التالية من الباب الحادي والثلاثين الى الباب الثامن والثلاثون فهي تركز على الحركة الخارجية الاباضية وانتشارها في المغرب وعمان • والواقع ان بابا واحدا منها خصص للمغرب وهو الموسوم (في ذكر انتشار المذهب الاباضي بارض المغرب وذكر ائمتهم وعلمائهم) • وتبدأ الابواب الاخرى في سرد تاريخ عمان من انتشار الاسلام فيها حتى حكم اليعاربة •

اما الباب التاسع والثلاثون ففيه ذكر لتواريخ بعض الصحابة وعلماء الاباضية في عمان وغيرها ويختتم المؤلف كتابه بالباب الاربعين التي تتعلق بامور دينية عقائدية بحتة ولا شك ان وجهة نظر المؤلف ــ وهو خارجي ــ

في هذه الامور مهمة ايضا لأنها تعكس موقف الخوارج الاباضية منها.(٥)

ان مقارنة هذه المخطوطة بغيرها من التواريخ المحلية القليلة عن عمان يظهر لنا بوضوح ان (كشف الغمة) يعتبر من احسن ماكتب في التاريخ المحلي تكاملا ووثوقا فيما يتعلق بتاريخ هذا الاقليم .(٦)

الأباضية والدولة الأموية :

يشير كتاب (كشف الغمة الجامع لاخبار الامة) الى مراسلات تمت بين الخليفة عبد الملك بن مروان ومؤسس الاباضية عبدالله بن اباض وتؤكد هذه الرسائل مصادر اباضية اخرى . ولا تهمنا هنا المسائل التي دارت حولها الرسائل ولكن يبدو ان عبد الملك بن مروان افلح في اقناع ابن اباض باتباع سياسة (العقود) بل نجح كذلك في اشغاله بامور الفكر والعقيدة عن امور الحرب والسياسة (٧) . على ان الحركة الاباضية لم تستمر في منهجها هذا بل نشطت بعد عهد عبد الملك بن مروان كبقية الحركات الخارجية الصغرية والنجدات فشغلت الدولة الاموية عن مجابهة نشاط الحركات السرية الاخرى كالدعوة العباسية مثلا التي نشطت في العراق وخراسان منذ حوالي سنة ٩٨هـ / ٧١٦م .

وفي سنة ١٢٩هـ /٧٤٦ ـ ٧٤٧ م كان خوارج الجزيرة من اقوى الجماعات الخارجية ، وقد انتخبوا شيبان(٨) بن عبدالعزيز اليشكري

---

(٥) المخطوطة كبيرة في حجمها وقد بدأت فعلا بتحقيقها ، وارجو ان تظهر في المستقبل لتكشف لنا معلومات جديدة عن تاريخ الاباضية عامة وتاريخ عمان خاصة ، وكذلك الارتباط الوثيق بين اباضية المغرب العربي وعلماء الاباضية في المشرق (خاصة البصرة) .

(٦) فاروق عمر ، ببليوجرافيا في تاريخ عمان ، **مجلة المورد** ، ١٩٧٥

(٧) Rubinacci, Codiffo Abd al-Malik..., **AIUON,** 1954, p. 104

(٨) الطبري القسم الثاني ص ١٩٤٨ ، ١٩٧٢ ، ١٩٩٥ ـ ١٩٩٧ .

الحروري اماما لهم ثم زحفوا نحو الموصل واحتلوها وطردوا والي الامويين عليها • وفي الوقت ذاته انبثقت حركة اباضية في حضرموت (٩) واحتلت صنعاء ثم زحفت من هناك الى مكة والمدينة • ولكن الضربات المتتالية التي الحقها مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين على الخوارج كانت ذات اثر فعال في شلها واعاقتها ربما عن تأسيس كيان خاص بها فقد تبعثرت الجماعات الخارجية في اقاليم مختلفة من الدولة بعيدة عن المركز مثل عمان وسجتان وكرمان وافريقيا • وقد نجح مروان في طرد شيبان بن عبد العزيز اليشكري الذي هرب الى منطقة الخليج العربي وتشير روايات الى انه قتل في البحرين او عمان • اما زعماء الاباضية في اليمن والحجاز فقد لاحقوا حتفهم كذلك وتفرقت جموعهم •

ورغم النكسات السياسية والعسكرية التي حلت بالخوارج في العصر الاموي فقد ظلت ارائهم وعقائدهم تنتشر وتجد لها اذنا صاغية • وقد لعبت البصرة في القرن الاول الهجري وخاصة في العصر الاموي دورا فعالا في بلورة العقيدة الخارجية ذلك لانها كانت مركزا مهما للنشاط الفكري عامة• بل ان نشاط الجماعات الخارجية فكريا في البصرة استمر خلال السنين الاولى من العصر العباسي الاول (١٠) • وليس أدل على ذلك من ان عبدالرحمن بن رستم تلقى علومه واصول عقيدته الاباضية على يد فقهاء الاباضية من البصرة ثم عاد الى المغرب ومعه جماعة من الاباضية احدهم ابو الخطاب الذي اصبح بعد ذلك بمدة وجيزة اول امام اباضي في المغرب•

فمن البصرة ترك ابو الخطاب وعبدالرحمن بن رستم لنشر لمذهب الخارجي في المغرب وقد صادف الاثنان ظروفا جيدة ونجحا في تنفيذ خطتهما في البدء • رغم ان الامور ساءت بالنسبة لابي الخطاب فيما بعد •

---

(٩) الازدي ، تاريخ الموصل ، القاهرة ١٩٦ ص ٧٧ فما بعد .

(١٠) الازكوي ، **كشف الغمة** ، مخطوطه في المتحف البريطاني .—

وهذا يوضح الارتباط الفكري الوثيق بين خوارج المغرب وخوارج المشرق العربي . بل ان البصرة كانت البؤرة لفكرية التي كان زعماء الاباضية في المغرب يعتمدون عليها .

الامامة الاباضية في عمان :

إن دراسة التاريخ السياسي لاقليم عمان لا يمكن ان يتم ، كما يشير الى ذلك البروفسور ولكنسون (١١) ، دون دراسة اصول التنظيمات القبلية وانماطها وعلاقة ذلك بالامامة الاباضية . ذلك لان هناك ثلاثة ظواهر تتحكم في تاريخ هذا الاقليم وهي : القبلية ــ الامامة ــ ثم الصراع بين العمانيين والاجانب للسيطرة على الساحل العماني لأهميته الاقتصادية .

وقد قبل بنو الجلندي العمانيون الاسلام ، وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب ازداد انتشار الدعوة وزادت قوة بنو الجلندي الازديون الذين استطاعوا طرد الفرس من الاقليم والسيطرة على الداخل بما فيه من جبال وصحارى بينما بقيت جماعات فارسية غازية تتمركز على الساحل . (١٢)

ولا تشير مصادرنا بصورة دقيقة حتى اصبحت الاباضية العقيدة الواسطة الانتشار في عمان ويرى الدكتور باثيرست (١٣) انه ربما كان هناك ائمة خوارج قبل الاباضية .

على اننا نعتقد بان تأسيس الامامة الاباضية يعود في الاعم الاغلب الى الاندحارات التي قاست منها الحركة الاباضية في اليمن والحجاز وهرب الخوارج الذين اشتركوا في هذه الثورات الى اقليم عمان . ولم يتم تكوين

---

(١١) Wilkinson, op. cit., p. 67   Ibadiyya **E. I. (2)**

(١٢) الازكوي **المصدر** السابق ، (الباب الرابع) .

(١٣) Bathurst, Maritime trade and imamate government (The Arabian peninsula) p. 90.

هذا الكيان السياسي الاباضي الا بعد سقوط الامويين ويحيي العباسيين حيث انتخب خوارج عمان الجلندي بن مسعود اماما اولا حوالي سنة ١٣٥ هـ /٧٥٢ او قبل ذلك بقليل .(١٤)

ولكن لماذا اقليم عمان ...؟؟

ربما سيرد ذلك كما ذكرنا الى وجود جماعات خارجية في هذا الاقليم قبل هذا التاريخ والى انتشار العقيدة الخارجية هناك .

هذا اضافة الى ان قبائل الازداليمانية اعتادت على نوع من الاستقلال وعدم الخضوع للسلطة المركزية ولعل الشواهد الكثيرة في صدر الاسلام تثبت صعوبة السيطرة على قبائل هذا الاقليم .(١٥)

ولكن الاهم من هذا وذاك الموقع الجغرافي وصعوبة الطبيعةووعورتها في هذا الاقليم . فلعمان موقع جغرافي ممتاز يتحكم بمدخل الخليج العربي ويقابل البحر العربي الذي يتصل بالمحيط الهندي ذو الاهمية التجارية والاستراتيجية . اما في الداخل فالاقليم يختلف في طبيعته من جبال شاهقة وعرة الى سهول منبسطة خصبة الى صحراء جرداء قاحلة ولهذا فيمكننا تشبيه عمان بجزيرة كبيرة يحدها البحر من الشرق والجنوب وتحدها الصحراء (البحر الرملي) من الغرب فتفصلها عن بقية اجزاء الجزيرة العربية .

لقد اثرت هذه الطبيعة الجغرافية على اهل عمان فقد اخذوا على البحر

---

(١٤) F. Omar, The Abbasid Caliphate 750-786 A.D., Baghdad, 1969, p. 289

(١٥) الازكوي ، المصدر السابق ، ورقة ٣٢٧ أ . — خليفة بن خياط ، تاريخ ، بغداد ، ١٩٦٧ جـ ١ ص ٢٧٧ . ص ٣٠٠

(١٦) P. Harrison, The Arabs of Oman, M.W., 24, 1934 pp. 262-70

وعرفوا بكونهم ملاحين مهرة ولكن لم يشغلهم البحر عن ارتباطاتهم الوثيقة باخوانهم ببلاد العرب وخاصة حضر موت واليمن فكانت هناك اعداد كبيرة من ابناء القبائل اليمانية المهاجرة الى عمان قبل الاسلام وبعده (١٧) .

وقد ساعدت الجبال الشاهقة والوعرة سكان هذا الاقليم الاعتصام بها في حالة هجوم اجنبي غازي عبر الخليج العربي. وبعد ان ينظم العمانيون انفسهم ويستعدوا للمجابهة يهاجموا الغزاة ويجبروهم على ركوب البحر والعودة من حيث اتوا . وفي هذا المجال اتبع العمانيون اساليب وطرق بحرية للدفاع عن بلدهم والتصدي للمعتدين !!

منعطفات مهمة في تاريخ الامامة الاباضية بعمان :

ومنذ تأسيس الامامة الاباضية او كما يسمونها هم «الامامة الاسلامية» بانتخاب الامام الاول الجلندي لم تشهد عمان استقرارا كافيا بل تناوبت فيها السلطة بين الائمة الاباضية وبين ولاة السلطة العباسية .

فقد استطاعت الخلافة العباسية في عهد ابي العباس ان تعيد سلطتها على عمان سنة ٧٥٣م/١٣٦هـ حين ارسلت جيشا بقيادة خازم التميمي استطاع ان يسقط الامام الجلندي ابن مسعود (١٨) .

ثم عادت الامامة الاباضية لتحكم الاقليم في حوالي سنة ١٧٧ هـ ٨٩٣ ــ ٧٩٤م او قبل ذلك بقليل حيث حكم البلاد خمسة ائمة متتابعين حتى سنة ٨٨٧م/٢٧٤هـ ، استطاعوا خلالها ان يردوا هجمات السلطة العباسية والقراصنة على الساحل العماني .

الا ان العصبيات القبلية والاضطرابات الداخلية ادت الى سقوط آخر

---

(١٧) الازكوي ، المصدر السابق ، (الباب الرابع)

(١٨) الازكوي .Op. cit (الباب ٣١ ــ ٣٨).

هؤلاء الأئمة الخمسة فتردت البلاد الى حالة من الارتباك وعدم الاستقرار كان نتيجتها استنجاد النزارية بوالي البحرين العباسي سنة ٢٨١ هـ/ ٨٩٣ ــ ٨٩٤ م .

ان المنعطف المهم في تاريخ الامامة الاباضية في عمان يعود الى حملة سنة ٢٨١ هـ آنفة الذكر فقد اعد الخليفة العباسي المعترض جيشا قويا اعطى قيادته الى والي البحرين الذي اجتاح الاقليم واعاد النفوذ العباسي اليه(١٩)

ولكن سيطرة العباسيين كانت وقتية فقد أقصي الوالي العباسي وتعاقب على حكم الاقليم ثمانية ائمة اباضية جاءوا بطريق الانتخاب حتى سنة ٩٣٠ ــ ٩٣١م /٣١٩هـ حينما نجح القرامطة في مد نفوذهم الى عمان . ومع ذلك فقد بقيت اجزاءا من عمان تحت حكم الائمة حيث حكم خلال هذه الفترة بالذات ثلاثة ائمة آخرين .

ثم استطاعت قوة عباسية جديدة ان تتحكم بالاقليم سنة ٩٤٣م/٣٣٢هـ بصعوبة حيث جابهتها ثورات خارجية اباضية متعددة . وقد تميزت هذه الفترة الاخيرة بصراع حاد بين ائمة الاباضية من حين وبين البويهيين والقرامطة من جهة اخرى للسيطرة على عمان . وقد نجحت السلطة العباسية او من يمثلها [البويهيون] في ايجاد الاعوان من زعماء القبائل والشيوخ المحليين ليكونوا سندا لها ضد الاباضية . ورغم ذلك فان شيعة الخوارج وانصارهم كانوا كثرة في هذا الاقليم وبقوا كذلك الى فترة متأخرة .

ان الاضطراب السياسي وعدم الاستقرار ومضايقات السلطة العباسية والقرامطة لم تؤثر كثيرا على تجارة عمان (٢٠) فقد استمرت التجارة في ازدهارها وجلبت لهذا الاقليم احيانا وفرة ورضاءا .

---

(١٩) المصدر السابق .

(٢٠) Bothurst, op. cit, p. 91

نشوء الامامة الاباضية في المغرب العربي :

تؤكد مخطوطه الازكوي اثر المشرق وخاصة البصرة في بث العقيدة الخارجية الاباضية بالمغرب العربي كما اشرنا الى ذلك سابقا ، ويخصص المؤلف بابا في (ذكر انتشار المذهب الاباضي بارض المغرب وذكر ائمتهم وعلمائهم) • (٢١)

وقبل ان نستشهد بنصوص تاريخية من هذه المخطوطة نود أن نشير بان ارض المغرب كانت ارضا خصبة لنشر العقيدة الخارجية حيث انتشر المذهب الاباضي والصفري في مناطق شاسعة رغم انها متناثرة • وبقدر ما يتعلق الامر بالاباضية ، موضوع بحثنا ، فقد انتخب ابو الخطاب اول امام للاباضية سنة ١٤٠هـ/٧٥٧ ــ ٧٥٨م • وبعد ذلك باربع سنوات (سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١م) اسس عبد الرحمن بن رستم حكما اباضيا في تاهرت كتب له في المستقبل ان يؤثر على مجموع الحركة الخارجية في افريقيا ، وتمتع ائمة تاهرت شبوة واسعة وصلت المشرق العربي • وتشير روايات عديدة الى بعثات ذهبت من المشرق الى ابن رستم محملة بالهبات المالية والهدايا العينية (٢٢) • ويظهر ان خوارج المشرق العربي من الاباضية خاصة الذين رأوا في تأسيس الدولة الخارجية في المغرب العربي امكانية احياء العقيدة الخارجية وبعث تراثها القديم • وترى الاستاذة فاكاتيري بان خوارج البصرة « الذين يخشون السلطة العباسية القريبة منهم والذين اعتادوا ان يخفوا معتقداتهم تقية ، ارتأوا مساندة الحركة الخارجية في المغرب بالمال والنصح منذ السنين الاولى للحكم العباسي » •

وفيما يلي نصوص مخطوطة (كشف الغمة الجامع لاخبار الامة)

---

(٢١) الازكوي ، المصدر السابق ، (الباب الثاني والثلاثون) .ــ قارن محمد علي دبوز ، تاريخ المغرب الكبير ، الجزء الثاني ، ١٩٦٣ ، ص٤٣٢.

(٢٢) راجع Vaglieri, Le Vicende..., R.S.O., 1949, p. 33

تنشر لأول مرة ، وهي من الباب الثاني والثلاثون وتتعلق بانتشار المذهب الاباضي في ارض المغرب :

« قيل ان اول من مضى بالمذهب الاباضي من البصرة سلمة بن سعيد قدم لي قيروان افريقية هو وعكرمة مولى ابن عباس وهما راكبان على جمل واحد . سلمة يدعو الي الاباضية وعكرمة يدعو الي الصفرية . وقيل ان سلمة قال وددت ان يظهر هذا المذهب بارض المغرب يوما واحدا من غدوه الي الزوال فما ابالي ضربت عنقي..

ثم ان عبدالرحمن بن رستم بن بهرام بن كسرى الملك الفارسي كان اصله من العراق وكان ابوه رستم عنده من العلم ان ذريته تسلي ارض المغرب . فاقبل متوجها من العراق ومعه ولده عبد الرحمن وامه وزوجته ام عبد الرحمن ، فلما كان قريبا من مكة ادركه صمامه فانقضت ايامه ، فالتقا عبد الرحمن وامه مع الحجاج من ارض المغرب بمكة فتزوجت ام عبد الرحمن رجلا من اهل المغرب من القيروان ، فلما بلغ مبلغ الرجال وقرأ وافصح واجتهد في طلب علم الدعوة الاباضية فقال له رجل من اهل هذ ه الدعوة يافتى ان كنت تريد علم هذا الامر الذي كلفت به وعلقته ببالك فدونك ارض البصرة فان بها عالما يكنى ابا عبيدة واسمه مسلم بن ابي كريمة التميمي فانك تجد عنده ما تطلبه .

وقيل ان امه قالت له ذلك فلما اراد الخروج الى البصرة خرج معه اربعة انفار احدهم ابو الخطاب عبد الاعلا بن السمح المغافري ومغافر قبيلة من العرب ، وعاصم

السدراني واسماعيل بن دارآن القدامسي وابو داود القبلي •

فلما التقوا بابي عبيدة صافحتم وسالهم عن احوالهم ومن اين اقبلوا فأخبروه انهم من اهل المغرب وانهم ارادوا تعلم العلم فاجابهم الى ذالك فمكثوا عنده سنين عدة •

وكان الشيخ ابو عبيدة مستخفيا متخوفا من بعض امراء البصرة وادخلهم سربا وجعل فيه سلسلة وقعد على باب السرب يعمل القفاف فاذا رأى احدا حرك السلسلة فيسكتون • فاذا مضى حركها فيأخذون في قراءتهم •

وكان عبد الرحمن شابا جميلا حدث السن • وكان ابو عبيدة يجعل بينه وبين الناس سترا لئلا يشغلهم بجماله، فلما بلغوا من العلوم ما قدر الله لهم وارادوا الانصراف الى بلادهم استأذن العجائز أبا عبيدة وطلبن ان يريهن عبد الرحمن يدعون له فاجابهن وادخلهن عليه وكن ثلاثا ودعت له واحدة وقالت بارك الله فيك كما بارك في عين الشمس وقالت الثانية بارك الله فيك كما بارك في البصر وقالت الثالثة بارك فيك كما بارك في طيب الطعام من الملح•

فلما ارادوا المسير كلموا ابا عبيدة واستشاروه في شأنهم فقالوا يا شيخنا اذا كانت لنا في بلادنا قوة ووجدنا من انفسنا طاقة تتولى على انفسنا رجلا منا أو ما ترى قال فتوجهوا الى بلادكم فان حان امر دعوتكم ما يجب بهعليكم التولية في العدد والعدة من الرجال فولوا على انفسكم رجلا منكم فان ابى فاقتلوه واشار الى ابي الخطاب(رض)

فلما رادوا الخروج من عنـده تهيأ الشيـخ للركوب لموادعتهم وجعل رجله في الركاب سأله اسماعيل عن ثلاثماية مسئلة من مسائل الاحكام قبل ان يستوي على متن ركابه فقال له ابو عبيدة أتريد ان تكون قاضيا يا ابن داران قال أرأيت ان ابتليت به يرحمك الله •

ثم توجهوا الى بلادهم فلما قدموا طرابلس اهتم بامور المسلمين من له نظر فيهم من المشايخ فاجتمع جماعـة من المسلمين بعدما اقتتل الحارث وعبد الجبار والناس في الكتمان، فكانوا يجتمعون ويذكرون عقـد الامامة فاجالوا النظـر واطالوا الفكر فيما بينهم فيمن يولونه وهـل يكون لهـم قوة على عدوهم وكان اجتماعهم في موضع يقال له صيـاد غربي مدينة طرابلس فيظهرون انهم انما يجتمعون في امـر رجل وزوجته اختصما فاذا اجتمعوا او فرغوا من كلامهـم توجهوا الى عامل المدينة فيسلمون عليه مداراة •

ثم انهم عرضوا الامامة على عبد الرحمن بن رستـم فاعتذر اليهم بأماين كانت عنده للناس ثم اتفق رأيهم على ابي الخطاب وجعلوا بينهم يوما معلوما ليجتمعوا فيه بالصيـاد وتعاهدوا على ان يأتي كل واحد منهم بمن تبعه من الرجال بالسلاح ويجعلون الدرعة في الغرائر ويحشونها بالتبـن • وكانت بينهم وبين مشايخ المسلمين من اهل المدينة ومـن لا يقدر على النهوض معهم علامة اذا رأوهم دخلوا المدينـة بحمايتهم ان يشهروا السلاح ويظهروها • واخبروهـم ان الامام ابو الخطاب في السر •

فلما كان بالموعـد اجتمعوا فيه بعامة المسلميـن من شيوخ البربر من بقوسة وهوارة وحريشة وغيرهم من افناء

القبائل فلما توافوا بصياد وقد اخرجوا ابا الخطاب حين خرجوا وقالوا له امض معنا على بركات الله وعونه في هذا الامر الذي تحيرنا فيه منذ زمان فخرج معهم ولم يدر ما يريدون منه وهو غافل عن مرادهم فلما وصلوا الى صياد تكلم متكلمهم فقال : أليس قد اجتمع رأينا على ماعلمتموه قالوا بلى قال فأتموا امركم فقامت منهم طائفة بناحية فتكلموا فيما بينهم ثم رجعوا فقالوا لأبي الخطاب ابسط يدك لنبايعك على ان تحكم فينا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واثار الصالحين من عباده • فقال لهم استغفلتموني وليس لهذا خرجت اليكم • فقالوا له لا بد لك من الدخول في امور المسلمين • فلما رأى الحقيقة منهم والجد قال لهم لا اقبل امامتكم الا بشرط فقالوا كل شرط يجوز فنحن معطوكه ونطيعك فيه • قال شرطي عليكم الا تذكروا في عسكري مسألة الحارث وعبد الجبار خوفا منه عليهم ان يكون في جماعة المسلمين فرقة واختلاف •

وحدث بعض اصحابنا ان مسألة الحارث وعبد الجبار اتصلت الى أرض المشرق ، وكان بينهم فيها اختلاف وفرقة• وفي المغرب اشد من ذلك حتى كتب اليهم ابو عبيدة مسلم ابن ابي كريمة وابو مودود صاحب رحمهما الله يأمرانهم بالكف عن ذكرهما فاراد ابو الخطاب ان يقطع الاحقاد من جماعة المسلمين بامانة ذلك •

فقالوا له لك ذلك علينا وبايعوه على الاقامة بحق الله على مافي الكتاب والسنةواتباع الأئمة المهتدين فقبل مبايعتهم وذلك على رأس ماية واربعين سنة من الهجرة •

ثم اجتمع رأيهم على دخول مدينة طرابلس وكان بها عامل لابي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس فعمدوا الى جواليق فادخلوا فيها الرجال بسلاحهم وجعلوا افواه الجوداليق مربوطة من داخلها فحملوا على كل حمل رجلين بسلاحهما ومضوا كأنهم قافلة جاءت من البرية حتى توسطوا المدينة ولم يفطن لصنيعهم احد فاناخوا ركابهم وخرجوا الرجال من الجواليق بايديهم السيوف المصلتة فنادوا لاحكم الا لله لاطاعة الا طاعة أبي الخطاب وقصدوا نحو العامل ليقتلوه فابى عليهم الامام وقال انما دخلنا عليهم بامان •

ولما نظر اليهم اهل المدينة وقد اشهروا السلاح قالوا هذه غدرة قال المسلمون ليس هذا بضرر لا بأس عليكم فمن اراد منكم العافية فليقم في منزله وخير ابو الخطاب العامل في الاقامة بالمدينة وينخلع من العمالة او الخروج بامان فاختار الخروج ودفع الى ابي الخطاب مفاتيح بيت المال فأخذها منه واستقام الامر لأبي الخطاب واحسن السيرةفي رعيته وعدل في حكمه وقضيته •

ثم كتبت اليه امرأة من القيروان تشكو اليه جور الورقمومة وكانت ورقمومة مستولية على القيروان ،فكتبت اما بعد يا امير المؤمنين ان لي ابنة لم احرزها الا في حفرة حفرتها تحت سريري مخافة عليها من الورقمومة ان يفسدها فوصل اليه كتابها وهو يتوضأ فقرأه وصار يبكي رحمة لها لما نزل بها فأمر فنودي بصلاة جامعه فاجتمع اليه الناس فصلى بهم وصعد المنبر وقام خطيبا فحمد الله واثنى عليه

خيرا ورغب اصحابه في الجهاد وامر رعيته بالاستعداد للحرب وخرج من المسجد فلما وصل باب المسجد سل سيفه وكسر غمده وقال لا حكم الا لله ترغيبا منه المسلمين للجهاد وغضبا منه لله ولدينه •

وبلغنا من طريق آخر ان ورقمومة اخرجوا من القيروان امرأة وهي تصبيح وتقول اعينوني معاشر المسلمين فلم تجد احدا يرفع عنها ما بها فلما بلغ ابا الخطاب رضي الله عنه اجابها واغاثها بمعاشر المسلمين •

وذكر بعض اصحابنا ان امرأة من اهل القيروان ظلمها ورقمومة فصاحت من القيروان يا ابا الخطاب اغثني فأمد الله صوتها وسمعها ابو الخطاب من مدينة طرابلس فقال مجيبا لها لبيك يا اختاه لبيك فعند ذلك امر مناديه بالنفير وخرج عسكر على طرف المدينة حتى اجتمع اليه من اصحابه جموع كثيرة ثم خرج بمن تبعه واتبعه عبد الرحمن بن رستم رضي الله عنه وخرجوا في سنة محلة ذات جوع وجدب فأمرهم فيها بالخراج فاذا نزلوا نزل عليهم واذا ارتحلوا ارتحل معهم •

وبلغنا ان ابا الخطاب رضي الله عنه لما خرج امر مناديه فنادى ايها الناس من كان له ابوان كبيران او اب واحد فليرجع ومن كانت له عروس صغيرة فليرجع ومن كانت له عروس قريبة العهد فليرجع ومن اراد منكم الرجوع فليرجع بليل فلما جنهم الليل رجعت طايفة من عسكره فلم يزل ينادي فيهم ثلاث ليالي كل ليلة ترجع طائفة وبقي من له

رغبة في الجهاد وعدتهم ستة الاف ولم يرجع بعد الثلاث احد ....

وبلغنا ان ابا الخطاب مر على مدينة قابس فحاصر اهلها حتى صفقوا واذعنوا له بالطاعة فجعل عليهم عاملا ولما وصل لأرض القيروان حاصرهم أشد الحصار ما شاء الله ثم ان عاصم السدراني مرض مرضا شديدا وكان من خيار العسكر وهو احد الخمسة الذين حملوا العلم وهو اشد شوكة على اهل القيروان فعلم اهل القيروان بمرضه وانه اشتهى قثاة فبعثوا [من سمه بها] ... فاستشهد رحمه الله . وصاح اهل المدينة اين عاصم السدراني المقتول بالسم . وقالوا مات عاصم يابربر فعلم ابو الخطاب انهم خدعوه وبلغ فيه موت عاصم مبلغا عظيما وقال لأصحابه انهم خدعونا وغررونا .... فأمر اهل عسكره ان يأخذوا اسلحتهم ويحلوا اجنيتهم ويخرجوا تحت الليل ويأخذوا الطريق مثل المنهزمين فاصبح المعسكر خاليا فظن اهل القيروان انهم انهزموا وقالوا أنهزمت البربر ومضوا في اثرهم وابو الخطاب وأصحابه دخلوا الوادي الذي وراء فحص رقادة وكمن فيه بخيله ورجاله واخذ اهل المدينة في طلب ابي الخطاب حتى لحقوهم فوجدوهم معسكرين في ذلك الوادي فخرج اليهم ابو الخطاب واصحابه فولوا منهزمين وابو الخطاب واصحابه في آثارهم يقتلونهم حتى دخلوا المدينة ودخل قوم ابي الخطاب معهم فخلصت لهم المدينة سنة أحدى واربعين وماية من الهجرة . وكان ابو الخطاب

تقدم على اصحابه يوم الحصار لا يفسدوا زرعا لأهل المدينة .... »

يتبين من هذا النص المهم مدى الصلة الوثيقة للبصرة وعلمائها من الخوارج بالحركة الاباضية في المغرب فان الذي زرع هذا المذهب في المغرب قبل مجيء ابي الخطاب وابن رستم دعاة من البصرة . ثم ان ابن رستم وابي الخطاب تلقوا علومهما وتفقههما بالعقيدة الخارجية الاباضية على يد فقهاء من البصرة ولم تنقطع هذه الصلة بعودة الاثنين الى المغرب العربي بل استمر المشاورات والاستشارات بين علماء البصرة ورجال الدعوة في المغرب . بل ان اهل البصرة من الخوارج لم يكتفوا بالمساندة المعنوية في مجال العلم والفقه والنصيحة والارشاد وانما تعدوا ذلك الى الدعم المادي حيث ارسلوا للدعاة قبل وبعد تأسيس الامامة هبات واموال مساهمة منهم في تقوية امر الدعوة الاباضية وتثبيت قدمها في هذا الاقليم خاصة بعد ان انتقلت الدعوة من دور النضال السري الى النضال الايجابي العلني بعد اعلان امامة ابي الخطاب والاستيلاء على طرابلس .

ويظهر هذا النص كذلك مدى اعتدال الخوارج الاباضية في معاملتهم المسلمين الذين لم يعتنقوا المذهب الخارجي ، فأبو الخطاب لم يقتل والي طرابلس وكان يأمر اتباعه بعدم التخريب او افساد الزرع حين دخولهم المدينة . وهذه صفة تميزت بها الاباضية على فرق خارجية متطرفة اخرى مثل الازارقة فقد كان الازارقة منذ نشأتهم اكثر اعتدالا من بقية الفرق الخارجية ولذلك كانت هناك مشاورات كلامية ومجادلات فكرية بين مؤسسي هذه الفرقة والفرق الاخرى

تشير اليها مخطوطه كشف الغمة ومصادر اخرى ايضا •

ويشير هذا النص كذلك الى مبدى انتشار المذهب الاباضي في مناطق شاسعة متفرقة من المغرب ومدى تقبل البربر لهذا المذهب وسرعتهم بالانضواء تحت لواء ابي الخطاب • والواقع فان ابا الخطاب كان اول من نجح في تفجير هذه الحركة بين صفوف البربر في المغرب العربي•

وقد ظلت بلاد المغرب مرتعا لمذهب الاباضية ومذاهب خارجية اخرى كالصفرية ، حتى استطاع الاغالبة سنة ٢٨٣هـ ٨٩٦م ان يدفعوا الاباضية الى الداخل دون ان يقضوا عليهم قضاءا مبرما ، ثم تمكن الفاطميون ، كما هو معروف ، من القضاء على الدولة الرسمية الاباضية سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م والتجأ الكثير من الخوارج الاباضية الى الصحراء •

واخيرا وليس آخرا فان تزعم ابي الخطاب المغافري لأول امامة اباضية في المغرب واستقطابه البربر يدل على ان العرب لما يزالوا يحتلون مراكز القيادة والرئاسة في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري كما كانوا في القرن الاول الهجري ، وهم الذين ينضمون حركات الموالي ويقودونها ويوجهونها الوجهة التي يرتأوونها واحيانا يستغلونها لاغراض سياسية وطموحات شخصية ، تماما كما حدث في حركة المختار الثقفي وعبد الرحمن بن الاشعث • كما وان غالبية الموالي الذين انضموا للدعوة العباسية في خراسان لم يفعلوا ذلك الا بتأثير رابطة الولاء ذلك لأنهم مرتبطين بالقبائل العربية من شيعة العباسيين برابطة الولاء وهذا يعني انهم ينقادون الى هذه القبائل في مواقفهم واتجاهاتهم فالولاء كما هو معروف ، « لحمة كلحمة النسب » •

نظام الضرائب في مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر
وأثره في النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية

دكتور محمد محمود السروجي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

لا شك ان للنظام المالي والضريبي اوثق الارتبـاط بنظم الحكم والادارة في مصر تحت الحكم العثماني • فاذا ما انتظمت الحالة المالية والضريبية دل ذلك على استقرار الحكم والادارة ، واذا ما فسد نظام الحكم اضطربت الأحوال المالية والضريبية ، وتنوعت الضرائب ،وكثرت الاستثنائية منها ، وتباينت طرق الجباية ، وتفشت الرشوة ، وقل ما يصل الى خزانة الدولة من ايرادات ، واستغل الجباة وظائفهم ، فأثقلوا كاهل دافعي الضرائب بالكثير منها •

وتشتمل فترة البحث على ثلاث مراحل متميزة :

المرحلة الاولى : وتشمل نظام الضرائب في مصر العثمانية خـلال القرن الثامن عشر •

المرحلة الثانية : تضم فترة الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١) ، وهي مرحلة متميزة عن سابقتها وعن لاحقتها ايضا •

والمرحلة الثالثة : تشمل تطور النظام الضريبي في مصر في عصـر محمد على آي في النصف الأول من القرن التاسع عشر •

واذا تناولنا المرحلة الأولى من البحث نجد أن النظام الضريبي الذي ساد مصر خلال القرن الثامن عشر كان من وضع السلطان سليم في اعقاب غزوة لمصر في عام ١٥١٧م [١] . وقد اقتبس السلطان سليم كثيرا من النظام الضريبي الاسلامي الذي كان موجودا بمصر وقتئذ [٢] : فهو اذن نظام خليط من النظامين الاسلامي والعثماني .

وجد العثمانيون أرض مصر عند فتحها مقسمة على النحو التالي [٣] :

أ ـ الاحباس (الأوقاف) السلطانية المخصصة للحرمين ولأعمال الخير .

ب ـ الأحباس الأهلية .

جـ ـ الملكيات الخاصة المشتراة من بيت المال .

د ـ اراضي الديوان ، وتضم أغلب أراضي الزراعية ، ومنها يجبى الخراج Kharaj

ونظرا لأن الأقسام الثلاثة الأولى كانت معفاة من دفع الضرائب ، فقد وقع عبء الضرائب كله على القسم الرابع وحده .

---

(١) ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية ، كما شرحه حسين افندي احد افندية الروزنامة في عهد الحملة الفرنسية ـ مصر في مفترق الطرق ، نشر المؤرخ محمد شفيق غربال ـ مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية ، المجلد الرابع ، جـ ١ ، مايو ١٩٣٦ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور جـ ٥ ، ص ١٨٩

-- Selvester de Sacy; Bibliothèque des Arabisants Français: Premiere serie, T. II pp. 1-278

(٣) راشد البراوي وعليش : التطور الاقتصادي في مصر في العصر الحديث ص ١٩ .

وقد اوضح ابن اياس (٤) قيمة المتحصل من الخراج في السنوات الأولى من الغزو العثماني بنحو ٠٠٠ر٣٠٠ر١ دينار (٠٠٠ر٧٨٠ جنيه مصري) نقدا ، ٠٠٠ر٦٠٠ اردب قمحا ، ٠٠٠ر٣٠٠ اردب شعيرا • واذا قدرنا ثمن الأردب من القمح في ذلك الوقت بخمسة وثلاثين قرشا ، كان ثمنها ٠٠٠ر٢١ جنيه مصري (٥) بالاضافة الى ثمن الشعير ، يكون مجموع المتحصل ما يقرب من المليون جنيه مصري •

وقد اسهم علماء الحملة الفرنسية من أمثال Poussielgue في رسم الاطار العام لما كان عليه النظام الضريبي في مصر في أواخر القرن الثامن عشر ، بالاضافة الى ما كتبه حسين افندي روزنامي مصر ابان الحملة الفرنسية (٦) ، وهو ما اعتمد عليه علماء الحملة في كتاباتهم الى حد كبير، فضلا عما دونه الجبرتي (٧) •

ومن جملة ما كتبه هؤلاء نستطيع ان نتبين ان الادارة المالية في مصر في ذلك الوقت كانت تتركز في ديوانين (٨) :

الاول : الديوان الدفتري ، ويرأسه موظف كبير يسمى الدفتردار ، يعينه السلطان العثماني ، ومهمته الاشراف على شئون مصر المالية ،ويعاونه وكيل وموظفون •

الثاني : ديوان الروزنامة ، وهو تابع للديوان الأول ، ويرأسه

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ص ٢٢٦ •

(٥) عمر طوسون : كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة الى الان ، الاسكندرية ١٩٣١ ، ص ٢٦٩ •

(٦) Estève: compte rendue p. 354

(٧) الجبرتي : عجائب الاثار في التراجم والاخبار ٤ أجزاء •

(٨) راشد البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ، ص ٣٥ •

الروزنامى (٩) واختصاصه جمع الضرائب ، والاشراف على انفاقها فيما خصصت له • وتتميز أعمال هـذا الديوان بالسرية التامـة ، الى حد استخدام نوع من الخط لا يعرفه سوى موظفوه ، ويصفه Deny بقوله(١٠):

«Sorte d'ecriture destinée aux mandarains de l'ancienne administration et dont le déchiffrement présente les difficultés, que l'on sait, pour ceux qui n'en ont pas la routine».

ويشترط فيمن يتولى وظيفة الروزنامة ان يكون مسلما ، عاقلا ، ذا عقل وتدبير ، وان يشير على ولاة مصر بما فيه المصلحة العامة (١١) ، ويقوم بتعيينه والى مصر بالاشتراك مع شيخ البلد • ويصفهم Estève في كتابه (١٢) بانه كانت لهم مكانة كبيرة بين قومهم •

كانت تقوم بجباية الضرائب هيئات مختلفة ، على ان القدر الاكبر من الضرائب كان يأتي عن طريق نظام الالتزام • والالتزام نظام قديم لم يستحدثه العثمانيون ، وانما كان سائدا في مصر قبل مجيئهم (١٣) اليها• وتلجأ الحكومات الضعيفة التي لا يقوم رجالها على جمع الضرائب الى تلك الوسيلة التي تتلخص في ان يتعهد احد الأعيان ويسمى المتزم multazim بجمع الخراج المفروض على الأرض الزراعية لصالح الحكومة،

(٩) احمد الحته : تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر، ص٣٠

(١٠) Deny, Sommaire des Archives Turques du Caire — p. 33

(١١) ترتيب الديار المصرية ــ مجلة كلية الآداب الجامعة المصرية المجلد ٤ ، جـ ١ مايو ١٩٣٦ •

(١٢) Estève: Memoire sur les finances de l'Egypt... Descrip- tion de l'Egypt. Etat moderne 2e edition T-12 pp. 41-248

(١٣) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ، ص ٣٦ •

اما بطريق المزايدة او الاتفاق بينه وبين الروزنامة نيابة عن الحكومة ، فيدفع لها ضريبة سنة مقدما وتمنحه تقسيطا أي « عقد تلزيم » بعد موافقة شيخ البلد ــ وهو كبير امراء مصر من المماليك ــ صادرا للاهالي الداخلين في دائرة التزامه لتأدية ما عليهم من ضرائب اليه • ويحرص الملتزم على تحصيل ما دفعه الى ديوان الروزنامة مضافا اليه الفوائد التي يقدرها حسبما يريد دون رقيب (١٤) •

وكان يقوم بمهمة الالتزام عدد كبير من المماليك والموظفين ومشايخ البدو (١٥) وعدد من كبار العلماء (١٦) • ويعاونهم في اداء هذه المهمة عدد كبير من العاملين قدرهم Girard بنحو ٣٠ ألف شخص •

ونظرا لقصر مدة الحملة الفرنسية فلم يستطع علماؤها ان يتحروا الدقة في بحثهم بصدد الالتزام بالذات • فقد اعتقدوا أن الملتزمين يماثلون طبقة الاشراف في فرنسا في ظل النظام الاقطاعي • مع أن هناك فارقا كبيرا بين الالتزام والملكية • فالالتزام نظام مالي ، الهدف منه تسهيل جباية الضرائب بالنسبة للدولة (١٧) •

ورغم ان هذا النظام قد أغنى الدولة العثمانية عناء جمع الضرائب بواسطة موظفيها ، الا أنه كان يشتمل على عيوب كثيرة نجملها فيما يلي:

اولا : أن هذا النظام قد أعطى الملتزم حقوقا واسعة ــ لا سيما في أواخر القرن الثامن عشر ــ تشبه الى حد ما الحقوق التي كانت لأمراء

---

(١٤) Artin, J., Institut Egyptien - La propriete fonciere en Egypte p. 85.

(١٥) Baer, G., A history of landownership in modern Egypt p. 2.

(١٦) الجبرتي : عجائب الآثار جـ ٤ ص ١٦٢ .

(١٧) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ١٨ .

الاقطاع في العصور الوسطى في أوربا . اذ كان الملتزم هو السيد في دائرة التزامه ، والفلاحون ارقاءه . فله حق نزع الأرض منهم اذا تأخروا في دفع الايجار ، ولا يستطيعون مغادرة القرية الا بأذنه ، وله انيعاقبهم بالحبس والجلد ، بل وبالقتل في بعض الاحيان .

ثانيا : انه في ختام القرن الثامن عشر لم يصبح الالتزام يمنح لمدة عام أو عدة أعوام ، وانما لمدى الحياة . بل لقد توارثه الأبناء عن الآباء كالملكية تماما (١٨) .

ثالثا : أن ما كان يدفعه الملتزم اقل بكثير مما كان يقوم بجمعه . فما كان يدفع للخزينة يتراوح بين (١٩) ٤٠٪ و ٤٪ مما يحصلون عليه من الفلاحين .

رابعا : خضع الفلاح للكثير من الضرائب الاستثنائية التي أرهقته.

خامسا : يقوم الملتزم بتسخير (٢٠) الفلاحين لزراعة الأرض الخاصة به والمعفاة من دفع الضرائب .

سادسا : نظرا لكثرة الضرائب المتنوعة التي كان يدفعها الفلاح أنقل ما يتبقى في يديه من أموال . فلجأ الى الاستدانة من الملتزم بفوائد باهظة . وبذلك ظل تحت رحمته بصفة مستمرة .

سابعا : أن هذا النظام يضعف من سلطة الحكومة على الفلاحين ، فسلطان الملتزم يفصل بينهم وبين الخضوع المباشر لسلطان الحكومة .

ثامنا : في ختام القرن الثامن عشر اصبح الملتزمون ملاكا بحكم الامر

---

(١٨) Baer, A history. - p. 2
والجبرتي : عجائب الآثار . . . جـ ٤ ص ٨٨ .

(١٩) Poliak, Feudalism in the Middle East p. 52 & 73

(٢٠) Baer, A history of landownership p. 2

الواقع de facto وليسوا من الناحية القانونية de jure وبذلك لم يصبح للحكومة أي سلطان على اراضيها التابعة لها من الناحية الاسمية (٢١).

تاسعا : ان هذا النظام لم يكن يسمح للفلاح بان يعرف مقدار الضرائب المفروضة عليه بالضبط ، ولا الميعاد الذي يجب عليه أداؤها فيه . كما انها كثيرا ما كانت تجبى منه قبل نضوج المحصول ، وقبل ان يتمكن من بيعه . وفي هذه الحال يضطر الى الاقتراض بفوائد باهظة لسداد الضريبة (٢٢) .

عاشرا : كانت عملية جباية الضرائب معقدة الى أبعد حد مما زاد في مصاريفها .

حادي عشر : كان يستخدم الملتزمون عددا كبيرا من الجباة بلغ حسب تقدير Girard ٣٠ الف شخص ، كانوا يستعملون في جباية الضرائب العينية من الفلاحين كيلا أكبر من الكيل الرسمي . مما اوجد لديهم فرقا بين الكيلين وصل في بعض الأحيان الى ٢٥٪ أو ٣٠٪ من الكمية المجباة (٢٣) .

وهناك ثلاثة أسباب اخرى لم تنشأ عن نظام الالتزام ، ولكنها ترجع الى سوء تدبير الحكومة في ذلك الوقت :

السبب الأول : انه من الناحية القانونية لا يحق للفلاح دفع ضريبة عن الارض التي يقوم بفلاحتها الا اذا غمرتها مياه الفيضان ليتمكن من زراعتها واستثمارها . ولكننا وجدنا انه في سنوات الفيضان المنخفض الذي

---

(٢١) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي — ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢٢) Gibb and Bowen, Islamic Society and the West, vol. I, pp. 259-60.

(٢٣) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٤٠

لا تستطيع مياهه الوصول الى الارض لم تعف الحكومة الفلاحين من دفع الضريبة كاملة •

والسبب الثاني : أن الضريبة كانت تجبى طبقا للقياس الذي يسجله عمال المساحة للارض الزراعية التي في حوزة كل فلاح • ولم تكن هذه المقاييس مضبوطة ، بل كانت مدعاة للتلاعب والغش والرشوة •

ويمكننا ان نقسم الضرائب الى قسمين : ضرائب عقارية ، وضرائب غير عقارية •

الضرائب العقارية : وهي ما تفرض على الأرض الزراعية وتسمى بالمال الحر ويذكر (٢٤) Lancret بان العثمانيين عندما فرضوا الخراج على ارض وزعوه على القرى دون نظر الى عدد الافدنة في كل قرية • ويضيف (٢٥) Estève الى ذلك بان السلطان سليم عندما غزا مصر وجد أن المماليك قد أحرقوا سجلات الضرائب ، فأخذ يستقي معلوماته عنها من الموظفين ، ولكن هذه الطريقة لم تفده كثيرا • فأمر بمسح اراضي القطر لمعرفة المساحة المنزرعة ولكن المسح لم يتم على الوجه الأكمل فظلت هناك اراض مجهولة للحكومة حتى مجيء الحملة الفرنسية • ويقوم الملتزمون بتحصيلها من الفلاحين • وكانت من ثلاث فئات (٢٦) : الأطيان من الدرجة الأولى يتراوح المال الحر للفدان بين ٩٠ ، ٣٠٠ ميدي (٢٧) ، واطيان الدرجة الثانية بين ٦٠ و ١٥٠ ميديا • وأطيان الدرجة الثالثة بين ٣٠ و ١٢٠ميديا •

---

(٢٤) Lancert, Desc. d'Egypte p. 236

(٢٥) Estève: Memoire sur les finan. Desc. d'Egypte, III, p. 306

(٢٦) احمد الحته : تاريخ مصر الاقتصادي ص ٣١ •

(٢٧) القرش يساوي ٤٠ ميديا ، والميدي = ½ فضة •

ثم يقسم المتحصل على النحو التالي [٢٨] :

اولا : نصيب السلطان واسمه المال الميري ، وكان يرسل للآستانة في احتفال كبير .

ويقسم المال الميري حسب رأي Lancret [٢٩] الى قسمين رئيسيين المال الشتوي والمال الصيفي ويؤخذ الاول من محاصيل الفول والشعير والقمح وتزيد قيمته عن المال الصيفي . وتنفق حصيلته على الشئون الداخلية .واما حصيلة المال الصيفي فتؤخذ من مزارع الارز وتخصص للمصروفات الخارجية .

ثانيا : نصيب جهات مختلفة كالخفر والجنود وغيرهم .

ثالثا : نصيب الادارة المحلية واسمه الكشوفية .

رابعا : ما يتبقى للملتزم واسمه الفائض faiz

وقد زادت الضريبة زيادتين غير رسميتين آخرتين هما : البراني والكشوفية المستجدة .

وكانت الضرائب تجبى اما نقدا أو عينا ، أو جزء من هذا وجزء من ذاك . وفي الوجه القبلى كانت تجبى عينا نظرا لقلة استخدام النقود هناك [٣٠] .

والضرائب غير العقارية ، كانت عدة أنواع نجملها فيما يلي :

١ ــ الرسوم الجمركية وكانت تجبى من مواني بولاق ، ومصر القديمة ، واسنا والسويس والقصير ، وكانت غير ثابتة . والدليل على

---

(٢٨) ترتيب الديار المصرية .

(٢٩) المصدر السابق .

(٣٠) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٣٧ .

ذلك أن فرنسا عقدت مع مصر في يناير سنة ١٧٨٥ ثلاث معاهدات تجارية تحدد مقدار الضريبة التي تجبى على البضائع الفرنسية أثناء مرورها بمصر بـ ٦ ½ ٪ • غير ان هذه الاتفاقات لم تمنع ابراهيم بك ومراد بك (حاكمي مصر عند مجيء الحملة الفرنسية) من ارهاق التجار الأجانب بالضرائب الباهظة ، فزادت شكايات التجار الفرنسيين في مصر (٣١) •

كذلك استطاع الرحالة الانجليزي James Bruce نيابة عن شركة الشرقية التجارية الاتفاق مع ابي الذهب (حاكم مصر) على تحصيل ضريبة مقدارها ٨٪ من قيمة البضائع الواردة الى ميناء السويس • هذا بالاضافة الى تحصيل ٥٠ ريالا أسبانيا عن كل سفينة ترسو في هذا الميناء •

كذلك عقد Warren Hastings (الحاكم البريطاني على البنغال بالهند) في سنة ١٧٧٥ مع أبي الذهب معاهدة تنص على تخفيض الرسوم الواردة من البنغال ومدراس بالهند الى ٦ ½ ٪ والواردة من سورات وبمباي الى ٨٪ (٣٢) • ولم يكن حظ هاتين الاتفاقيتين بأحسن من حظ الاتفاقات الفرنسية الثلاث ، اذ تعرضتا للانتهاك من قبل حكام مصر من المماليك •

ب ــ الضرائب المفروضة على الوكائل والقوافل والاسواق والملح والصيد •• الخ •

جـ ــ الضرائب المفروضة على الصناعات والحرف المختلفة ، بالاضافة الى ٥٪ ضريبة على المنتجات نفسها • وكان يتولى تحصيلها مشايخ الطوائف •

---

(٣١) احمد الحته : تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٣٢) المصدر السابق ص ٢٥ ، ٢٦ .

ويذكر المسيو Girard ان الضريبة المفروضة على جماعة النساجين كانت عشرين الف بارة (٣٣) .

د ــ ضرائب وقتية في مناسبات معينة او لأغراض معينة .

هـ ــ الجزية المفروضة على الذكور البالغين من النصارى واليهود. وكانت من ثلاث فئات : الفئة العالية ٤٤٠ فضة على كل فرد ، والوسطى ٢٢٠ فضة ، والدنيا ١١٠ فضة (٣٤) .

و ــ الأوتاوات التي كان يفرضهـا الحكام المماليك على التجـار والأجانب .

ومما سبق استطاع المسيو Estève ان يقدر دخل الحكومة المصرية من هذه الضرائب في أواخر القرن الثامن عشـر بحوالي ٤٦٧ر٢٠٣ر١ جنيهـا (٣٥) .

اهم اوجه المصروفات (٣٦) :

١ ــ نفقات الوالي والحكام المماليك ومرتبات الجنود وموظفـي الادارة المالية .

٢ ــ نفقات اوجه الخير ، مثل مخصصات الأرامل والأيتام وصيانة المساجد وغيرها .

٣ ــ نفقات المؤن والذخائر .

---

(٣٣) Description de l'Egypte, T. 17 pp. 214 & 215

(٣٤) Estève: Compte rendu... pp. 192-194

(٣٥) Estève: Memoire sur les finances. T. 12, pp. 41-248

(٣٦) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٣٩ .

٤ ـ نفقات المحمل (قافلة الحج) ومخصصات الحرمين •

٥ ـ الجزية التي ترسل سنويا للسلطان العثماني • وقد انخفض مقدارها الى حد كبير قبيل مجيء الحملة الفرنسية الى مصر ، فبلغ ٥٥٠ر٢٦٤ فرنكا أي ما يعادل ٥٨٠ر١٠ جنيها (٣٧) •

وقدر حسين الروزنامي الميري المخصص للسلطان العثماني بمبلغ (٣٨) ٤٤٣ر٦١٤ر١١٧ فضة ، ويخصم منها ٦٢٨ر٢٣٨ر٨٩ فضة التزامات ، فيكون المتبقى للسلطان هو ٨١٥ر٣٧٥ر٢٨ فضة •

وقدر المسيو Estève الميرى بمبلغ ٧٢٧ر٦٥١ر١١٦ فضة (٣٩) يخصم منه ٢٧٦ر٨٢٨ر٨٨ فضة التزامات • فيكون المتبقى للسلطان هو ٤٥١ر٨٢٣ر٢٧ فضة • وهذا المبلغ لا ينقص كثيرا عما قدره حسين الروزنامي •

تحليل (٤٠) اجابات حسين الروزنامي :

اذا قارنا بين ما اجاب به حسين الروزنامي وبين ما دونه كل من Estève والجبرتي نلاحظ على اجابات حسين افندي ما يلي :

اولا : أن ما ذكره حسين عن نظام الضرائب كان من الناحية النظرية، اي ما يجب ان يكون كما وضعه السلطان سليم الأول فاتح مصر ، وليس كما كان في الواقع • ويدلنا على ذلك أننا لا نجد أية أشارة الى اضطراب الأمور في مصر واعتداء الأقوياء على الضعفاء ، واختلال سجلات الضرائب،

(٣٧) المصدر السابق ص ٣٩ .

(٣٨) ترتيب الديار المصرية .

(٣٩) Estève: Compte rendu... p. 196

وجرجس حنين : الاطيان والضرائب في القطر المصري ص ١٢ .

(٤٠) ترتيب الديار المصرية ، تعليق الاستاذ محمد شفيق غربال .

ولم تكن كل هذه الأمور بخافية عليه ولا على معاصريه .

ثانياً : تقرر اجاباته حقيقة هامة ، وهي ان نظم الضرائب التي وضعها السلطان سليم لم تكن جديدة كل الجدة ، وانما كانت ترجع الى عصور سابقة ، وهذا يدل على اصالة السياسة المالية والضريبية في مصر ، والتي كانت تتفق مع واقع ظروف الحياة المصرية في مختلف العصور .

ثالثا : انه رغم شقاء المصريين من قسوة الضرائب في اواخر القرن الثامن عشر فان من السلاطين العثمانيين العظام من كان يرغب في الاصلاح واحقاق الحق .

اثر النظام الضريبي على الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية في القرن ١٨ :

على أثر احتلال العثمانيين مصر قام صراع طويل بين الحاكم الجديد وهو السلطان العثماني وبين طبقة المماليك الحكام القدامى ، امتد من مطلع القرن السادس عشر الى اواخر القرن الثامن عشر . وأصبح الوضع في مصر على النحو التالي (٤١) :

١ ــ العثمانيون ويمثلون السلطة العليا في البلاد .

٢ ــ امراء المماليك وهم أصحاب الاقطاعيات الكبيرة ، وجامعو الضرائب والمسيطرون من الناحية الفعلية على الناحيتين السياسية والادارية .

٣ ــ الشعب المصري ، ومعظمه يعمل في الحقول في ظل نظام اقطاعي رهيب لا يقل قسوة عن الاقطاع الأوربي في أقسى صوره . يعمل في الأرض طوال العام ليسلم محصوله لصاحب الاقطاع ، لاينال من خيرات الأرض الا النذر اليسير بعد سداد ما عليه من الزامات ضريبية ، وما اكثرها .

---

(٤١) امين مصطفى عفيفي : تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث ص ١٩ .

وترتب على ذلك انخفاض مستواه الاجتماعي الى حد رهيب .هذا بالاضافة الى اهمال الدولة له ، اذ لم تكن هناك مشروعات عمرانيــة أو ثقافية أو اجتماعية أو اقتصادية تخدم مصالحه .

ونظرا لاعتماده في الزراعة على فيضان النيل ، فان انخفاض هــذا الفيضان في أي سنة معناه قلة المحصول الى حد المجاعة في بعض الأحيان. ورغم ذلك فلا يعفى الفــلاح من دفع الضرائب (٤٢) . فالعلاقة اذن بين الحاكم والمحكوم كانت تقوم على الأنانية والاستبداد من جانب والفاقــة والعبودية من الجانب الآخر .

والى جانب السواد الأعظم من الزراع توجد طبقة التجار ، وكانت من أغنى طبقات المجتمع المصري ، ومن أقلها تعرضا لفداحة الضرائب وظلم الحكام . وهي بفضل غناها كانت أرقى مستوى من الطبقات الأخرى.

ورغم ثراء هــذه الطبقة وسعة امكانياتها ، فانها كانت مهــددة في مصالحها ، وذلك لعدم استقرار الأوضاع في مصر ، وعدم وجود حكومــة ثابتة ، وللرسوم الباهظــة المفروضة على التجار . هذا فضــلا عن سوء المواصلات ، واختلال الأمن ، وضعف القدرة الشرائية لكل هذه الأسباب مجتمعة اضمحلت التجارة في أواخر القرن الثامن عشر .

ولذا كانت هذه الطبقة من أكثر الطبقات ثورة على الأوضاع في مصر . فقامت بدور هام في مساندة محمد علي ــ في مطلع القرن التاسع عشر ــ للوصول الى الحكم واقامة نظام حكم مستقر في مصر .

وهناك أيضا طوائف الصناع guilds أي أصحاب الحرف والصناعات وكانوا أيضا ساخطين على الحكم العثماني ، وذلك لاستبداد طبقة المماليك، ولفرضها القيود على الصناعة ، اذ كان لكل طائفة من الصناع شيخ مهمته

(٤٢) Estève: Memoire sur les fin. (Desc. d'Egypte) T. I, p. 331.

تحديد الأجور وأثمان السلع ، وتقدير الرسوم والضرائب المقررة على كل فرد [٤٣] . بالاضافة الى الضرائب المفروضة على السلعة نفسها .

وعلى رأس هؤلاء جميعا يأتي العلماء الذين ينتمون الى الطبقة المتوسطة ، أي الطبقة « البرجوازية المستنيرة » . وقد أكسبتهم ثقافتهم الدينية التي تلقوها في الأزهر مكانة كبيرة في نفوس الشعب . فأصبحوا بحكم مكانتهم هذه قادة الأمة فكريا وسياسيا منذ أواخر القرن الثامن عشر [٤٤] .

وقد اكتسب هؤلاء نفوذهم بالتدريج ، اتخذ ــ في أول الامر ــ صورة النصح والمشورة للحكام لرفع الغبن عن كاهل الشعب . وتطور في أواخر القرن الثامن عشر الى مواجهة سافرة للحكام المماليك وذلك لحماية الأهالي من فداحة الضرائب ، الى حد ارغام ابراهيم بك ومراد بك(حاكمي مصر عند مجيء الحملة الفرنسية) على قبول (حقوق الشعب) تضمنتها وثيقة وقع عليها الجانبان ، يلزمهما بالحكم بالعدل دون ارهاق الأهالي بالضرائب .

فمنذ ذلك الوقت أصبح العلماء يمثلون مدرسة جديدة هي «البرجوازية المستنيرة التي استقطبت الأهالي حولها ، وخلقت منهم قوة ثورية ضد طغيان الحكام . وحاول كل من العثمانيين والمماليك جذبها اليه لتدعيم وجوده وللتغلب على خصمه [٤٥] .

من هذا كله نرى أنه كانت هناك رغبة في قيام عهد جديد في أنظمته السياسية والاقتصادية والاجتماعية . واتفقت هذه الرغبة مع توقيت مجيء الحملة الفرنسية الى مصر وهي التي ستزلزل أركان النظام القديم.

---

(٤٣) Description de l'Egypte, T. 17, pp. 214 & 215

(٤٤) الرافعي : تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ٥٠ .

(٤٥) امين عفيفي : تاريخ مصر الاقتصادي ص ٢٨ .

الحملة الفرنسية ونظام الضرائب :

تعتبر الحملة الفرنسية على مصر في ختام القرن الثامن عشر نقطة تحول هامة في تاريخ مصر في العصر الحديث ، فبالرغم من قصر مدة الحملة الا أن نتائجها غير المباشرة كانت عميقة الأثر في مستقبل البلاد من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

فلاول مرة في تاريخ مصر الحديث تخضع البلاد لنظام حكم أوربي مستنير ، وتغزو الحضارة الغربية المسيحية مصر الاسلامية ، وتتعايش النظم الغربية مع النظم الشرقية جنبا الى جنب . ويحاول نابليون بونابرت أن يطعم النظم الشرقية القديمة بالنظم الغربية الحديثة لخلق حضارةجديدة تستمد أصولها من الحضارتين الشرقية والغربية .

وقدمت الحملة الفرنسية أجل الخدمات لمصر حينما قضت علىمعوقات التقدم ومصدر الرجعية والتأخر ممثلا في سلطة المماليك من ناحية ، وفي اضعاف سلطة العثمانيين من ناحية أخرى . وكانت هذه المهمة ضرورية تمهيدا لقيام نظام جديد يحل محل النظم القديمة البالية .

وبعد أن استقر الأمر للفرنسيين في مصر اخذوا يوجهون اهتمامهم الى دراسة احوال مصر من جميع (٤٦) النواحي ، ولا سيما الادارة المالية ونظام الضرائب . وقد واجه الفرنسيين مشكلة معقدة عند دراستهم لنظم الضرائب وطريقة جبايتها ، وذلك لفرار المماليك المباشرين للشئون المالية والضريبية .

وجد الفرنسيون ضالتهم المنشودة في حسين افندي الروزنامي(كبير الادارة المالية) فاستبقوه ، ومنه عرفوا النظام المالي والضريبي في مصر وعينوا أحد رجال الادارة الفرنسيين ويدعى Poussielgue مديراً لمالية

---

(٤٦) فسرت كل تلك الدراسات في كتاب Description d'Egypte

مصر ، وخلفه بعد ذلك Estève وكلاهما كتب عن هذا الموضوع . كما اهتم به أيضا العالمان الفرنسيان Girard و Lancret المهندسان وعضوا المجمع العلمي المصري ، بدراسة هذا الموضوع ايضا .

واولى التغييرات التي ادخلها الفرنسيون على نظام الضرائب وقتئذ هو ابطال عمل ديوان الروزنامة ، واسناد اختصاصاته الى لجنة مكونة من خمسة اعضاء ، منهم الشيخ المهدي وحسين افندي والمعلم فلقاؤوس (٤٧).

ثم بدأ بونابرت بتوجيه أولى ضرباته الى المماليك وذلك بمصادرة كل ما يملكون بما في ذلك حصصهم في الالتزام التي بلغ مجموعها ثلاثة ارباع مجموع الحصص كلها . أي أن ما بقي بايدي الأهالي لا يزيد عن ربع الحصص فقط (٤٨) . وبذلك سهل على بونابرت الغاء نظام الالتزام.

ويقول كلوت بك بانه عند مجيء الحملة الفرنسية الى مصر وجدت أن الشطر الاكبر من الاراضي ملكا للماليك والحكومة . أما الشطر الآخر فكان « في حوزة نحو ستة الاف مالك يعرفون بالملتزمين . أما ما بقى من الاراضي فكان موقوفا على المساجد ويعرف باسم الاوقاف او الرزقة» (٤٩)

على أن الغاء الالتزام استلزم بالتبعية اعادة النظر في أراضي الالتزام. وقد انقسم الرأي بشأنها الى وجهتي نظر ، الأولى تعتبر أن أراضي الالتزام تماثل أراضي الاشراف التي قضت عليها الثورة الفرنسية ويجب ضمها للدولة . والثانية ترى اعتبار تلك الأراضي من الأراضي المملوكة لحائزيها (٥٠) .

---

(٤٧) Estève: Compte rendue... p. 354

(٤٨) ترتيب الديار المصرية .

(٤٩) Glot, Aperçu... p. 193

(٥٠) Poliak, Feudalism... p. 75

كانت الغلبة لوجهة النظر الثانية في أول الأمر ، فعومل الملتزمــون على اعتبار كونهم ملاكا حقيقيين ، وأعطيت لهم اشهادات رسمية بملكيتهم للارض .

ولكن أمام ثورات الفلاحين أخــذت السلطات الفرنسية في عهــد مينو تميل الى الأخذ بوجهة النظر الأولى . وبناء عليه أخذت في ضــم أراضي الملتزمين الى الدولة بشيء من التدريج [٥١] .

ولكن أهم ما استحدثه بونابرت في نظام الضرائب الخاصة بالأرض هو اصداره أمراً في ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ بانشاء ديوان خاص أطلــق عليه اسم (محكمة القضايا) للنظر في كل ما يختص بتمليك الأرض،على أن تتخذ الاجراءات الآتية [٥٢] :

١ ــ لاثبات [٥٣] ملكية الفلاح لأرضه يجب الكشف عنها فيسجلات الروزنامة نظير رسم معين .

٢ ــ اذا ثبتت ملكية الفلاح للارض من واقع السجلات يكتب لــه سند جديد (تمكين جديد) بذلك .

٣ ــ يعاد تقدير ثمن الأرض ويدفع صاحبها رسم تسجيل لها حسب الثمن الجديد وقدره ٢٪ .

٤ــ اذا لم يستطع الفلاح اثبات ملكيته للارض تصادر لصالــح الدولــة [٥٤] .

---

(٥١) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٤٥.

(٥٢) امين عفيفي : تاريخ مصر الاقتصادي ص ١٢٢ و ١٢٣ .

(٥٣) تقصد بالملكية هنا هو ملكيته الانتفاع وليست ملكية الرقبة.

(٥٤) الجبرتي جـ ٣ ص ٥ .

٥ ـ ظل نظام المواريث الاسلامي معمولا به ، ولكن لكي ينتقل الميراث من المتوفى الى الوارث يجب دفع رسوما متعددة • فرسم يدفع عند الوفاة ، ورسم آخر عند حصر التركة ، وثالث عند اثبات الوراثة، ورابع عند تمكين الوارث من الحصول على ميراثه ، وخامس اذا أراد اثبات دين له في ذمة المتوفى وهكذا

هذا بالاضافة الى فرض ضرائب على تسجيل العقود وضرائب على أرباب الحرف ، والمباني ، كالمنازل والحمامات والحوانيت (٥٥) •

ولهذا لا نعجب اذا ما نظر الأهالي الى تلكالضرائب المتعددة ، لا على أنها تنظيم جديد ، ولكن على أنها طرق للحصول على الأموال بأية وسيلة لسد نفقات الحملة • وكانت الضرائب الجديدة ـ دون ريب ـ السبب الرئيسي في قيام ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر سنة ١٧٩٨) ضد الفرنسيين •

وبالرغم من أن الضرائب في عهد الحملة الفرنسية لم تقل عما كانت عليه في عهد المماليك ـ بل العكس هو الصحيح ـ الا أن الحملة قد نجحت في تغيير نظم الحكم في مصر من النظام الاوتوقراطي الى النظام الديمقراطي الذي أتت به الثورة الفرنسية ، ونجحت أيضا في تبديل نظم الاقتصاد من « الرأسمالية الاقطاعية » الى « البورجوازية الاقتصادية » القائمة على العدالة الاجتماعية والحرية الاقتصادية • وقد أحدث هذا ـ دون شك ـ هزة عنيفة في الاقتصاد المصري • فالغاء الالتزام مكن الفلاح من أن يصبح مالكا لأرضه وأن ينتفع بغلاتها • وما يترتب علىذلك من تحرير الفلاح من سلطة المماليك ، وهدم للسيادة الاقطاعية (٥٦) •

---

(٥٥) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٤٦ •

(٥٦) امين عفيفي : تاريخ مصر الاقتصادي ص ٣١ •

أثر عودة الحكم العثماني بعد خروج الحملة :

كان طبيعيا أن تعود النظم الرجعية في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية بعودة الحكم العثماني مرة ثانية عقب خروج الفرنسيين من مصر • فما كان العثمانيون ممثلو الرجعية يؤمنون بثورة التجديد التي أوجدتها الحملة ، وما كانوا يدرون أيضا أثر تلك النظم الجديدة على المجتمع المصري •

بدأ العثمانيون عملية الهدم بالغاء قانون الملكية الذي أصدره نابليون في ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، وبذلك رجعت « الرأسمالية الاقطاعية » من جديد ، واختفت « البورجوازية الاقتصادية » • وعاد الالتزام الى سطوته الأولى بعودة المماليك مرة ثانية الى مراكز السلطة والحكم •

ومن الناحية السياسية تراجع النظام الديمقراطي ليفسح المجال للنظام الأوتوقراطي من جديد •

فقد الفلاح بعودة العثمانيين أرضه وما أنفقه من أموال لاثبات ملكيته لها ، وعاد عبدا من جديد للملتزمين بل أكثر من ذلك فقد فرض العثمانيون ضريبة جديدة على الأرض أطلق عليها اسم مال الحماية (٥٧) mal al-himaya في مقابل تخليص البلاد من الحكم الفرنسي • فلا عجب اذا ما رفض الشعب هذا التغيير ، وعبر عن هذا الرفض في مقاومته للمماليك، ووقوفه الى جانب محمد علي •

نظام الضرائب في عهد محمد علي (النصف الأول من القرن ١٩):

لا شك أن الحملة الفرنسية على مصر قد مهدت الطريق أمام محمد علي للقيام بتنظيماته الجديدة من الناحيتين المالية والضريبية • فالهزة

---

(٥٧) Girard; Description p.

العنيفة التي أحدثتها الحملة في النظم الاقتصادية والمالية القديمة قد أضعفتها الى حد كبير بحيث أنه عندما عادت تلك النظم الى الظهور بعد خروج الحملة . لم تقو على الصمود أمام ضربات محمد علي ، فمكنه هذا من القضاء عليها بصفة نهائية (٥٨) .

كانت مصادر المال بالنسبة لمحمد علي تنحصر فيما يلي (٥٩) :

اولا : الأرض وما يتعلق بها من شئون الملكية والاحتكار الزراعي .

ثانيا : الاحتكار التجاري وما يرتبط به من ضرورة الاشراف على وسائل النقل وطرق التجارة .

ثالثا : الضرائب وتتضمن ما جمعه محمد علي من احتكاراته المتعددة الزراعية والصناعية . أما فيما يختص بالأرض ، فما كان حاكم مصر الجديد أن يبقى نظاما قائما يحول بين الفلاح وخضوعه المباشر لسلطان الحكومة دون وساطة المماليك الملتزمين .

كما انه لم يقبل استغلال الفلاح لصالح الملتزمين ، فما كان يدفعه الفلاح من ضرائب كثيرة لا يصل منه الى خزانة الدولة الا أقل القليل . مما تسبب عنه فرار الفلاحين من الأرض وتناقص عدد السكان في الريف (٦٠)

كذلك كانت حاجة محمد علي الى المال لتثبيت مركزه في مصر (٦١)، ومحاربة أعدائه ، والقيام بالاصلاحات اللازمة تتطلب منه تغيير هذا النظام .

---

(٥٨) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٤٧ .

(٥٩) محمد فؤاد شكري وآخرون : بناء دولة مصر ص ٢٧ .

(٦٠) G-Baer, A History of Landownership, p. 5.

(٦١) احمد الحته : تاريخ مصر الاقتصادي ص ٦٥ .

ولذا فقد أعلن محمد علي في سنة ١٨٠٩ الغاء الالتزام ، ووضع نظام جديد لجباية الضرائب ، فقبل ملتزمو الوجه البحري الوضع الجديد ، ورفضه زملاؤهم بالوجه القبلي ، فأخضعهم محمد علي بالقوة وضم أراضيهم للحكومة (٦٢) .

وفي سنة ١٨١١ دبر محمد علي مذبحة القلعة ، فقضى فيها على معظم المماليك واستولى على ما كان في حوزتهم من أراضي الالتزام ، وبذلك لم يبق من أراضي الالتزام في أيدي الأهالي الا القليل .

أما الملتزمون من غير المماليك فقد سحبت منهم الأرض ، وخصص (٦٣) لهم راتب سنوي عرف باسم الفائض Faiz تعويضا لهم عما خسروه . كما منحهم اراضي السوسية طول حياتهم (٦٤)، وأعفاها من الضرائب (٦٥)، وأعطاهم الحرية في (٦٦) زراعتها أو تأجيرهم أو بيعها للحكومة فقط (٦٧)

وقد حاول الملتزمون وعلماء الأزهر القيام بحركة مضادة ضد تصرفات محمد علي ولكنها باءت بالفشل (٦٨) ، واستقر الأمر لمحمد علي وفق ما أراد .

وفي سنتي ١٨١٢ و ١٨١٣ وضع محمد علي يده على أطيان الرزق

---

(٦٢) امين عفيفي : تاريخ مصر الاقتصادي ص ٥٠ .

(٦٣) Mengin, Hist. vol. II, p. 339; Clot, aperçu II, p. 195.

(٦٤) Cattauix La règne de Mohamed Ali d'après les Archives Russes I. III p. 255.

(٦٥) 12 - Mengin, Histoire de l'Egypte... Vol. II, p. 339

(٦٦) Poliak, Feudalism. p. 77

(٦٧) احمد الحته : تاريخ مصر ص ٦٧ .

(٦٧) الجبرتي ج ٤ ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

الموقوفة على المساجد وأعمال الخير ، وفرض عليها ضريبة أسوة بأطيان الالتزام ، بعد أن خصص معاشا سنويا لمالكيها أو مستحقيها . على أن تتولى الدولة الانفاق على المساجد وأعمال البر . وبذلك نظم محمد علي الوقف بما يتفق مع مصلحة الواقفين ومصلحة الدولة . وقد احتج علماء الازهر على هذا الاجراء أيضا ، ولكن لم يكن لاحتجاجهم أي أثر(٦٩) .

وأصبحت الأراضي المعفاة من دفع الضرائب تنحصر في الأوسية كما سبق أن ذكرنا . وكذلك الابعاديات (٧٠) والجفالك (٧١) في مقابل ما ينفقه أصحابها من أموال في اصلاحها ، والاراضي المعطاة لشيخ البلد نظير خدماته للحكومة ، وتقدر بنحو $\frac{١}{٢٠}$ من زمام القرية (أي خمسة أفدنة في كل مائة فدان) (٧٢) .

استبدل محمد علي نظام الالتزام الملغى بنظام آخر أطلق عليه اسم « نظام التضامن » . وخلاصته (٧٣) أن يتضامن اهل كل قرية في دفع الضريبة المفروضة عليها الى الحكومة (٧٤) مباشرة ، وذلك في أعقاب الروك (القياس) الذي أجراه للأراضي الزراعية في عام ١٨١٤ . ولا شك أن هذا النظام الجديد يتنافى مع أبسط مبادىء المساواة والعدالة

---

(٦٩) المصدر السابق ص ٢٢٥ .

(٧٠) أراضي تمنح لكبار موظفي الدولة مكافأة لهم على خدماتهم وقدرها كلوت بك بنحو مليون فدان .

(٧١) أراضي تمنح لأعضاء أسرة محمد علي طبقا لما اورده أرتين .

(٧٢) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٧٥.

(٧٣) Baer, A history of Landownership... p. 6

(٧٤) Nahas, Situation économique et sociale du fellah Egyptien p. 44.

ويغرى على التراخي (٧٥) والاهمال •

ونظرا لمساوىء هذا النظام فقد الغاه في عام ١٨٤٠ واستبد له بنظام العهدة Al-uhda وهو نظام يشبه الى حد ما نظام الالتزام الملغى • وخلاصته أن يتعهد أفراد معينون بتوريد الضرائب لخزانة الدولة بعد تقديم الضمانات اللازمة للحكومة (٧٦) وتتراوح مساحة العهدة بين ٣٠٠ و ٨٠٠ فدان (٧٧) •

وقد حرص محمد علي على ألا يتحول نظام العهدة الى نظام الالتزام السابق ، ولذا فقد حرم على أصحاب العهدة أن يأخذوا ضرائب من الأهالي أكثر مما هو مفروض عليهم (٧٨) • أو أن يكون لهم من الامتيازات مثل ما كان للملتزمين من قبل • مثل تسخير (٧٩) الفلاحين لزراعة اراضيهم الخاصة •

وكانت الحكومة قبل فيضان النيل في كل عام تطرح أطيان كل بلد للمتزايدين واذا رسا المزاد على أحد الأفراد يصرح له بزراعة أرضه ، ثم ترسل الحكومة من لدنها مندوبين لقياس الأرض الزراعية التي في حوزة كل فرد ، ويسجلونها في سجلات تتخذ أساسا لجباية الضرائب (٨٠)•

ومما تجدر الاشارة اليه أن ضرائب الأرض الزراعية تعرضت للزيادة

---

(٧٥) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٧٥ •

(٧٦) Artin, Propr. fonc. pp. 128-30

(٧٧) Bowring, Egypt. pp. 16 & 45

(٧٨) Baer, A History of land... p. 13.

(٧٩) Artin, Essai sur les causes de renchèrissement au Caire. pp. 72-73.

(٨٠) جرجس حنين : الأطيان والضرائب في القطر المصري ص١٩٠.

في أحيان كثيرة ، لا سيما في أوقات الحرب [٨١] ، وتحت ضغط الحاجة الى المزيد من الاموال . ولكنها بصفة عامة تقدر بنحو ٤٠ قرشا في المتوسط للفدان الواحد . وتختلف حسب درجة خصوبة التربة ، ومدى سهولة ريها أو صعوبته ، وتتدرج الضريبة فيما بين ١٥ قرشا و ٧٨ قرشا [٨٢] . وقد بلغت الضريبة على الأرض الزراعية في عام ١٨٣٣ نحو ٤٥٪ من مجموع الايرادات .

وتنيجة لسياسة محمد علي في توسيع رقعة الأرض الزراعية أن زادت مساحة الأرض المنزرعة من ٢٫٠٣١٫٩٠٠ فدان في سنة ١٨٢١ الى ٣٫١٢٣٫٩٩٧ فدان في سنة ١٨٣٣ ، مما ترتب عليه زيادة الضريبة العقارية من ٦٦٠٫٥٤١ جنيه الى ١٫٠٨٤٫٩٢٢ جنيه [٨٣] .

اما عن الضرائب المباشرة

١ ـ ضريبة (فردة) الرؤوس ، وقد فرضت على كل فرد حسب مركزه ومهنته ، فبالنسبة للموظفين وذوي الرواتب تعادل الضريبة مرتب شهر . وعلى التجار والصناع كل حسب ظروفه وامكانياته . وعلى الفلاح تتراوح الضريبة بين ٣٠ ، ١٠٠ قرش . وهناك حدا أدنى لا تقل عنه وهو ١٥ قرشا ، وحدا أعلى لا تتجاوزه وهو ٥٠٠ قرشا between 4 fr. 750. and 125 fr. وقدر كلوت بك [٨٤] حصيلة هذه الضريبة بنحو ١٦٪ من مجموع الايرادات .

٢ ـ الجزية التي يدفعها غير المسلمين وتتراوح قيمتها بين ثمانية

---

(٨١) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٧٥ .

(٨٢) Cattaui, Le Règne de Mohamed Ali d'après les Ar... I. II p. 405.

(٨٣) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٦٥ .

(٨٤) Clot, aperçu = PI p. 205

قروش وعشرة قروش على الفرد الواحد [٨٥] .

٣ ـ فردة (ضريبة) النخيل وقسمت الى ثلاث درجات بالنسبة للمحصول . فعلى النخلة من الدرجة الاولى قرشا ونصف ، ومن الدرجة الثانية قرشا واحدا ، ومن الدرجة الثالثة عشرين بارة (نصف قرش) . أما في مدينة رشيد حيث تجود زراعة البلح ، فكانت على النحو التالي على الترتيب : قرشان ، وقرش ونصف وقرش .

وفي سنة ١٨٣٥ تقرر عدم فرض ضريبة على النخيل الا بعد عشر سنوات من غرسه تشجيعا للزراع . وأعفيت النخيل المغروسة في أراض معفاة من دفع الضرائب ـ مثل الحفالك ـ من دفع الضريبة .

٤ ـ ضرائب على بعض الحيوانات ، وقد قررت في عام ١٨٢٠ بواقع ٢٠ قرشا على الرأس من الجاموس ، ٦٠ قرشا على الجمل ، وقرشا على الشاة ، و ½ ٢٧ بارة على الرأس من الماعز ، ١٥ قرشا على البقرة و ١٥ بارة على الفرس . ومما تجدر الاشارة اليه أن الضرائب على الحيوانات لم تكن معروفة في كل اجزاء الدولة العثمانية فيما عدا مصر [٨٧] .

٥ ـ ضريبة على المراكب بالنيل بواقع ٢٠٠ قرش على المركب الواحدة .

٦ ـ ضريبة على آلات النسيج وقدرها ٣٦ قرشا في الشهر [٨٨] .

اما عن الضرائب غير المباشرة فتشمل :

١ ـ **الرسوم الجمركية ،** وتفرض على البضائع في جمارك بولاق

---

(٨٥) احمد الحته : تاريخ مصر ص ٣٢٩ .

(٨٦) المصدر السابق ، ص ٣٢٨ .

(٨٧) المصدر السابق ص ٣٢٨ .

(٨٨) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٧٩ .

ودمياط والاسكندرية ورشيد ومصر القديمة والسويس • ويلاحظ ان دخلها لم يكن كبيراً • وذلك لسببين :

الأول : احتكار الحكومة نحو ٩٥٪ من الصادرات وثلث الواردات (٨٩)

والثاني : التزام الحكومة المصرية بتنفيذ السياسة الجمركية المقررة في الدولة العثمانية طبقا للامتيازات الاجنبية • اذ كان الاجانب المتمتعون بتلك الامتيازات يدفعون ضريبة على الواردات مقدارها ٣٪ ، بينما يدفع المسلمون ٤٪ • هذا بالاضافة الى بعض الاتاوات الجبرية وعوايد مرور لا يدفعها الاجانب (٩٠) •

وقد حاول محمد علي زيادة الرسوم الجمركية على الواردات الاجنبية لحماية الصناعات الوطنية • ولكن السلطان العثماني رفض ذلك والزمه بضرورة مراعاة الامتيازات الأجنبية عند تنفيذ المعاهدات التجارية •

بالاضافة الى الرسوم الجمركية توجد رسوم أخرى على التجارة العابرة بين الشرق والغرب عن طريق مصر • وكانت تلك التجارة قليلة الحجم في اوائل القرن التاسع عشر ، ولكن بفضل الجهود التي بذلتها مصر في تسهيل المواصلات والعناية بطريق مصر البري من ميناء السويس الى القاهرة ومنها الى الاسكندرية أن قدرت قيمة التجارة المارة بمصر في سنة ١٨٤٠ بنحو ٠٠٠ر٠٠٠ر١٠ جنيه سويا (٩١)

هذا فضلا عن قافلة الحج التي تمر بمصر سنويا الآتية من مراكش وتونس والجزائر وطرابلس في طريقها الى مكة والتي تتكون من قرابة أربعة آلاف جمل حيث كانت الحكومة تفرض رسوما على مرور تلك

---

(٨٩) المصدر السابق •

(٩٠) احمد الحتة : تاريخ مصر ص ٣١٠ •

(٩١) المصدر السابق ص ٣١٤ •

القافلة بمن فيها من حجاج وبضائع .

ب ــ عوايد الدخولية : وتفرض على بعض البضائع عند انتقالها من بلد الى أخرى داخل القطر . مثل المأكولات والاغذية عند دخولها الاسكندرية ودمياط ورشيد والغلال عند دخولها القاهرة ، والمواشي القادمة الى القاهرة والمرسلة الى الاسكندرية . وفي سنة ١٨٤٠ كانت عوايد الدخولية على النحو التالي [٩٢] :

٧٤ قرشا عن كل رأس من الثيران المعدة للذبح .

½ ٢٤ قرشا عن كل رأس من الجاموس المعدة للذبح .

½ ٣ قرشا عن كل رأس من الاغنام المعدة للذبح .

٢٠ قرشا عن كل أردب من القمح .

١٥ قرشا عن كل أردب من الشعير والفول والذرة والبقول .

وعلى العموم فكانت الضريبة تعادل ١٢٪ من قيمة السلعة [٩٣].

جـ ــ رسوم مختلفة ، على الصيد والمراكب ، على كل مركب ٢٠٠ قرش . وعلى الأسماك ثلث حصيلة الصياد من السمك ، وعلى الأسواق بطريق الالتزام ، وغير ذلك .

د ــ أرباح الاحتكار : وكانت تقدر بنحو ٢٨٪ من الايرادات ،ففي سنة ١٨٣٦ كانت الحكومة تحتكر ٩٥٪ من مجموع الصادرات ، ولكنها لم تستطع أن تحتكر كل الواردات ، اذ بلغت الواردات في تلك السنة ٤٠٪ من مجموع الواردات لمصر فعلى سبيل المثال كانت الحكومة تحتكر تجارة البن ، فتشتريه بسعر ١٤٠ قرشا القنطار وتبيعه بسعر ٤١٢قرشا [٩٤]

---

(٩٢) المصدر السابق ص ٢٧٢ .

(٩٣) لبراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٧٩ .

(٩٤) Cattaui, La Règne de Mohamed Ali d'après les Archives Russes T. II p. 405.

والقمح تشتريه بثلاثين قرشا للاردب وتبيعه بخمسين قرشا ، وتشتري الفول بعشرين قرشا للاردب وتبيعه بثلاثين قرشا ، وتشتري الذرة وهو عماد غذاء الفلاح الرئيسي بعشرين قرشا وتبيعه باثنين وثلاثين قرشا .

وتتيجة لذلك أصبح دخل الحكومة من الاحتكار ٣٤٠ر٠٠٠ جنيه مصري في سنة ١٨٢١ من مجموع الايراد البالغ ١ر١٩٩ر٧٠٠ جنيه مصري. وزاد هذا الدخل الى ٧٥٠ر٠٠٠ جنيه مصري في سنة ١٨٣٦ من مجموع الايراد وقدره ٣ر٠٦٤ر٣٠٠ جنيه مصري (٩٥) .

أثر النظم الضريبية على مصر من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية في النصف الأول للقرن التاسع عشر :

ان انشاء حكومة قوية في مصر ــ لا شك ــ كان من أجل الاعمال التي قام بها محمد علي ، اذ كان لهذا العمل أبعد الاثر في استتباب الامن والنظام اللذين لم تعرفهما مصر طوال الحكم العثماني المملوكي .ومكنت محمد علي من القيام باصلاحاته الواسعة والاستفادة من الخبرات الاوربية. وكان استقرار الاحوال في مصر موضع ثناء واعجاب الكتاب الأوربيين المعاصرين .

ولكن الى جانب هذه الاعمال فان محمد علي لم يتجه في حكمه اتجاها دستوريا ، بل حكم مصر حكما مطلقا . وبذلك حرم الامة من المشاركة في مسئوليات الحكم . ولم يكن لها من دور سوى أن تعمل فقط لتذهب ثمرة جهودها في صورة ضرائب متعددة الانواع والاشكال الى خزينة الدولة .

واذا تناولنا موضوع الغاء محمد علي نظام الالتزام الذي يمثل « الرأسمالية الاقطاعية » فانه لا يعني ملكية المزارعين للأرض التي يقومون بزراعتها ، وانما يعني انتقالها من يد الملتزمين ، فأصبحت الحكومة هي

---

(٩٥) أحمد الحته : المرجع السابق ص ٢٦٧ .

المالكة للارض . وقد علق المسيو مانجان (صديق محمد علي) على الغاء الالتزام بقوله ان هذا الالغاء كان أبعد ما يكون عن الاصلاح ،فالتعديلات التي أدخلها حاكم مصر في نظام الملكية لم تكن منفعته مع الصالح العام، فلا هو احترم الملكية الفردية ولا اعترف بها [٩٦] .

واذا قلنا انتقال ملكية الأرض من يد الملتزمين الى الدولة ، التي تقوم بتوزيع زراعتها على الفلاحين في حدود ثلاثة أو أربعة أفدنة لكل فلاح ، فلا نقصد بذلك الملكية التي نعرفها في عصرنا هذا ، وانما نقصد ملكية الانتفاع usufruct right فقط وهي التي كانت تتفق مع الاتجاه العام لسياسة محمد علي الاقتصادية القائمة على الاحتكار [٩٧] .

وجد نظام محمد علي هجوما عنيفا من قبل الكتاب المعاصرين مثل الجبرتي ومانجان وغيرهما . وحتى الذين دافعوا عنه من أمثال [٩٨] كلوت بك بانه نظام مؤقت يمهد السبيل أمام الملكية الحقيقية . على أن ملكية الفلاح للارض لم تتقرر الا في سنة ١٨٥٨ بعد وفاة محمد علي .

واذا لم تكن للضرائب قاعدة ثابتة قبل عهد محمد علي ــ اذا استثنينا عهد الحملة الفرنسية ــ حيث كان النظام المتبع أن الحكومة كانت تفرض أتاوات جديدة أو تزيد الأوتاوات القديمة كلما احتاجت الى المال ، فان الضرائب في عهد محمد علي لم تثبت على حال ، اذ كانت دائبة الارتفاع، نظرا لحروب محمد علي المتلاحقة ، كالحرب الوهابية ، وفتح السودان وحرب المورة وحرب الشام .

وكان من نتائج الزيادة المستمرة في الضرائب أن تأخرت قرى كثيرة

---

(٩٦) Mengin, Hist... vol. II. p. 337

(٩٧) Baer, A history of ... p.7

(٩٨) Clot, Aperçu p. 197

في دفعها والتجأ فلاحوها الى الفرار من الأرض • وازاء هذه الظاهرة آصدر محمد علي قرارا في سنة ١٨٣٩ بأن تتضامن القرية في خراج القرية المجاورة لها • وكذلك يضمن الاهالي الموسرين خراج المعسرين • وهذا يتنافى تماما مع العدالة الاجتماعية ، ويؤدي في نفس الوقت الى افقار القرى القادرة باجبارها على دفع الضرائب أضعافا مضاعفة (٩٩) •

واذا كان محمد علي أحل نظام العهدة محل نظام التضامن ، فان هذا النظام أيضا لم يخل من عيوب • فالمتعهد الذي يقوم بدفع ما على الفلاح من ضريبة مقدما للحكومة يعتبر الفلاح مدينا له ، ولذا فكثيرا ما كان يستغل ذلك في تسخيره لاطماعه الخاصة •

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى اذا هجر الفلاح أرضه وهرب كان على الحكومة أن تتعقبه وأن تعيده الى أرضه مرة ثانية استيفاء لما دفعه المتعهد من ضرائب • وفي هذا ارهاق وامتهان لحرية الفلاح •

ونظرا لما ترتب على هذا النظام من مساوىء شبيهة الى حد ما بمساوىء نظام الالتزام أن أقدمت الحكومة على الغائه في سنة ١٨٥٠ ، ولكن بعد أن حمل الفلاحين الكثير من العنت والارهاق •

وبذلك يمكننا القول أن حالة الفلاح المصري في ظل نظام محمد علي لم تتغير عما كانت عليه خلال القرن الثامن عشر ، وهي أنه لا يمتلك سوى حق الانتفاع بالأرض فحسب (١٠٠) • وهذا الحق مشروط بمقدرته على سداد ما عليه من التزامات ضريبية قبل الحكومة • فاذا عجز عن دفعها نزعت منه الأرض وأعطيت لغيره (١٠١) • واذا مات المنتفع بالأرض كان

---

(٩٩) الرافعي ، جـ ٣ ص ٥٩١ •

(١٠٠) Baer, A history of... p. 6.

(١٠١) المصدر السابق ص ٦ •

يتولى أولاده زراعتها بدلا منه ، ولكن ليس بحق الوراثة (١٠٢) .

فالفلاح في عهد محمد علي كان اما اجيرا لدى الحكومة أو منتفعا بأطيانها وكان الأجير يتقاضى قرشا واحدا في اليوم (١٠٣) ، اما نقدا أو عينا . وكانت الحكومة في أحيان كثيرة تنزع الأرض ممن تشاء دون أن تمنحه تعويضا عن ذلك .

ومع ذلك يمكننا القول بأن حالة الفلاح قد تحسنت نسبيا عما كانت عليه في عهد الحكم العثماني المملوكي (١٠٤) . ولكنها في الجملة كانت تدعو الى الالم والاشفاق فحرمانه من حق التملك ، ووقوعه فريسة الضرائب المتعددة ، واستغلال نظام الاحتكار له جعله في حالة سيئة .

هذا بالاضافة الى أن زيادة الحاصلات الزراعية ، واقامة المشروعات العمرانية الكبيرة لم تقترن بارتقاء حالة الفلاح الاجتماعية . وخير وصف لحالته في ذلك الوقت ماكتبه Mongiu (١٠٥) اذ يقول :

«S'il est vrai de dire qu'il n'ya pas de contrée plus riche que l'Egypte dans ses productions territoriales, il n'en est peut-être pas dont les habitans (1832) soient peus malheureux».

ولكن مهما قيل في مظالم هذا العصر ، فهي في الحقيقة لا تذكر بجانب مظالم الحكام المماليك .

واذا تركنا طبقة الفلاحين وانقلنا الى طائفة الصناع في ظل هذا النظام الجديد نجد أن هؤلاء الذين عملوا في المصانع والترسانات الحربية والبحرية

---

(١٠٢) الرافعي : تاريخ الحركة الوطنية ج ٣ ص ٥٨٦ .

(١٠٣) Clot, Aperçu vol. II, p. 196

(١٠٤) الرافعي ج ١ ص ٥٩١ .

(١٠٥) Mengin, Hist. de l'Egypte vol. II, p. 342

التي أنشأها محمد علي قد تدربوا على تلك الصناعات الجديدة واتقنوها، وكونوا طبقة من العمال الفنيين التي سيكون لها أبعد الاثر في تقدم مصر الصناعي في القرن التاسع عشر .

أما طبقة التجار فقد اضمحلت الى حد بعيد نتيجة سياسة الاحتكار التي سارت عليها الحكومة واحتكارها للتجارة الداخلية والخارجية على السواء . والظاهرة الغريبة التي نلاحظها في ذلك الوقت أن ازدياد حجم التجارة المصرية ازديادا كبيرا صحبته قلة في الثروات الشخصية ، وقلة أخرى في عدد التجار (١٠٦) ، وفقر الأهالي ، وسبب ذلك أن ثمرة ازدهار التجارة كانت تعود كلها على الحكومة وعلى الوسطاء من الأجانب .

أما العلماء فقد تضاءل نفوذهم في عهد محمد علي بعد أن كان له النفوذ الواسع والقيادة الفكرية والأدبية والسياسية في العهد المملوكي العثماني وعهد الحملة الفرنسية ، لا سيما بعد أن استطاع محمد علي القضاء على زعامتهم في شخص السيد عمر مكرم .

ومما زاد في تضاؤل نفوذهم تمسك الازهر بنظامه القديم ، فلم يساير حركة التقدم والاصلاح التي قامت في مصر وقتئذ . وبذلك انتقل مركز الثقافة من الأزهر الى المدارس والمعاهد والبعثات . وانطوى العلماء على أنفسهم ولم يساهموا في حركة التجديد والانشاء التي شملت مختلف النواحي .وترتب على ذلك أن فقدوا مالهم من هيبة واحترام لدى الحاكمين.

ومع أن محمد علي لم يفكر في اصلاح الأزهر ، كما لم يفكر علماؤه في ذلك ، الا أنه ظل المورد والمعين الذي استمدت منه المدارس الحديثة والبعثات العلمية تلاميذها . وبعد أن أتم هؤلاء دراستهم كان لهم القسط الاوفى في نهضة مصر العلمية والاجتماعية . ولذا فالأزهر من هذه الناحية كان له الفضل الكبير في النهضة العلمية الحديثة في مصر .

---

(١٠٦) المصدر السابق ص ٢٢٧ .

أما جماعات البدو الضاربة في الصحراء المصرية وعلى حافة الدلتا فكانت مثار تعب شديد لمحمد علي . اذ دأب هؤلاء على مهاجمة المناطق الزراعية ونهبها ، وكذلك قطع الطرق على التجار والمسافرين .فحاول محمد علي أول الامر أن يعقد معهم اتفاقات حسن جوار ، ولكنهم نقضوها . فما كان منه الا أن أخضعهم بالقوة لسلطان الحكومة (١٠٧) .

وفي نفس الوقت لجأت الحكومة الى تعويد هؤلاء حياة الحضارة ، فأقطعتهم اراضي واسعة لاستغلالها مع اعفائها من الضرائب كلية (١٠٨) .

كما رغبهم محمد علي في الانتظام في سلك الجندية ، ونجح في ذلك. وبهذه الوسائل استطاع والي مصر ادماج القبائل البدوية في جسم الهيئة الاجتماعية . وكان ذلك من أهم أعمال العمران .

وخلاصة القول فان هذا النظام الجديد قد خلق لمصر شخصيتها المنفصلة عن السلطة العثمانية حكما وسياسة وعملا . واذا كانت البلاد لم تصل في ذلك الوقت الى درجة كافية من النضج في الادارة المالية والضريبية ، الا أن الفترة من وفاة محمد علي (منتصف القرن ١٩) الى الاحتلال البريطاني لمصر في عام ١٨٨٢ قد شاهدت تغيرات واسعة ، فقلت سيطرة الدولة على نواحي النشاط الاقتصادي والمالي للافراد ، وقلت القيود المفروضة عليهم.

ولا شك أن هذه الظاهرة تتفق مع الاتجاه الذي ساد أوربا وقتئذ حيث علا سلطان المبادىء الحرة liberalism في ميادين الاقتصاد والسياسة. فما كانت مصر تستطيع أن تعيش بمعزل عن التيارات الجديدة في العالم الغربي بعد أن اتصلت بـه وبحضارته (١٠٩) . وسيهىء لها هذا تحسنا في الادارة المالية والضريبية بحيث تصبح الضرائب أدنى الى العدالة ، وأكثر انطباقا على مقدرة دافعي الضرائب فيما بعد .

(١٠٧) جرجس حنين : الأطيان والضرائب ص ١٩٧ .
(١٠٨) الرافعي ج ٣ ص ٦١١ .
(١٠٩) البراوي وعليش : التطور الاقتصادي ص ٩٠ .

المراجع العربية

١ ـ ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٥ تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٦١ .

٢ ـ أحمد أحمد الحته : تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر الاسكندرية ١٩٦٧ .

٣ ـ محمد شفيق غربال : مصر في مفترق الطرق (١٧٩٨ — ١٨٠١) ـ ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية كما شرحه حسين أفندي أحد أفندية الروزنامة في عهد الحملة الفرنسية ـ مجلة كلية الآداب . الجامعة المصرية ، المجلد الرابع ج ١ مايو سنة ١٩٣٦ .

٤ ـ جرجس حنين : الأطيان والضرائب في القطر المصري ، القاهرة ١٩٠٤ .

٥ ـ راشد البراوي ومحمد حمزة عليش : التطور الاقتصادي في مصر في العصر الحديث الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٤٩ .

٦ ـ عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج ٤ القاهرة ١٣٢٢ هـ .

٧ ـ عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر (جزءان) القاهرة ١٩٢٩ .

٨ ـ عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد علي ـ القاهرة ١٩٢٩ .

٩ ـ محمد فؤاد شكري :
وعبد المقصود العناني : بناء دولة مصر محمد على القاهرة ١٩٤٨ .
وسيد محمد خليل :

١٠ ـ يعقوب ارتين : الاحكام المرعية في شأن الاراضي المصرية (ترجمة) القاهرة ١٣٠٦ هـ .
القاهرة ١٩٣٦ .

١١ ـ يوسف نحاس : الفلاح «حالته الاقتصادية والاجتماعية»

★ ★ ★

المراجع الاجنبية

— Bear, G., A history of landownership in modern Egypt 1800 — 1850 London, 1962.

— Blunt M. S., The secret history of the British occupation of Egypt, 1923

— Cromer, Lord, Modern Egypt. 2 vols. London 1908.

— Cromer Lord, Abbas II, London 1915.

— Dodwell, H. The founder of Modern Egypt: A study of Muhammad Ali, Camb. 1967.

— Ghorbal, S. The beginnings of the Egyptian Question and the rise of Mehemet Ali, London 1928.

— Holt, P. M., Political and social change in modern Egypt: historical studies from the Ottoman conquest to the United Arab Republic — London 1968.

— Hoskins, H. British routes to India N. Y. 1928.

— Marlowe, J. The Anglo-Egyptian relations: 1800-1953 L. 1954.

— Safran, N. Egypt in search of political Community. An Analysis of intellectual and political evolution of Egypt. 1804-1882.

— Silvester de Sacy: Bibliothèque des Arabisants Français: Première serie 2 tomes. Publications de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, T. II.

الأثر الاقتصادي في الحياة السياسية
في صدر الإسلام والعصر الأموي

الدكتور ناجي حسن

شكلت القبائل العربية التي تقدمت للفتح عماد الجيش الاسلامي في صدر الاسلام ، ومن ثم كان عليها ان تقوم بالعمل ذاته في الدولة الأموية ، التي استندت في قيامها الى تظافر جهود تلك القبائل وولائها خاصة السورية منها للامويين • لا ريب ان هذه القبائل المتقدمة لم تكن بحاجة الى نفقات باهضة التكاليف او ان تكون عبئا ثقيلا على بيت المال ، وذلك بسبب المواهب الحربية والقدرة القتالية التي امتاز بها رجالها ، وقد عبر عن هذا الاحنف بن قيس حين سئل : ما بقاء ما فيه العرب ، قال : « اذا تقلدوا السيوف ،وشدوا العمائم ، وركبوا الخيل ولم تأخذهم حمية الاوغاد»[١]• والى هذا يمكن ان يعزى السر في سرعة تقدم العرب في البلاد المفتوحة بشكل يبعث على الدهشة ويثير الاعجاب اضافة الى عوامل اخرى لسنا بصدد الحديث عنها •

لقد ادرك قادة المسلمين في المدينة ذلك الأمر ، ومن هنا كانت الأوامر تقضب بأن تتجه تلك المجموعات القبلية نحو مواطن الفتح الجديدة ، فكان ان تسارع الناس اليها بين محتسب استهواه الجهاد في سبيل الله

---

(١) البيان والتبيين ٢\٨٨ •

وطامع منى نفسه بالغنيمة (٢) .

يمكن القول ان انشاء الديوان زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، يعد البداية الاولى للتنظيم المالي في الاسلام ، وهي محاولة قصد بها ربط القبائل العربية بالسلطة السياسية في المدينة واخضاعها لسيطرتها ، حيث اصبحت تعتمد اعتمادا كليا على العطاء في امور حياتها الاقتصادية اضافة الى الغنائم والاسلاب التي تتركها المواقع الحربية . ويظهر التطور المالي السريع في حياة هذه القبائل بأجلى مظاهره اذا عقدت مقارنة بين البدايات الاولى للفتوح ونتائجها . ففي حملة تبوك عام ٨هـ لم يجن المسلمون سوى ثلثمائة دينار حينما صالحوا يحنة بن رؤبة صاحب ايله عليها (٣) . ولم يستطع خالد بن الوليد ان يحصل على اكثر من ستين الف درهم من فتوحه في العراق ، كذلك نجد ان عمر بن الخطاب يندهش حين يخبره والي البحرين بانه قد حمل مبلغ خمسمائة الف درهم ، حتى قال له : أتدري ما تقول (٤) . ويظهر ان افراد هذه القبائل لم تعرف المبالغ الطائلة حتى اصعب على حريم بن اوس بن حارثة الطائي المرافق لحملة خالد بن الوليد على الحيرة أن يصدق ان كان هنالك ما هو اكثر من الألف (٥) .

ان موقعة القادسية وما تلاها من فتوح كانت البداية الحقيقية لتدفق الأموال على القبائل المقاتلة بشكل لم يعهده العرب من قبل خاصة بعد مهاجمة المدائن عاصمة الدولة الساسانية وضواحيها ، حتى يجد المتتبع لاحداث الفتح ان بعض المبالغ قد تدخل في عداد الخيال . فيقال ان سعد ابن وقاص وجد في المدائن قبابا تركية مملوءة بسلاسل مختمة بالرصاص ،

---

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ١١٥ .
(٣) فتوح البلدان ص ٧١ .
(٤) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٩٩ .
(٥) فتوح البلدان ص ٢٤٥ ، الاحكام السلطانية ص ١٩٢ ، ابن الطقطقى : الفخري ص ٦٧ .

فظنوا انها طعام ، فاذا هي آنية من الذهب والفضة فقسمت بين المسلمين[٦]. وباع هلال ابن علفه اسلاب رستم بتسعين الف دينار ، واستطاع زهرة بن حوته التميمي ان يحصل على ثمانين الف دينار حين باع منطقة جالينوس[٧]. وبولغ في راية الفرس المعروفة بـ « درفش كاويان » حتى قيل انها كانت مزينة باللؤلؤ والياقوت ، وقد اصابها رجل من النخع فقومت بالفي الف دينار ، غير أن عمر بن الخطاب ابى ان تكون من حصة هذا النخعي فاخذ المال ودفع اليه ثلاثين الف درهم [٨] . واصاب المسلمون يوم جلولاء ثلاثين الف الف مثقال ، واثنتي عشرة الف جارية وغلام [٩] . ويبالغ ابو عبيدة في مقدار الاموال التي حصل عليها المقاتلون بعد وقعة اليرموك حيث اصاب الفارس اربعة وعشرون الف مثقال من الذهب الاحمر والراجل ثمانية آلاف [١٠] .

من كل هذا نجد أن تطورا اقتصاديا هائلا قد طرأ على حياة الجماعات المتقدمة للفتح ، ويكفي ان نشير الى ان بعضهم لم يعرف قيمة ما اصابه من هذه الغنائم ، حتى كان الرجل يوم دخل المسلمون المدائن يأخذ في يده الذهب الاحمر ويقول : « من يأخذ الصفراء ويعطيني البيضاء، يرى أن الفضة خير من الذهب » [١١] . ومن هنا تم انشاء الديوان لغرض ربط القبائل ومن تبعها بالسلطة الحاكمة بالمدينة ، وكذلك لتنظيم عملية الفتح على اساس ثابت وسبيل واضح . ومع ان معلوماتنا عن الديوان تكاد تكون موجزة وغير وافية لما نحن بسبيل بحثه ، الا انها تلقي ضوءا خافتا على الجماعات التي ضمها الديوان ، والاسلوب الذي اتبع في

---

(٦) القاضي الرشيد : الذخائر والتحف ص ١٥٨ .
(٧) نفس المصدر ص ١٥٦ .
(٨) نفس المصدر ص ١٥٧ .
(٩) القاضي الرشيد : الذخائر والتحف ص ٢٤٥ .
(١٠) الواقدي : فتوح الشام ٢\٢١١ .
(١١) الذخائر والتحف ص ١٥٨ ، الفخري ص ٦٧ .

التوزيع . الا اننا لا نعلم على وجه التحديد ان كان قد شمل جميع القبائل ام انه اقتصر على تلك التي تقدمت للخدمة في الدولة الاسلامية . يروي الماوردي ان الخليفة الثاني فرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجل منهم من الفين الى خمسمائة الى ثلثمائة ولم ينقص احد منها (١٢) . وينقل الطبري نصا فريدا في هذا الباب حين يقول « وعرفوهم على مائة الف درهم ، فكانت كل عرافة من القادسية خاصة ثلاثة واربعين رجلا وثلاثا واربعين امرأة ، وخمسين من العيال لهم مائةالف درهم ، وكل عرافة من اهل الايام عشرين رجلا على ثلاثة الاف ، وعشرين امرأة عيل على مائة الف درهم . وكل عرافة من الرادفة الاولى ستين رجلا وستين امرأة واربعين من العيال ممن كان رجالهم الحقوا على الف وخمسمائة على مائة الف درهم ، ثم على هذا الحساب ، وكان العطاء يدفع الى امراء الاسباع واصحاب الرايات فيدفعونه الى العرفاء والنقباء والاقناء فيدفعونه الى اهله في دورهم » (١٣) . كما فرض للمنفوس مائة درهم فاذا ترعرع بلغ مائتي درهم فاذا بلغ زاده (١٤) . اما اولئك الذين شاركوا في القادسية فقد حصل كل واحد منهم على الفين درهم اضافة الى خمسمائة لاؤلئك الذين كان لهم بلاء كبير في الاحداث (١٥) ، وهو ما يسمى بشرف العطاء (١٦) . ولم يقف الأمر على العرب حسب وانما تعداه الى بعض كبار الفرس الذين دخلوا الاسلام فقد فرض لمائة منهم في الفين ، ولستة منهم في الفين وخمسمائة (١٧) . من هذا يظهر ان حالة العرب الاقتصادية اخذت تتطور تطورا سريعا باعتمادها على العطاء ، اضافة الى الغنائم الهائلة التي

(١٢) الاحكام السلطانية ص ٢٠٢ .
(١٣) الطبري ٤\١٩٤ .
(١٤) الاحكام السلطانية ص ٢٠٢ .
(١٥) الطبري ٤\١٦٢ . انظر الاشتقاق ص ٤٩٣ ، الاغاني ١٥/٢١٤.
(١٦) الطبري ٤\٢١٩ ، القالي : الامالي ٢/١٥٤ .
(١٧) الطبري ٤\٢١٩ .

تم الاستيلاء عليها في مناطق الفتح [18] ، مما جعل هنالك تفاوتا واضحا بين الافراد وظهور طبقة متميزة دفعت عمر بن الخطاب الى التصريح بالعدول عن هذه السياسة والرجوع الى مبدأ المساواة وكان يقول : « والله لئن بقيت الى هذا العام المقبل لا لحقن آخر الناس بأولهم ، ولأجعلنهم رجلا واحدا .» [19] لكنه اغتيل دون ان يحقق مشروعه هذا حين نفذت الايدي التي خافت على مصالحها الاقتصادية وعيدها فيه قبل ان ينفذ وعده فيها، اما الصاق التهمة على عناصر اجنبية فلا يدعمه برهان واضح أو يؤيده دليل قاطع . اذ ان قاتله كان مولى للمغيرة بن شعبة احد اطراف المؤامرة هذه ، ومن اجل طمس معالم الجريمة فان القاتل قد قتل في الحال ، وبذلك ضاع الامل في الحصول على صورة واضحة لما حدث [20] .

---

(١٨) لم تقف اطماع القبائل التي قام الفتح على سيوفها عند حد ،وانما ارادت ان تستحوذ على الارض خاصة مناطق السواد ، ولهذا طالبوا بتوزيعه عليهم اسوة بالغنائم ، خاصة بجيلة التي اشترطت ان تحصل على ربع السواد . ويتضح من رواية الحسن بن صالح ان عمر صالحهم بعد ذلك على ان يفرض لهم في الفين من العطاء (البلاذري : فتوح ص ٢٦٧ ، وحسنا فعلت السلطة في المدينة حين ابت اعطاء المقاتلة شيئا من الارض بل اكتفت بتعويضهم بعض المال . وقد بررت المدينة ذلك بكونه يعني سيطرة فئة قليلة على هذا المورد الهام ، ومن ثم فلا مجال لمن يأتي بعدهم . والحق انه لم يكن كذلك ، بل خشيت ان يحول ذلك دون تأدية ما عليهم لبيت المال . بل اكثر من هذا اذ ان استيلاء القبائل على الارض يعني بالتالي تدميرها بفعل المنازعات القائمة بينهم .

(١٩) ابن سعد : الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٢١٧ .

(٢٠) رواية الطبري عن المسور بن مخرمة تذكر ان ابا لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة شكى لعمر ما يعانيه من تعسف بقوله : يا امير المؤمنين اعدني على المغيرة بن شعبة فان علي خراجا كثيرا ، فقال له : فما ارى خراجك بكثير على ما تصنع من الاعمال » فتوعده وقتله (الطبري ١٩١/٤) ويشارك المسعودي الطبري فيما يروي ، لكنه يثير مشكلة اخرى وهي انه عمر بن الخطاب لم يترك لاحد من العجم يدخل المدينة لكن هذا دخلها بوصية من

وبمجيء عثمان بن عفان الى الخلافة ازدادت اعباء بيت المال بسبب كثرة الهبات والعطايا (٢١) ، وكانت الدولة في بداية الامر غير شاعرة بما يحدث بسبب كثرة الفتوح ، وتدفق الاموال دون حساب . كذلك الحال بالنسبة للمقاتلين الذين استغلوا المناطق المفتوحة لجني اكبر نفع ممكن. فعلى سبيل المثال اعتبرت الري واذربيجان منطقة هامة لمغازي اهل الكوفة حيث « كان لهم بالثغرين عشرة آلاف مقاتل ، ستة الاف في اذربيجان، واربعة بالري . وكان بالكوفة اذ ذاك اربعون الف مقاتل ، وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف في كل سنة ، فكان الرجل يصيبه في كل اربع سنوات غزوة » (٢٢) . غير أن هذه الاماكن سرعان ما قلت اهميتها بسبب نفاذ طاقتها ، وعدم قدرتها على تلبية طلبات المغيرين هناك ، وعلى هذا يمكن تعليل بعض مشاكل الكوفة مع الخليفة عثمان بن عنان حين شعروا بعد فوات الاوان ، بأن فتوحهم استغلت لصالح فئة خاصة في المدينة بينما لم ينالوا مع كل ما بذلوه من جهد سوى عطايا قليلة ذهبت مع الأيام،

← المغيرة بن شعبة . كما لا نجد عند الطبري اي اثر لما حدث للقاتل على حين يذكر المسعودي انه قتل نفسه ، (مروج الذهب ٢/٣٢٩) . واذا انت تدبرت ماروي تجد أن هذا المولى يجب ان يصفي حسابه مع مولاه وليس مع عمر . بل اكثر من هذا فان دخوله الى المدينة بهذه الصورة لا بد وان يستتبعها الكثير من التساؤلات . والسؤال هنا هل يعني اغتيال الخليفة اعفاء هذا المولى من تلك الضريبة الى ان ذلك العمل سيدفع برأسه كثمن له .

(٢١) لقد استغل بيت المال لضمان سكوت المعارضة لسياسة عثمان ، حتى انه قال لأبي ذر : كن عندي تغدو عليك وتروح اللقا ، ابن سعد ج٤ ق ١ ص ١٦٧ .

(٢٢) الطبري ٥/٤٥ . لا يخفى أن تلك الغزوات لم تكن مضمونه الفائدة او اكيدة النفع ، وانما غنائمها تخضع لظروف المناطق فقرها او غناها ، وقد يعود الفارس خالي الوفاض بعد طول انتظار يربي على اربع سنوات كانت امانيها في مخيلته .

وزاد في صعوبة الأمر ان الموارد العامة اخذت بالتناقص حتى غدا بيت المال لا يستطيع الايفاء بتعهداته الخاص امنها والعام مما اضطر الولاة الى انقاص العطاء في الامصار لملافاة هذه الظاهرة الخطيرة ومن ذلك ما قام به سعيد بن العاص والي عثمان في الكوفة حين حط عطاء نساء الكوفة الى مائة بعد ان كان مائتين ، مما اثار تذمرا واسعا بين اهلها (٢٣) . ويظهر ان هنالك اتفاقا مسبقا بين الخليفة وسعيد هذا حول ذلك الامر ، ولم يقتصر ذلك على النساء حسب ، وانما شمل الرجال ، حين رد اهل البلاء الى الفين بدلا من الفين وخمسمائة (٢٤) . لكن ذلك لم يدفع العجز المالي الذي بات وشيكا حدوثه ، مما جعل التفكير منصبا على انتزاع الملكيات الخاصة التي اصبحت بأيدي الأفراد من الناس . فاذا علمنا ان عدة اهل الكوفة ثمانون الفا ، ومقاتلتهم اربعون الفا (٢٥) ادركنا ما سيلحقه ذلك العمل من اضرار اقتصادية بالغة بهذه المنطقة ، وهو يعكس ذلك الموقف العنيف الذي اتخذه اهلها بوجه الخليفة عثمان وولاته (٢٦) ، وكان احد ابرز العوامل التي طوحت بسلطة الخلافة ، بل وضعت نهاية لحياة عثمان نفسه .

وهكذا كانت الرؤيا بكل ابعادها المختلفة واضحة لدى الامام علي

---

(٢٣) الاغاني ١٤٣/١٣ .

(٢٤) الطبري ٩٣/٥ . ليس لدينا معلومات واضحة ان كان مثل هذا قد حدث في مناطق اخرى من الدولة الاسلامية ، الا انه من المؤكد ان هذه المنطقة كانت في مقدمة من وضعت عليهم تلك الالتزامات المرهقة دون الاعتراف بحقوقها بسبب شدة معارضتها لسياسة المدينة .

(٢٥) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ١٦٥ .

(٢٦) عن الشعبي : قال سعيد بن العاص : انما السواد بستان قريش، فقال الاشتر : اتزعم ان السواد الذي افاءه الله علينا باسيافنا بستان لك ولقومك ، والله ما يزيد او فاكم فيه نصيبا الا ان يكون كاحدنا . الطبري ٣٢٣/٤ .

الذي اعلن قبل موافقتـه على البيعة « اني قـد كنت كارها لأمركـم فأبيتم الا ان اكون عليكم ، الا وانه ليس لي ان منه درهما دونكم ! رضيتم ؟ قالوا : بلى [٢٧] » . وبذلك ادركت الطبقة المتنفذة ما يـدور في خلد الأمام فيما يتصل بالتوزيع المالي ، ومن هنا جاءت المعارضـة القوية حيث كبار الملاك واصحاب الثروة كطلحة والزبير [٢٨] دون سلك نهجهما كزيد بن ثابت [٢٩] ، وكعب بن مالـك [٣٠] وسعـد بن ابي وقاص [٣١] وغيرهم [٣٢] . واذا تدبرنا طبيعة المعارضة السياسيـة هذه نجد ان كوامنها الاقتصادية كانت المحرك لاتجاهات هذا التكتل سواء اكان ذلك بشكل فردي او انه احساس جماعي عـام . وتلقي قائمـة المسعودي الضوء على تلك المدخولات الكبيرة التي كانت تتمتع بها تلك الطبقة ، فقد بلغ مال الزبير خمسين الف دينار ، وخلف الف فرس ، والف عبد وامه ، وكذلك طلحة بن عبيدالله الذي كانت غلته كل يوم الف دينار . اما زيـد بن ثابت فخلف حين مات من الذهب والفضة ما كان يكسـر بالفؤوس غير ما خلف من الاموال والضياع بقيمة مائة الف دينار [٣٣]، ومن هنا سلك الأمام سياسة مالية جديدة تحول دون اكتناز المال لصالح فئة خاصة على حساب جمهور الأئمـة ، فهو وان سوى بين النـاس في

---

(٢٧) الطبري ٤/٤٢٨ .

(٢٨) نفس المصدر ٤\٤٣٠ .

(٢٩) لم يبايع زيد بن ثابت عليا لان عثمان ولاه بيت المال ، ولهـذا قال له ابو ايوب : ما تنصره — يعني عثمان — الا انه أكثر لك من العضدان (النخلة المثمرة القصيرة الجذع) . الطبري ٤/٤٣٠ .

(٣٠) كعب بن مالك استعمله عثمان على صدقة مزينه وترك ما اخـذ منهم له . الطبري ٤/٤٣٠ .

(٣١) الطبري ٤\٤٢٨ .

(٣٢) الاغاني ١٦/٢٣٤ .

(٣٣) مروج الذهب ٢\٣٤٢ .

العطاء الا انه لم يحاول الاحتفاظ ببيت للمال بصورة دائمة اعتقاداً منه ان في ذلك خيرا للمسلمين ، وان حزن المال لا مسوغ له او مبرر ، كما وانه لم يكتف بعطاء واحد وانما تعددت عطاياه . ففي رواية ابي حكيم « ان عليا اعطى العطاء في سنة ثلاث مرات ، ثم اتاه مال من اصفهان فقال : اغدوا الى عطاء رابع اني لست لكم بخازن (٣٤) » . لكن الامام لم يعش طويلا لنشهد نتائج تلك السياسية المالية ، حيث وضع اغتياله حدا لاستمرارها .

وبمجيء الامويين الى السلطة اصبح العطاء وما يتبعه من هدايا وهبات من الوسائل الهامة للسيطرة على الجماعات المختلفة وصفحات ولائها لمساندة الحكم القائم ، خاصة وان فيضا من المال اخذ يتدفق على دمشق بشكل لم يعرف له سابق او مثيل . فقد جبى معاوية ابن ابي سفيان الكوفة وسوادها خمسين مليون درهم (٣٥) ، على حين بلغ خراج البطائح خمسة ملايين درهم كما يذكر قدامة (٣٦) ، اما هدايا النوروز والمهرجان فبلغت عشرة ملايين درهم من البصرة وحدها (٣٧) . وسدت الجزية مكانا واسعا في بيت المال رغم قلة معلوماتنا عنها ،(٣٨)

---

(٣٤) ابن سلام : الاموال ص ٥٧٠ .

(٣٥) اليعقوبي ٢٥٨/٢ .

(٣٦) قدامة بن جعفر : الخراج وصنعة الكتابة ص ٢٤٠ .

(٣٧) اليعقوبي ٢\٢٥٩ ، وانظر الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢٤ .

(٣٨) نستطيع القول ان معلوماتنا عن واردات الجزية تكاد تكون معدومة بسبب نقص الروايات المتعلقة بهذا الباب من ناحية وصعوبة تحديد صنف وعدد اولئك الذين كانوا يؤدونها من ناحية ثانية ، الا أن البلاذري (فتوح ص ٢٧٠) يذكر ان ٥٥٠ الف كانوا يؤدون الجزية زمن عمر ، ترى كم يدفعون ، وعلى اية طبقة يحاسبون : اغنياء ، متوسطي الحال ام فقراء ؟

هذا في العراق وحده ، فما بالك بمصر وخراسان [٣٩] .

وهكذا تمتع بيت المال بقدرة مالية كبيرة استطاعت ان تثبت كيان الامويين في بداية تكوين سلطتهم . لقد استطاع معاوية ان يضمن قبائل الشام بما كان يغدقه عليها من اموال طائلة ليتمكن بها من فرض سلطة دمشق على الاقطار التابعة لها حتى غدت تشكل في كثير من الاحيان نوعا من المساومة بين هذه القبائل والسلطة الحاكمة . اذ اشترط حسان بن مالك وكان زعيم قحطان وسيدها بالشام ، على معاوية ان يفرض لألفي رجل الفين الفين وان مات قام ابنه او ابن عمه مكانه كثمن لولائه للامويين [٤٠] . اما الحجاز ، مركز الصحابة ومنطلق الاتجاهات المعادية للامويين ، فقد اغدق معاوية عليها المال بسخاء لامتصاص كل ما من شأنه تعكير العلاقات القائمة بين المدينة ودمشق ، وقطع السنة المعارضة هناك [٤١] . وهكذا لم يستطع بيت المال رغم ضخامة وارداته ان يفي بتلك الالتزامات الباهضة التكاليف ، وهذا ما دفع معاوية الى ايجاد موارد اخرى لسد ذلك العجز الخطير ، ولهذا كتب الى عامله على مصر ان « زد على كل رجل من القبط قيراطا ، حتى استنكر العامل هناك ما امره به مولاه قائلا : وكيف ازيد عليهم وفي عهدهم الا يزايد عليهم [٤٢] » . مما حملهم على اعلان الثورة حيث اخمدها الامويون بحد السيف . وفي المدينة حاول واليها عاصم بن ابي هاشم بن عتبة اصلاح طريقة العطاء لتوفير بعض الموارد لبيت المال وذلك حين قال:

(٣٩) ليست هنالك معلومات وافية عن واردات كلا المصرين ، لكنهما اديا لدمشق مبالغ لا يستهان بها .

(٤٠) مروج الذهب ٣/٩٥ .

(٤١) اتخذ الانصار موقفا معاديا للامويين ، حتى انه لم يكن مع معاوية منهم سوى النعمان بن بشير وكان عثمانيا . الاغاني ١٦/٢٨ .

(٤٢) فتوح البلدان ص ٢١٩ .

« يأتيني اهلها فادفع الى كل رجل عطاءه في يـده [٤٣] » وكان العرفاء يأخذونها فلا يغيبون غائبا ولا يميتون ميتا ويصدقون اهلهـا يعطونهـم بعضها ويأخذون بعضها ، فكره الناس ذلك لما يصيبونه مـن حظ الموتى والغيب فامتنعوا من اتيانه [٤٤] . ويظهر ان هنالك محاولات جرت في اماكن اخرى لتعديل العطاء غير ان معلوماتنا عنها تكاد تكون نادرة الا ان هنالك بعض الاخبار المتفرقة تشير الى بعض من حط الولاة من عطائهم لأغراض سياسية او شخصية [٤٥] .

لقد تحمل العراق عبئا ثقيلا جراء موقفه المعارض خاصة بعـد ربطه بالشام ، وحال هذا دون استمرار تمتعه بتلـك الامتيازات المالية التـي حصل عليها ايام الامام علي ، بل اكثر من هذا فا ناهله اصابهـم حيف وتعنت شديدين [٤٦] . ولهذا غدت هذه المنطقة مسرحا للصراع الضاري بين الامويين والعراقيين عكس في بعض زواياه التذمر الواسع الانتشار الذي عم المنطقة كنتيجة لسوء التوزيع المالي وكثـرة التجاوزات علـى السكان هنا ، حتى اخذ معاوية الزكاة من اعطياتهم ، وهو امر لم يعرف في الاسلام من قبل [٤٧] . وشهدت خراسان سياسية مالية مجحفة حيث

(٤٣و٤٤) الزبيري : نسب قريش ص ١٥٤ .

(٤٥) عيون الاخبار ٢/٤٤ .

(٤٦) المقدسي : البدء والتاريخ ٦\٥ ، فلها وزن الدولة العربية ص ٥١ ـ ٥٢ . لا صحة لما يرويه الاصفهاني في ٢٩/١٦ « ان معاوية امر لأهـل الكوفة بزيادة عشرة دنانير في اعطيتهم ، وعامله على الكوفة النعمان بن بشير ، وكان عثمانيا ، وكان يبغض اهل الكوفة لرأيهم في علي ، فابى ان ينفـذها لهم . فلم يجيزها ولا نفذها » . ومرجع الشك في روايته يعود الى طبيعة العلاقات المتوترة بين الكوفة ودمشق والتي يصعب والحالة هـذه ان يراب صدعها حفنة من مال تعطى على شكل هبة أو عطاء من ناحيته ، ومن ناحيـة اخرى نجد من الصعوبة التصديق بأن يأمر خليفة مقتدر ولا ينفذ وآل متكل .

(٤٧) اليعقوبي ٢/٢٠٨ .

ضاعف عليهم اسلم بن زرعة ، والي معاوية هناك ، الخراج مائة الف درهم [٤٨] ، مما زاد التذمر هناك.

نستطيع القول ان العراق يكاد ينفرد عن كل من مصر وخراسان بظاهرة ازالة الأعباء الثقيلة عن كاهله بفضل الثورة تارة والانفصال عن الشام تارة اخرى ، وذلك لقدراته المالية والعددية اضافة الى اعدائه المستحكم لسلطة دمشق . وهكذا حل الزبيريون في الكوفة عام ٦٥ هـ مستغلين فترة الفوضى التيمزقت بلاد الشام خلال الحرب الاهلية ، غير ان سياسة عبدالله بن الزبير المالية الرامية الى السير حسب النهج الذي سلكه عثمان بن عفان والذي يقضي بان ترسل فضل اموالهم الى المدينة ، جوبهت بمقاومة شديدة وكان جواب اهل الكوفة « انا لا نرضى ان يحمل فضل فيئنا عنا ، والا يقسم الا فينا ، والا يسار فينا الا بسيرة علي بن ابي طالب التي سار بها في بلادنا ولا حاجة لنا في سيرة عثمان فينا [٤٩] » . وبهذا وضعت حكومة آل الزبير بدايةالنهاية لوجودها ، ومهدت السبيل لاستيلاء المختار بن ابي عبيد على الكوفة عام ٦٦ هـ معلنا استقلال العراق والمحافظة على ثروته بعيدا عن الشام وأهله . لقد انتشل المختار الموالي من اوضاعهم المزرية واعتمد عليهم وساداهم اجتماعيا وماليا بالعرب مما دفع زعماء القبائل الى مناصبته العداء ، وقد احتجوا قائلين : « عمدت الى موالينا وهم في افاءة الله علينا فاعتقنا رقابهم نأمل الاجر في ذلك والثواب والشكر فلم ترضى بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا [٥٠] » . وهكذا استطاع مصعبان يضمن ولاء بعض العراقيين بما كان يغدقه من اعطيات حتى انه لم يكتف

(٤٨) البدء والتاريخ ٦\٤ .

(٤٩) الطبري ٦/١١ .

(٥٠) ابن الاثير : الكامل ٤/٩١ .

بعطاء واحد بل دفع لهم عطاءين [٥١] . لكنه اصطدم بسياسة اخيه عبدالله المالية التي اتصفت بالبخل والتقتير مما حملهم على وضع ايديهم بيد عبد الملك بن مروان وهو ما فعله اهل الحجاز للغرض نفسه .

لقد كان الاعتقاد ان يصاحب العهد الجديد تطور في حياة القوم الاقتصادية في جميع المناطق الخاضعة لدمشق ، لكن الامر لم يبدو كذلك وانما اقتصر على طبقة معينة ، على حين اهمل الملأ الاكبر من الناس. فالحجاج كان يفرض في ثلثمائة ويشترط ان يكون من فرض له صاحب فرس وسلاح شاك [٥٢] . كما وان هنالك من لم يتجاوز عطاؤه المائتين [٥٣]، بينما يحصل عكرمة بن ربعي صاحب شرطة بشر بن مروان [٥٤] ، مائة الف درهم [٥٥] . ويورد الثعالبي نصا فريدا للحالة المعاشية ومن الحجاج حين يذكر ان « الحجاج كان يجري لكاتبه يزيد بن اسلم كل شهر ثلثمائة درهم ، وكان يعطي منها لامرأته خمسين درهم ، وينفق في ثمن اللحم خمسة واربعين درهما ، وينفق باقيها في ثمن الدقيق وباقي نفقاته، وان فضل منه شيء ابتاع به ماء وسقاه المساكين وربما ابتاع قطفا الثمار المقطوفة ــ ففرقها فيهم [٥٦] . من هذا نستطيع ان نستشف الضيق الشديد في الحالة المعاشية لأولئك الذين لم يتجاوز عطاؤهم مبلغا محترما وهو ما يختص بالمقاتلة من العرب ، فكيف تتصور حالة اهل البلاد الاصليين

---

(٥١) ابن اعثم : الفتوح . ج٢ورقة ٩٧ (مخطوطة المغرب).

(٥٢) البلاذري : انساب الاشراف (نشره اهلواردت) ص ٢٧٣.

(٥٣) ابن حبيب : المحبر ص ٣٤٠ .

(٥٤) تولى الكوفة لعبد الملك بن مروان عام ٧٣هـ ثم ضمت اليه البصرة، وكانت وفاته عام ٧٥هـ حيث تولاهما بعده الحجاج بن يوسف الثقفي (٧٥ ــ ٩٥ هـ) .

(٥٥) انسان الاشراف ١٧٧/٥ .

(٥٦) لطائف المعارف ص ٦٢ .

وهم غالبية الموالي ؟ وفي العراق حذف الحجاج الزيادة التي منحها مصعب للعراقيين باعتبارها زيادة ملحد منافق فاسد (٥٧) ، فكانت من نتائجها ان اعلنت الثورة ضد الحجاج بخاصة والشام بعامة قادها عبدالله ابن الجارود في البصرة وفي السنة الثانية لحكمه (٥٨) . ودفعه شدة الحاجة الى المال ان فرض الجزية على من اسلم ، وارهق اصحاب الارض فوق طاقتهم مما جعلهم يتركون قراهم والالتجاء الى المدن ، فنفاهم منها وارغمهم على الرجوع الى قراهم ونقش على يد كل واحد منهم اسمه واسم قريته (٥٩) . وبهذا مهد للثورة التي قادها عبد الرحمن بن الاشعث عام ٨٢ هـ والتي زعزعت السيطرة الاموية في العراق حتى يذكر ابو مخنف ان ابن الاشعث استطاع ان يحشد مائة الف مقاتل بوجه الحجاج دلالة على اتساع الثورة وقوتها (٦٠) ويعطي ابن خرداذبة صورة كاملة لتدهور الوضع الاقتصادي في العراق حين يقارن فترة الحجاج بما كان قبلها وما تم بعدها ، وذلك حين جبى عمر بن الخطاب (١١ ـ ٢٣ هـ) السواد ١٢٨ مليون درهم ، وجباة عمر بن عبد العزيز ١٢٤ مليون درهم، وجباة الحجاج ١٨ مليون درهم (٦١) .

ان الأوضاع الاقتصادية في العراق وصلت حدا بعيدا من التدهور مما عاد باضرار بالغة على الافراد خلال ولاية الحجاج واستمرت كذلك

(٥٧) الطبري ٧\٢١٤ .

(٥٨) انساب الاشراف (نشره اهلوارت) ص ٢٨٢ .

(٥٩) المبرد : الكامل ١\٤٤٠ .

(٦٠) الطبري ٨/١٥ .

(٦١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٤ ـ ١٥ . ومن الطريف هنا انه يقول : وجباه الحجاج ثمانية عشر الف الف درهم ليس فيها مائة الف الف ، وذلك لازالة ما قد يقع للقارىء من وهم فيظن انه نسي المائة مليون وهو الفرق بين جباية العمرين والحجاج .

الاحوال بعده ، مما ساعد على اذكاء نار الثورة حين استغلها يزيد بن المهلب عام ١٠٢هـ لتحدي الدولة الاموية • ويبرز الأثر الاقتصادي هذا من خلال الخطبة التي القاها في واسط بعد الاستيلاء عليها اذ قال : « يا اهل العراق ، يا اهل السبق والسباق ومكارم الاخلاق ، ان اهل الشام في افواههم لقمة دسمة قد زبدت لها الاشداق ، واقاموا لها على ساق ، وهم غير تاركيها لكم بالمراء والجدل ، فالبسوا لهم جلود النمور » (٦٢) •

لقد استغلت الطبقة المتنفذة موارد العراق بوسائل مختلفة على حساب اكثرية الشعب ، دونما وازع من ضمير او خشية من عقوبة • فهذا مسلمة بن عبد الملك يستحوذ على مساحات غير قليلة من تلك الاراضي • فالبلاذري وقدامة يرويان ان البثوق انبثقت ايام الحجاج فكتب الحجاج الى الوليد انه قدر لسدها ثلاثة ملايين درهم فاستكثرها الوليد ، فقال مسلمة انا انفق عليها على ان تعطني خراج الارض المنخفضة التي يبقى فيها الماء فحصلت له ارضون وطساسيج كثيرة » (٦٣) • ولم يختلف يزيد بن الملك (١٠١ ـ ١٠٥) عن سواه حين فرض ضرائب جديدة على العراقيين ، واضر باهل الخراج واعاد السخرة والهدايا والنوروز والمهرجان (٦٤) • ولم يكتف يزيد بهذا ، بل كتب الى عامله في العراق عمر ابن هبيرة انه ليس لأمير المؤمنين بارض العرب خرصة (٦٥) فسر على القطائع فخذ فضولها لامير المؤمنين فجعل عمر يأتي القطعة فيسأل عنها ثم يمسها » (٦٦) •

---

(٦٢) البيان والتبيين ١/٤١٠ •

(٦٣) فتوح البلدان ص ٢٩٢ ، قدامة بن جعفر : الخراج وصنعة الكتابة ص ٢٤١ •

(٦٤) اليعقوبي : ٢/٣٧٦ •

(٦٥) خرصة : شيء • اي ليس له شيء •

(٦٦) فتوح البلدان ص ٣٥٨ •

اما عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ ــ ١٢٥ هـ) فالباحث في تلك الفترة لا يعدم ان يجد جذورا عميقة لهذا التذمر يتصل اتصالا وثيقا بحياة الناس الاقتصادية انذاك . فعماد الحياة الاقتصادية في العراق انذاك قائم على الزراعة (٦٧) وعلى رخص الاسعار وقلة اثمان المواد الغذائية (٦٨)، فاذا علمنا ان الخليفة هشام كان قد احتكر مساحات واسعة من الاراضي الزراعية لنفسه (٦٩) واخذ يتحكم بأسعار الغلال فيها مما ادى الى ارتفاع تكاليف المعيشة ، ادركنا سبب التذمر جراء ذلك الغلاء . ولما كان خالد ابن عبدالله القسري (١٠٦ ــ ١٢٠ هـ) عاملة على العراق هو الاداة المنفذة لعملية الاستغلال هذه فقد اتجهت نقمة الناس اليه ، ولما كان الخليفة هو المحتكر والمستغل في واقع الامر فقد اضطر خالد الى مصارحتهم بالحقيقة ليبرى ساحة نفسه ، فلما شكوا اليه الغلاء قال لهم: « زعمتم اني اغلي اسعاركم فعلى من يغليها لعنة الله (٧٠) » . ويعني بذلك الخليفة هشام . لكن خالدا بما جبل عليه من سجايا الكرم والحرص على كسب الثناء دونما اعتبار لمال او طمعا في سلطانه (٧١) ، ادرك الثقل الكبير الذي ينوء تحته قطاع كبير من الناس فعمد الى ما عنده من غلال (٧٢) .

---

(٦٧) مختصر كتاب البلدان ص ١٦٤ ، الخراج وصنعة الكتابة ص ٣٤٠ .

(٦٨) مختصر كتاب البلدان ص ٦٥ .

(٦٩) الطبري ٢٤٩/٨ ، ابن خلدون ٣\٢٠٥ .

(٧٠) ابن الاثير ٥\٨٧ .

(٧١) العقد الفريد ٣٠٨/١ .

(٧٢) كانت الحالة الاقتصادية شغل خالد الشاغل بعد الركود الذي اصابها خلال عهد الحجاج الطويل المملوء بالحروب والفتن والثورات (الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٤٩ ، ابن الاثير ٤٩/٥) ، فقد اصلح الاراضي وسد البثوق وحفر الانهار فكثر الانتاج الزراعي وزادت الثروة العامة ، وكان خالد نفسه في جملة من حصل على ثروة كبيرة حتى بلغ

فباعها بثمن معتدل وربح منصف مما عرض غلات الخليفة هشام الى خسائر يبدو انها كانت كبيرة ، فكتب اليه مغاضبا : « لا تبيعن من الغلات شيئا حتى اتباع غلات امير المؤمنين » . بل ذهب ابعد من ذلك حين عزله ليتولى العراق مكانه يوسف بن عمر عام ١٢٠ هـ . وكانت خاتمة مطاف المشاكل بكل ابعادها في هذه المنطقة اندلاع ثورة زيد بن علي عام ١٢٢ هـ كنتيجة لمعاناة مرهقة ابتدأت بأفول نجم الكوفة كعاصمة للدول الاسلامية ، لكن فشلها وضع حدا لنهاية المقاومة العراقية تجاه الشام .

وفي مصر وشمال افريقية تكاد الحالة لا تختلف عن ذلك الذي الفناه في العراق ، فقد اصبحت هذه المنطقة كما يقول عمرو بن العاص [٧٣] « خزانة تدفع حسب حاجة ومشيئة عامل الخلافة عليها ، الا أن السمة الظاهرة لاوضاعها الاقتصادية تدل على ارهاقا بينا اصاب اهلها ، وسوء تقدير مجحف أضر طاقاتهم الانتاجية حيث يصفها عروة بن الزبير بقوله: « أقمت بمصر سبع سنين وتزوجت بها فرأيت اهلها مجاهيد قد حمل عليهم فوق طاقتهم [٧٤] » . ولهذا اشيعت بسبب تلك الأوضاع المزرية احاديث مرفوعة الى النبي ترحب بالرفق بهم والتخفيف عنهم [٧٥] ، وهي

ما يحصل عليه العام الواحد ثلاثة عشر مليون درهم ، وزادت غلة ابنه على عشرة ملايين درهم (اليعقوبي ٣٨٧/٢ الطبري ٨\٢٥٠ ، ابن الاثير ٥\ ٨). وتظهر الارقام ضخامة الأموال التي استغلت والارباح التي جناها المستغلون من خلال مطالبة هشام بن عبد الملك خالدا بعشرة ملايين درهم على ما يقوله الدينوري (الاخبار الطوال ص ٣٤٤) بينما يذكر اليعقوبي (٣٨٧/٢) انه طالبه بـ ستة وثلاثين مليون درهم .

(٧٣) فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٧ قال عمر بن العاص : انما انتم خزانة لنا ، ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف عنا خففنا عنكم .

(٧٤) فتوح البلدان ص ٢١٩ .

(٧٥) من ذلك قوله : « اذا فتحتم مصر فاسترصوا بالقبط خيرا فان

توضح بشكل جلي احوال السكان هناك ومدى الالتزامات الباهضة التي كانوا يؤدونها لذا وجدوا في مثل هذه الاحاديث خير متنفس لهم ورادع لحكامهم وكالعادة لا تعطي المصادر على اختلافها صورة واضحة عن طبيعة الاوضاع الاقتصادية واحوال السكان ومشاكلهم نتيجة لتلك الاوضاع ، الا بقدر محدود .

لقد استغلت مصر منذ الأيام الاولى للفتح لتزويد مناطق الحجاز وغيرها بما تحتاجه من مواد غذائية ، خاصة القمح الذي اشتهرت به منذ القديم حتى جعلتها روما وبيزنطة مركزا هاما لاستيراد تلك المادة(٧٦) ومن هنا كانت رسائل الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص فاتح مصر وفي السنة نفسها يحثه فيها على ارسال الخراج وما تنتجه الارض دون تأخير او تباطيء . فابن عبد الحكم يروي عن الليث بن سعد ان عمر ابن الخطاب كتب الى عمرو بن العاص في استبطاء الخراج « ... فاني فكرت في امرك والذي انت عليه ، فاذا ارضك واسعة عريضة رفيعة، قد اعطى الله اهلها عدد وجلد وقوة في بر وبحر ، وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك ، واعجب مما عجبت انها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدوب (٧٧) » . واذا تدبرنا رسالة الخليفة الثاني هذه رأيناها تلمح الى ناحيتين هامتين : الاولى ان عامل مصر قد

لهم ذمة ورحما (فتوح البلدان .) وقوله : « استوصوا بالقبط خيرا فانكم ستجدونهم الاعوان على قتال عدوكم » (ابن عبد الحكم : فتن مصر والمغرب ص ٤ ، وقوله : الله ، الله في قبط مصر فانكم ستظهرون عليهم ،ويكونون لكم عدة واعوانا في سبيل الله » فتوح مصر والمغرب ص ٤ .

(٧٦) بتلر : فتح العرب لمصر (ترجمة محمد فريد ابو حديد ، القاهرة ١٩٣٢) ص ٤٦ .

(٧٧) فتوح مصر والمغرب ص ٢١٣ .

دفع ما ترتب عليه من خراج الى حاضرة الخلافة ، لكن ذلك لم يكن كافيا بالقدر الذي كانت عليه عمارة المنطقة ورخاؤها ، والثانيةان هنالك احتجازا ظاهرا للمال بفعل تلاعب عامله ومن معه في المنطقة . ويظهر ان الخليفة كان غير راغبا في احراج عمرو بن العاص او اتهامه ولهذا كتب له : « وقد علمت انه لم يمنعك من ذلك الا عمالك ، عمال السوء اتخذوك كهفا ، وعندي باذن الله دواء فيه شفاء عما اسألك عنه (٧٨) » .وكان عمر قد سأل بعض من له علم بجباياتها فاخبره ان المقوقس قد جباها قبل الفتح بسنة فبلغت عشرين مليون ، في حين ادى عمرو بن العاص انها بلغت اثنى عشر مليون (٧٩) . وهكذا توالت رسائل الخليفة الثاني الى عامله على مصر « فقد عجبت من كثرة كتبي اليك في ابطائك بالخراج ... وقد علمت اني لست أرضى منك الا بالحق المبين ، ولم اقدمك الى مصر اجعلها لك طعمة ولا لقومك (٨٠) » . وكانت شدة حاجة الحجاز الى مادة مصر ومعونتها واضحا في الحاح عمر بن الخطاب على عمرو بن العاص (٨١)،

(٧٨) نفس المصدر ص ٢١٣

(٧٩) نفس المصدر ص ٢١٥ .

(٨٠) نفس المصدر ص ٢١٥ .

(٨١) لسنا على يقين من طبيعة العلاقة السائدة بين الخليفة الثاني وعامله عمرو بن العاص ، والذي يبدو ان الاخير حاول ان يثبت مركزه في هذه المنطقة على حساب المدينة حاول من هذا يستقل عن الخلافة ، فنراه يعمد تارة الى تأخير خراجها وبحجج واهية ، والمحافظة على ما فيها من مادة تارة اخرى . لكن شدة طلب عمرو ابن الخطاب جعاته يعدل عن تلك السياسة ، ويتضح ذلك من خلال الرسائل المتبادلة بين الرجلين والتي تعتبر خير وسيلة لتفهم تلك العلاقات . فقد كتب اليه : « الى العاص بن العاص ، فانك لعمري لاتبالي اذا سمنت انت ومن معك ان أعجف انا ومن قبلي ، فياغوثاه ثم ياغوثاه » . فكتب اليه عمرو بن العاص : اما بعد ، فيالبيك ثم يالبيك ، اتتك عير ، أولها عندك وآخرها عندي ، مع اني اجد السبيل الى ان احمل اليك في البحر » . لكنه ندم على ذلك الكتاب وقال : « ان امكنت عمر من هذا خرب

مما اضطر الاخير الى ان يحمل الناس كثيرا لسد تلك الحاجة .

وتظهر ولاية عبدالله بن سعد بن ابي سرح (٢٥ ــ ٣٥ هـ) حقيقة الأحوال الاقتصادية في مصر حيث جباها لعثمان بن عفان اربعة ملايين دينار ، بينما جباها عمرو بن العاص قبله مليونين ، ولهذا قال له عثمان بعد عزله : « ان اللقاح بمصر بعدك قد درت لبانها ، فقال له : ذاك لأنكم اعجفتم اولادها [٨٢] » . ولا نعلم على وجه التحديد من هو المحق، ومن هو على جانب الخطأ ؟ وعندي ان حجة عمرو بن العاص هي الاقوى، فقد حملها ابن سرح فوق طاقتها فجنى ما يريد دونما اعتراض من السكان بسبب عدم قدرتهم على القيام بعمل ما .

وهكذا لم تكن هنالك خطة مدروسة ، او نهجا واضح المعالم للقرارات الاقتصادية العامة ، وانما كانت تصدر حسب الظروف وتبعا لمقتضيات الاحوال .

ان الغاية الاولى لتقدم القوات الاسلامية كان يستهدف عدم استيطان العرب هناك ، بل يبقوا امة عسكرية تجبي وغيرها يعمل ، ويتضح ذلك مما قاله الخليفة الثاني للجيش المتقدم لاحتلال مصر : « اني لا احب ان ينزل المسلمون منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف [٨٣] » . وهذا يعني عدم الرغبة في الاستيطان لكن غنى المنطقة ورخاءها دفع الفاتحين

مصر ونقلها الى المدينة ، فكتب اليه : « اني نظرت في امر البحر فاذا هو عسر لا يلتام ولا يستطاع » . فكتب اليه عمر : « الى العاص بن العاص ، فقد بلغني كتابك ، تعته في الذي كنت كتبت الي به من امر البحر ، وايم الله لتفعلن او لأقلنك باذنك او لابعثن من يفعل ذلك » . فعرف عمرو ان الجدون عمر بن الخطاب ، ففعل

انظر فتوح مصر والمغرب ص٢٢٢ .

(٨٢) فتوح البلدان ص ٢١٧ ، الطبري ٢٥٧/٤ .

(٨٣) فتوح مصر والمغرب ص ١٣٣ .

الى عدم الموافقة على ذلك الاتجاه وتشجيع من قائد الحملة عمرو بن العاص الذي استغل ذلك للاستقلال بهذه المنطقة .[٨٤]

وفي عصر بني امية غدت مصر وشمال افريقية مناطق هامة للاستغلال الشخصي اضافة الى تزويد بيت المال بما يسد حاجته من مال، والاتفاق بين معاوية وعمرو بن العاص جعل من مصر طعمة يستغلها الاخير الى آخر يوم في حياته ، وهو ثمن وقوفه ومساندته لحاكم الشام اثناء نزاعه مع علي بن ابي طالب ، ذلك الاتفاق الذي قطع كل وصل بين دمشق والفسطاط من الناحية المالية حيث كان عمرو بن العاص « لا يحمل الى معاوية من مالها شيئا ، يفرق الأعطية في الناس ، فما فضل من شيء اخذه لنفسه[٨٥]» . لكن عقد الاتفاق بين الرجلين لم يسد باب المداهنة التي عرف بها معاوية، سيما وان الاخبار تترى عما يجنيه صاحبه من مال وفير له ولأهله من هذا الاقليم ، لذا سلك له طريقا اسمح وايسر بحيث يدع عواطف ابن العاص تسبق عقله لتلبية مطالب دمشق ، فكتب اليه : « اما بعد فان سؤال اهل الحجاز وزوار اهل العراق قد اكثروا علي ، وليس عندي فضل من اعطيات الجنود ، فاعني بخراج مصر هذه السنة . فكتب اليه عمرو :

---

(٨٤) لم يكن سبب هبوط الضريبة في مصر اثناء ولاية عمرو بن العاص عائدا الى اي نوع من الاختلاس ، اذ ليس ذلك سبيله ، سيما وانه اعد نفسه للهيمنة على هذا الاقليم وأهله ، ويظهر ان هنالك عوامل عديدة ادت الى ذلك الانخفاض منها ان التجارة قد شلت بفعل الحروب التي تعرضت لها المنطقة من ناحية ، وكذلك قلة عدد دافعي الجزية لاعتناقهم الاسلام من ناحية ثانية . ويبدو ذلك جليا من مجموع الضرائب المستحصلة قبل الفتح وبعده ، حيث بلغت عشرين مليون دينار زمن المقوقس ، على حين جباها عمرو بن العاص اثني عشر مليونا ، ثم ارتفعت ثانية الى اربعة عشر مليونا في ولاية عبدالله بن سعد بن ابي سرح ولكنها مالبثت ان هبطت زمن الأمويين . المقريزي : الخطط ١/٩٨-٩٩ .

(٨٥) اليعقوبي ٢\٢١١ .

معاوية ان تدركك نفس شحيحة فما ورثتني مصر امي ولا ابي
وما نلتها عفواً ولكن شرطتها وقد دارت الحرب العوان على قطب
ولولا دفاعي آلا شعري وصحبه لا لفيتها ترغو كراغية السقب

فلم يعاوده بعد ذلك في شيء من امرها . (٨٦)

وبموت عمرو بن العاص عام ٤٣ هـ اعيدت تلك الثروة الى الشام ، واضحى ما يفيض عن عطاء الجند وارزاقهم ، يرسل الى معاوية رغم معارضة العرب الشديدة هناك حيث نجد اشارة الى ان الديوان ضم اربعين الفا من المقاتلة كان اربعة آلاف منهم في مائتين من العطاء (٨٧) . وهذا يبعث على الاعتقاد ان بعضهم كان في ضيق مال كبير مما اجبر دمشق على فرض ضرائب جديدة على السكان لملافاة مصروفات الخلافة الخاصة من ناحية ، وسد باب النقمة المتأتية من اهل الديوان من ناحية اخرى ، اذ ان اخوف ما تخافه الشام هو العرب المستوطنة لاسكان البلاد الاصليين بسبب عدم قدرتهم على المقاومة .

لقد ابتدأت هذه الزيادة في عهد معاوية واستمرت من بعده حتى خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ــ ١٠١ هـ) الذي خفف كثيرا عن هذه المنطقة وامر بالزيادة في اعطيات الناس عامة (٨٨) لكن مجيء يزيد بن عبد الملك (١٠١ ــ ١٠٥ هـ) حال دون استمرارها ، اذ امر بقطع تلك الزيادة مما ادى الى تذمر واسع في صفوف العرب هناك ، وقد حدث ذلك بفعل حاجة الدولة الى المال لاضطراب امر العراق خاصة بعد احداث آل المهلب ومشاكلهم . ويظهر ان وضع يزيد المضطرب ترك لهشام بن عبد الملك (١٠٥ ــ ١٢٥ هـ) دولة مثقلة بالتزامات مالية لا تستطيع

(٨٦) الاخبار الطوال ص ٢٣٢ .

(٨٧) المقريزي : الخطط ١٤١/١ .

(٨٨) الكندي : الولاة وكتاب القضاة ص ٦٨ .

الايفاء بها ، وهنا يكمن السبب في حرصه على جمع المال وخزنه ،وارهقت مصر بضرائب لم تكن تعرفها من قبل في العهد الاسـلامي •فالبلاذري يروي ان الضريبة على الاسكندرية كانت ثمانية عشر الف دينار فبلغت في عصر هشام ثلاثين الفا [٨٩] • وفي ولايـة الحر بن يوسف لهشام كتب عبدالله بن الحجاب صاحب خراجها بان ارض مصر تحتمل الزيادة فـزاد على كل دينار قراطا ، مما أدى ثورة عامة للقبط قضى عليها الامويـون بشدة عام ١٠٧هـ [٩٠] • وهكذا توسلت دمشق بمختلف الوسائل لزيادة الضريبة ودعم بيت المال المتـداي ، حتى ان عبيدالله بـن الحجاب مسح الاراضي المصرية سنـة ١٠٧ هـ واستطاع ان يضمن لبيت المال اربعـة ملايين دينار نتيجة لذلك المسح [٩١] ، مما اجبر اصحاب الاراضي الـى تركها والنزوح الى المدن بسبب فداحة الالتزامات التي وضعت عليهم ، وعدم القدرة على الايفاء بها •

وهكذا واجهت الدولة الاموية او على الاصح ولاتها في مصر ، مشكلة خطيرة كادت ان تعصف بجميع الجهود التي بذلها هشام للتغلب على الازمة المالية الخانقة ، جراء ترك اصحاب القرى لقراهم • لذا كتب اليه الوليـد ابن رفاعة عامله على مصر سنة ١٠٩ هـ بنقل بعض القبائل القيسية مـن البادية ليحلوا محل السكان المحليين في زراعة الارض واستثمارها وضمن له خراجها [٩٢] • وكانت موافقة هشام مشروطة بعدم سكنى هؤلاء في الفسطاط ، وانما في منطقة الحوف الشرقي حيث موطن الثورة ضـد

---

(٨٩) فتوح البلدان ص ٢٢٥ •

(٩٠) الولاة وكتاب القضاة ص ٧٤ ، ولاة مصر ص ٩٥ • لم يقف الامر على السكان المحليين في حملة هشام بن عبد الملك التقشفية هذه ، بل شملت المقاتلة من العرب ايضا حيث انقصت ارزاقهم التي كانت اثني عشـر اردبا فجعلها عشرة (الولاة وكتاب القضاة ص ٨٢) •

(٩١) الولاة وكتاب القضاة ص ٧٨ •

(٩٢) الولاة وكتاب القضاة ص ٧٧ •

الامويين • لكن هؤلاء سرعان ما اشتغلوا بالتجارة الى جانب الزراعة[٩٣]، ولم يجن الأمويون ما كانوا يتوقعونه منهم • لذلك زيدت الضريبة مجددا على القبط فاعلنوا الثورة عام ١٢١هـ ، لكنها اجهضت بعنف وقوة [٩٤]•

وبهذا التقت مصالح السكان المحليين والعرب المستوطنة على مقاومة السلطة الاموية ، وكانت الدعوة العباسية خير متنفس لذلك الاتجاه، فمالوا اليها ، وانضموا الى صفوفها للتخلص مما يعانونه ، فاظهروا خلع الامويين وطردوا عمالهم [٩٥] • ويعطي الكندي صورة واضحة لأيام بني امية الاخيرة في مصر بقوله « وقدم مروان بن محمد مصر سنة ١٣٢ ، وسود اهل الحوف الشرقي ، واول من سود هناك شرحبيل بن مزيلة الكلبي ، ولحق الاسود بن نافع الفهري بالاسكندرية فسود بها ، وسود عبد الاعلى بن سعيد بصعيد مصر ، وسود يحيى بن مسلم باسوان ، وثار القبط في رشيد » [٩٦] •

والصورة بشأن شمال افريقية والاندلس لا تختلف عما الفناه في مصر للصلة السياسية والادارية الوثيقة بين هذه الاقاليم • فرواية الواقدي تذكر ان عمرو بن العاص اتجه بجنده نحو المغرب بعد فتح مصر ، فاستولى على برقه ، فصالح اهلها الجزية وهي ثلاثة عشر الف دينار يبيعون فيها من ابنائهم من احبوا بيعه » »[٩٧] وفي رواية يزيد بن ابي حبيب ان عمرو بن العاص كتب في شرطه على اهل لواتـه من البربر من اهل برقه « ان عليكم ان تبيعوا ابناءكم ونساءكم فيما عليكم من الجزية » [٩٨] ولا نستطيع ان تتصور تعسفا وجورا اشد من هذا

---

(٩٣) نفس المصدر ص ٧٦ •
(٩٤) نفس المصدر ص ٨١ •
(٩٥) ولاة مصر ص ١٠٩ ، الولاة وكتاب القضاة ص ٨٧ •
(٩٦) الولاة وكتاب القضاة ص ٩٥ ، ٩٦ •
(٩٧) فتوح البلدان ص ٢٢٥ •
(٩٨) نفس المصدر ص ٢٢٦ •

الذي حدث ونفذ في هذه المناطق المحتلة دون ان تأخذ الحاكمين شفقه بهم او رحمة .

ان مجيء عمر بن عبد العزيز حال دون الاستمرار بهذا الاسلوب المنافي لكل القيم الاخلاقية والاجتماعية والدينية ، لاستحصال الجزية ، بل ذهب الرجل الى اكثر من ذلك حين كتب الى عماله : « ان من كانت عنده لواتيه فليخطبها من ابيها او فليردها الى اهلها [٩٩] » . لكن موته حال دون استمرار تلك السياسة ، والتي يبدو انها عادت الى سابق ايامها زمن خلفائه .

لقد غدت هذه المناطق وصدرا للنهب والأستغلال المكشوف ، ومثالا صارخا لفساد الأدارة حيث أستتبع ذلك مضاعفات سياسية خطيرة كان لها ابعد الأثر في كيان الدولة الاموية . فهذا بشر بن صفوان عامل المغرب عرف كيف يستغل منصبه خلال خلافة يزيد بن عبد الملك ، وما ان اعتلى هشام بن عبد الملك السلطة حتى بعث له بشر باموال عظيمة وهدايا فأقره على منصبه [١٠٠] . ويصف اليعقوبي الحالة المروعة لنهب ثروات البلاد من قبل الولاة وجنيهم للاموال الطائلة على حساب اهل البلاد المفتوحة بقوله : « ولي هشام افريقية عبيدة بن عبد الرحمن بعد بشر بن صفوان فغنم غنائم كثيرة فخرج الى هشام باموال عظيمة وعشرين الف عبد» [١٠١] ويعطي ابن عذاري صورة أخرى لذلك الاستغلال حين يقول « ان الخلفاء بالمشرق كانوا يستحبون البربربات السنيات ، فلما افضى الأمر الى ابن الحجاب مناهم بالكثير ، وكلف لهم او كلفوه اكثر مما كان فاضطر الى التعسف وسوء السيرة [١٠٢] » . فلا غرو ان شهدت تلك الاماكن انواعا

---

(٩٩) نفس المصدر ص ٢٢٧ .

(١٠٠) اليعقوبي ٣\٦١ .

(١٠١) نفس المصدر ٣/٦١ .

(١٠٢) البيان المغرب ١\٥٢ .

غريبة من المساومات ، حيث يتولاها اولئك الذين يستطيعون ان يجزلوا العطاء لدمشق ، دونما اعتبار لحالة البلاد ، او اهتمام بسكانها ، حتى ان عبيدة بن عبد الرحمن حين خرج من افريقية كان فيما خرج به من العبيد والأماء ومن الجواري المتخيرة سبعمائة وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والذهب والفضة والآنية » (١٠٣) .

وفي طنجة اساء عمر بن عبدالله المرادي (١١٦/١٢٢ هـ) السيرة وتعدى في الصدقات والعشر ، واراد تخميس البربر ، وزعم انه في فيء المسلمين فقاموا عليه وقتلوه (١٠٤) .

وهكذا اشعلت نار الثورة في كل مكان من شمالي افريقية عام ١٢١ حين قادها البربر للتخلص مما كانوا يعانونه من استغلال لا طاقة لهم بتحمله او استيعابه ، وانتقلت ريحها الى الاندلس كنتيجة لاوضاعها الاقتصادية الشاذة لاستئثار العرب بالاراضي الخصبة من تلك البلاد الواسعة الارجاء تاركين مناطق الجبال في الشمال والغرب للبربر الذين كانوا يشكلون غالبية الجند ، والى سيوفهم الفضل في الاستيلاء على هذه البلاد (١٠٥) . ويمكن القول ان البربر شعروا بفداحة ما قدموه من تضحيات دون ما تعويض عادل مقابل تلك التضحيات ، فاتحدوا ضد العرب واجبروهم على النزوح الى وسط الأندلس (١٠٦) .

وتكشف الرسالة التي قدمها وفد شمال افريقية الى دمشق ، حقائق

---

(١٠٣) فتوح مصر والمغرب ص ٢٩١ ــ ٢

(١٠٤) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ٤٠ ، المؤلف : اخبار مجموعة ص ٢٨ ، وفي سنة ١٠٢ هـ حاول يزيد بن ابي مسلم عامل يزيد بن عبد الملك ان يفعل فعل الحجاج بالعراق حين اعاد اهل القرى الى قراهم ، ووضع الجزية على رقابهم وهم مسلمون ، فلما عزم يزيد على ذلك قتلوه . الطبري ٦١٧/٦ .

(١٠٥) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ٤٦٣ .

(١٠٦) المؤلف ابلهول : اخبار مجموعة ص ٣٨ .

مذهلة لاستغلال اقتصادي بشع ، واجحاف مرهق لا فسوغ للسكوت عليه او مهادنته ، بل مقاومته بكل سبيل خاصة بعد رفض الخليفة هشام بن عبد الملك استقبال ذلك الوفد او سماع شكواه • تقول الرسالة «ان اميرنا يغزو بنا وبجنده ، فاذا اصاب نفلهم دوننا ، وقال : هم احق به ، فقلنا : هو اخلص لجهادنا ، ولا نأخذ منه شيئا ، ان كان لنا فهم منه في حل ، وان لم يكن لنا لم نرده • واذا حاصرنا مدينة قال : تقدموا واخر جنده ،فقلنا: تقدموا فانه ازدياد في الجهاد ومثلكم كفى اخوانه ، فوقيناهم بأنفسنا، وكفيناهم • ثم انهم عمدوا الى ما شيتنا فجعلوا يبقرونها على السخال يطلبون الفراء البيض لأمير المؤمنين ، فيقتلون الف شاة في جلد ، فقلنا : ما ايسر هذا الأمير المؤمنين ما حتملناه ذلك وخليفاهم وذلك • ثم انهم سامونا ان يأخذوا كل جميلة من بناتنا ، فقلنا : لم نجد هذا في كتاب الله ولا سنة ، ونحن مسلمون ، فاحببنا ان نعلم : اعن رأي امير المؤمنين ذلك ام لا ؟» (١٠٧) •

واذا انتقلنا الى المشرق حيث املاك الدولة الساسانية ، فان اقاليم واسعة منها اجتاحتها خيول المسلمين بيسر ، مما دعاها الى تنظيم علاقاتها مع الفاتحين بمعاهدات للصلح دفعت بموجبها مبالغ محددة من المال اضافة الى بعض التعهدات الاخرى التي تتصل بأمن المنطقة وحماية الجند الاسلامي (١٠٨) • ومع هذا نجد ان تلك المعاهدات غير واضحة المعالم فيما يتعلق بتنظيم الشؤون المالية بين الجانبين ، ولا تعطي الصورة الكاملة لتلك الالتزامات ، ولا توضح طبيعة العلاقات التي سادت بين الجانبين • واذا كان هذا يصدق على بداية الفتوح في صدر الاسلام ، فتكاد الحالة تنطبق على العصر الاموي خلا بعض المقاطعات وفي فترات القى عليها ضوءا اكثر من سواها • ويظهر ان تلك المقاطعات كانت غالبا ما تعلن العصيان للتخلص

---

(١٠٧) الطبري ٤/٢٥٥ .

(١٠٨) فتوح البلدان ص ٣٢١ ، الطبري ٤/١٣٧ ، ١٤١ ، ١٥١ .

من تلك الالتزامات كما حدث لجرجان حين ارهقت كما يبدو ، بضرائب لا طاقة لها بها .(١٠٩)

يظهر ان ليست هنالك طريقة واضحة المعالم استند عليها الفاتحون لاستحصال الضريبة في هذه المناطق ، كما لم يكن هنالك مقياسا واحدا عوملت بموجبه لتنظيم احوالها الاقتصادية . فالبلاذري يشيرالى أن الفاتحين اخذوا الخراج عن الارض والجزيةعلى الرؤوس(١١٠) ، وهو ماجرت عليه العادة في السواد ، على حين يتبين من روايات اخرى ان تلك المناطق كانت تدفع ضريبة واحدة هي ضريبة الرأس (١١١) بدلا من ضريبتين .

ومع ان عصر الراشدين رأى حالة تلك البلاد وظروفها المختلفة ،فانها ادت مبالغ كبيرة من المال اضافة الى احتوائها مجموعات غفيرة من اولئك الذين هجروا الجزيرة واندفعوا للاستيطان في تلك الأماكن .

وفي عصر بني امية شهدت تلك الاماكن وضعا يكاد يكون صعبا ان لم يكن مجحفا ، من حيث تعسف الولاة وعمالهم دونما رقيب او حسيب . فهذا اسلم بن زرعة والي معاوية على مرو يضاعف الخراج على اهلها مائة الف درهم » وبحجة واهية هي غاية في الغرابة (١١٢) . وتعد اذربيجان مثالا فريدا للتعسف المرهق الذي حاق بالسكان هناك ، فالبلاذري يروي ان عشائر من المصرين ــ الكوفة والبصرة ــ والشام نزعت لهذا الاقليم « وغلب كل قوم على ما امكنهم ، واتباع بعضهم من العجم الارضين ، والجئت اليهم القرى للخفارة ، فصار اهلها مزارعين لهم (١١٣) » . هذه هي

(١٠٩) الطبري ٢٧١/٤ .

(١١٠) فتوح البلدان ص ٣٠٦ .

(١١١) نفس المصدر ص ٣٢٢ .

(١١٢) يروي المقدسي (البدء والتاريخ ٤/٦) انه اخبر اهل مروان يكفوا عنه نقيق الضفادع فاخبروه بان ذلك غير ممكن فضاعف عليهم الخراج.

(١١٣) فتوح البلدان ص ٣٢٤ ــ ٥

الصورة التي يرسمها البلاذري لما حدث هناك وهي ، وان حاولت ان تخف بعض ملامحها القاسية ، فان امعان النظر فيها يقود الى حقيقة لا سبيل لانكارها او تخطيطها وهي ان السكان اصبحوا عبيدا لسادتهم الجدد ،فاذا علمنا ان الكثير منهم كانوا قد اسلموا قبل هذا الوقت بزمن يكاد يكون بعيدا (١١٤) صح ما يذكره فان فلوتن عن فكرة الفاتحين ورؤسائهم فيما يتعلق بمهمتهم في هذه المناطق ، « فقد كان واحد منهم يجعل نصب عينيه مصلحته الشخصية قبل كل شيء ، اما الاسلام والعمل على نشره فقد ظل امرا ثانويا (١١٥) » .

وبرزت ظاهرة جديدة كتلك التي شهدناها في بعض مناطق السواد ، وهي حصول المتنفذين على اقطاعات واسعة لا جدال ان عددا غير قليل من الناس استخدم في سبيل استغلالها لصالح تلك الصفوة التي اثرت على حساب الآخرين (١١٦) . كما اصبحت خراسان موطنا للاثراء وسد الحاجة ، وغدت نعمها مصدرا للتكالب والتنافس العنيف بين الفاتحين انفسهم ، حتى نجد ان بعضا من رجال بكر بن وائل يأبى عليهم ان ينافسهم فيها رجال من قيس ، فيعلنون استياءهم وبشكل مفضوح « على ما يأكل هؤلاء خراسان دوننا » (١١٧) . فاذا كان الامر كذلك فما حال اولئك الذين لا حول له ولا قوة من سكانها الاصليين ؟

لقد لعب آل المهلب دورا كبيرا في خدمة بني امية وتثبيت حكمهم وتركيز سلطتهم في تلك المناطق ، وهذا ما دعا الى سلبها الكثير من خيراتها وارهاق اهلها بانواع مختلفة من الالتزامات الباهضة نتيجة للسلطة المطلقة

---

(١١٤) نفس المصدر ص ٣٢٤ .

(١١٥) السيادة العربية ص ٢٤ .

(١١٦) فتوح البلدان ص ٣٠٥ .

(١١٧) نفس المصدر ص ٤٠٤ .

التي تمتع بها هؤلاء لقاء تلك الخدمات التي قدمت لدمشق [١١٨] ، حتى كان مع يزيد بن المهلب بعد غزو جرجان خمس وعشرون مليون درهم حسب ما يروي المدائني [١١٩] ، مما حمل اهلها على الثورة تارة والعصيان تارة اخرى للتخلص من تلك الاعباء الثقيلة التي فرضت عليهم وتحملوها مكرهين [١٢٠] . ويصف المقدسي ما حل بهم بعد هذا العصيان بقوله ان يزيد بن المهلب فعل بهم الاعاجيب حتى لم يبق من اهلها الا من هرب او توارى وقتلوا أجمعهم » [١٢١] .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز تكشفت امور في غاية الخطورة للاوضاع المزرية في مناطق المشرق ، واولا ، لبقيت طي الكتمان لا سبيل للكشف عنها . فهنالك شكوى اهل سمرقند من غدر قتيبة وظلمه لهم ، واحتلاله لبلادهم [١٢٢] ، ولم تنج من النهب حتى مرافقهم العامة واماكن عبادتهم [١٢٣] ومن خراسان يرتفع صوت في حاضرة الخلافة ، قائلا لعمر بن عبد العزيز « عشرون الفا من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق ، ومثلهم قد اسلموا من اهل الذمة يأخذون بالخراج [١٢٤] » . فلا عجبا ان يفزع الخليفة لما سمع ، وهكذا كانت اوامره المشددة الى عماله باسقاط الجزية عمن اسلم، وهو يعلم ان تدابيره هذه قد تؤثر على موارد بيت المال ، فلم تكن غايته ومنتهى امله سوى تحقيق العدل ومنع الظلم دون سواهما .

---

(١١٨) يذكر الطبري (٥٥٧/٦) ان عمر بن عبدالعزيز كان يبغض يزيد ابن المهلب وأهل بيته ويقول هؤلاء جبابرة ولا احب مثلهم .

(١١٩) فتوح البلدان ص ٣٣٢ .

(١٢٠) نفس المصدر ص ٣٣١ .

(١٢١) البدء والتاريخ ٤٣/٦ .

(١٢٢) فتوح البلدان ٤١١ ، الطبري ٥٦٨/٦ .

(١٢٣) فتوح البلدان ص ٤١١ .

(١٢٤) الطبري ١٣٤/٨

لكن مشاريع عمر بن عبد العزيز الخاصة بالاصلاح المالي سرعان ما ذهبت ادراج الرياح بمجيء خلفه يزيد بن عبد الملك الذي كتب الى عماله « ان عمر كان مغرورا ، غررتموه انتم واصحابكم ، قد رأيت كتبكم اليه في انكسار الخراج والضريبة ، فاذا اتاكم كتاب هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده ، واعيدوا الناس الى طبقتهم الاولى اخصبوا ام أجدبوا ، احبوا ام كرهوا » (١٢٥) .

لم تعد خراسان تكفي متطلبات اولئك الذين كانوا ينشدون الغنى السريع منذ الايام الاولى لدولة بني امية ، وهذا يعكس الالحاح الدائم من العرب المستوطن للاستمرار بالغزو الذي يعتبر المصدر الرئيسي للثراء وحصولهم على اسباب الرفاة المتباينة الاخرى ، حتى انهم شكوا امية بن عبدالله عامل عبد الملك بن مروان حين ترك الغزو فأضر ذلك بالاجناد هناك (١٢٦) . بل جاوزوا ذلك الى عدم تنفيذهم اوامر عمر بن عبد العزيز التي قضت باقفالهم من اقاليم ما وراء النهر وعودتهم الى خراسان ، فاحتجوا بان مرو ضاقت عن ان تسعهم (١٢٧) ، ولم يكن الامر كذلك ، بل اصبحت بابا واسعا للغنى بعد ان جفت منابع الثروة في خراسان ، فلا غرابة ان نقلوا معهم حتى ذراريهم للاستيطان في تلك الاقاليم .

وغدت مناطق الترك هدفا للغزو وشن الغارة ، حتى ان الجراح بن عبدالله الحكمي غزا سنة ١٠٤ هـ بلنجر « وهزم الترك وغرقهم وعامة ذراريهم في الماء ، وسبوا ما شاءوا ، وفتح الحصون التي تلي بلنجر وجلا عامة اهلها » (١٢٨) . وبلغت غنائم الحرشي في خلافة هشام ابن عبدالملك مبالغ لا تحصى ، حتى حصل كل مقاتل منهم على الف وثمان مائة سوى

---

(١٢٥) العقد الفريد ٤٤١/٤ — ٢ .
(١٢٦) ابن اعثم : فتوح ج ٢ ورقة ١٠٩ .
(١٢٧) اليعقوبي ٤٧/٣ ، الطبري ٦\٥٦٨ .
(١٢٨) الطبري ١٥/٧ .

الاثاث والدواب [١٢٩] » ، ولم يكن امام السكان سوى الاستمرار بالمقاومة حتى يذكر البلاذري ان اهل سجستان وطبرستان خاصة ، كانوا يؤدون الصلح مرة ويمتنعون من ادائه أخرى حتى نهاية الامويين [١٣٠] .

وفي زمن اشرس بن عبدالله السلمي (١١٠ — ١١١ هـ) والي الامويين في خراسان جرت محاولة للاصلاح المالي ، استهدف التخفيف عما ينوء تحته الحشد الاكبر من الناس ، وذلك حين دعا اهل سمرقند وما وراء النهر الى الاسلام على ان توضع عنهم الجزية ، فلما اسلموا طالبهم بها [١٣١] ، واستخف بالدهاقين وزاد وظائف خراسان [١٣٢] . وقد هيأ هذا كله لثورة الحارث بن سريج الذي استطاع ان يحشد تحت لوائه ستين الفا من الجند اضافة الى دهاقين تلك الاقاليم المختلفة ، وأن يستولي على مرو والجوزجان والغارياب والطالقان ومرو الروذ ، مما اضطر عاصم بن عبدالله (١١٦ — ١١٧ هـ) امير خراسان الى طلب المساعدة العاجلة من دمشق

---

(١٢٩) ابن اعثم : فتوح ج٢ ورقة ٣٩ .

(١٣٠) فتوح البلدان ص ٣٣٣ .

(١٣١) الطبري ١٩٦/٨ ، ابن الاثير ٥\٥٨ .

لا سبيل للدفاع عن الاسباب التي ادت به الى اعادة الجزية على من اسلم ، وان ما يذكره مؤيدوا هذا الاتجاه من ان نقص الضريبة ، وشكه في الدوافع التي حملتهم الى دخول الاسلام لا يشكل حجة يستند عليها في هذا الباب . ويبدو لي ان الاصلاح المالي هذا لا اساس له من واقع ، وكل الذي حدث انه جند العدد الغفير منهم بحجة اسقاط الجزية عنهم ، فلما اصبحوا مقاتلين اعتبرهم غير مسلمين ، لمنع العطاء عنهم ، ومطالبتهم بالجزية اذا ما تركوا جيشه .

(١٣٢) فتوح البلدان ص ٤١٧ .

(١٣٣) فتوح البلدان ص ٤٢٩ ، الطبري ١٩٦/٨ . يحكى عن الحسن ابن ابي العمرطة نائب اشرس في سمرقند انه قال : اتيناهم وغلبناهم على بلادهم ، واستعبدناهم . الطبري ٣٨/٧ .

لصد زحف الحارث [١٣٤] .

ولا نبالغ في محاولة نصر بن سيار الاصلاحية في اواخر الدولة الاموية ، فان الرجل لم يقم بعمل يذكر سوى الغاء الجزية عمن اسلم ،وهو قاعدة اسلامية سارت مع الفاتحين ، وحلت في جميع البلاد التي وطأتها اقدامهم ، واذا كانت قد اندرست ومحيت في عهد الأمويين ، فان عمر ابن عبد العزيز قد اعاد العمل بها ، وهو أسبق من نصر بن سيار في التوكيد عليها والعمل بموجبها .

لقد قاست مناطق المشرق كغيرها من تلك البقاع التي خضعت لبني اميه ، من شتى المضايقات الاقتصادية التي ارهقت سكانها ، حتى لم يعد هنالك من سبيل المعودة او طريق التفاهم بعد ان ركب الحاكمون رؤوسهم ، فكانت الثورة هي الملجأ الاخير لزوال ذلك الطغيان ، والى هذا يشير فان فلوتن « ان زوال حكم بني امية قد اصبح محتوما منذ اللحظة التي برهنت فيها الحوادث على ان النظام الذي كان يتشبث به الامويون لم يعد ثمة ما يبرر بقاءه » [١٣٥] . وهذا احد شيوخ بني امية ومحصليها يشرح اسباب زوال دولتهم بقوله « انا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من انصافنا وتمنوا الراحة منا ، وتحومل على اهل خراجنا فتخلوا عنا ، وخربت ضياعنا فخلت بيوت اموالنا » [١٣٦] .

---

(١٣٤) الطبري ٨\٢١٩ — ٢٠

(١٣٥) السيادة العربية ص ٤٣ — ٤٤ .

(١٣٦) مروج الذهب ٢/٢٤١ .

المصادر

ابن الاثير : تاريخ الكامل ـ القاهره ۲۹۰ هـ
ابن خرداذبة : المسالك والممالك ـ ليدن ١٨٨٩ م
ابن سعد : الطبقات الكبرى ـ ليدن ١٩٣٢
ابن الطقطقى : الفخري في الاداب السلطانية ـ بيروت ١٩٦٠ م
ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ـ مصر ١٩٥٤ ، ١٩٦١
ابن عبد ربه : العقد الفريد ـ القاهرة ١٩٤٠ ، ١٩٦٥ .
ابن عذاري : البيان المغرب ـ ليدن ١٩٤٨
ابن قتيبة : عيون الاخبار ـ القاهرة ١٩٦٣
ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ـ بيروت ١٩٥٧
البلاذري : فتوح البلدان ـ القاهرة ١٩٥٩
الجاحظ : البيان والتبيين ـ القاهرة ١٩٤٨
الجهشياري : الوزراء والكتاب ـ القاهرة ١٩٣٨
الدينوري : الاخبار الطوال ـ القاهرة ١٣٣٠ هـ
الزبيري : نسب قريش ـ القاهرة ١٩٥٣
الطبري : تاريخ الامم والملوك ـ القاهرة ١٩٦٥ ، الحسينية
قدامة بن جعفر : الخراج وصنعة الكتابة ـ ليدن ١٨٨٦
الكندي : الولاة وكتاب القضاة ـ بيروت ١٩٠٨
ولاة مصر ـ بيروت ١٩٥٩
المبرد : الكامل في اللغة ـ القاهرة ١٩٣٧م

المسعودي : مروج الذهب ـ القاهرة ١٩٥٨
المقدسي : البدء والتاريخ ـ باريس ١٨٩٩
المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ـ بولاق
مؤلف مجهول : اخبار مجموعة في فتح الاندلس ـ مدريد ٨٦٧ ١م
الهمداني : مختصر كتاب البلدان ـ ليدن ١٣٠٢هـ
اليعقوبي : التاريـخ ـ ليدن ١٨٨٣م ، النجف ١٣٣٢ هـ
فان فلوتن : السيادة العربية ـ القاهرة ١٩٣٤ .

★ ★ ★